توجيهات وآداب ربانية

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

معانى المفردات

(يقنت) القنوت : الطاعة فى سكون والعبادة فى خشوع .

(مرض) تطلع إلى الفسق والفجور .

(وقرن فى بيوتكن) يقال : قررت فى المكان أقر به إذا أقمت فيه .

(ولا تبرجن) التبرج : الظهور مع إظهار ما يجب ستره .

(الرجس) الدنس الحسى (والحكمة) هى حديث رسول الله - ﷺ - .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال ، مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ، ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن مالا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

وبعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ، ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله

ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه سبحانه أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعنه من النبى (ﷺ) من السنة .

وبعد أن أمر سبحانه نساء نبيه (ﷺ) بأشياء ونهاهن عن أخرى ، ذكرهنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده فى الدار الآخرة ، روى أحمد عن عبد الرحمن بن شيبة قال : « سمعت أم تسلمة زوج رسول الله (ﷺ) تقول : قلت للنبى (ﷺ) : مالنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس : إن الله تعالى يقول فى كتابه (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات - إلى قوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [1] .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ **ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾ .

أى : من تطع منكن وتستجب لله - تعالى - ورسوله (ﷺ) وتعمل من الصالحات ، وتفعل الطيبات ، وتجتنب المنهيات نضاعف لها الأجر والثواب ، وأعتدنا لها رزقا كريما فى الدنيا والآخرة فإن أزواج النبى (ﷺ) أمهات المؤمنين وهن فى الآخرة مع رسول الله (ﷺ) فى الجنة وكفى بهذا شرفا وقدرا .

قوله تعالى :

﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ هذه آداب ربانية وتوجيهات إلهية حكيمة اشتملت على نصائح قيمة رفيعة ، خاطب الله بها نساء النبى ونساء الأمة تبعا لهن ، ومن ظن أنها مقصورة على نساء رسول الله محتجا بقوله تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء** ﴾ فقد أعظم على الله الفرية ، فإن نساء الأمة مأمورات بما أمر الله به نساء نبيه (ﷺ) ولكن نساء النبى لسن كأحد من نساء الأمة فى العقوبة والمثوبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إن اتقيتن** ﴾ أى : أن أتيتن بتقوى الله فليس هناك من يعد لكن من نساء الأمة إذ التقوى هى السلاح الأقوى .

ثم ساق الآداب والتوجيهات فقال : ﴿ **فلا تخضعن بالقول** ﴾ قال السدى - رضى الله عنه - يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ **فيطمع الذى فى قلبه مرض** ﴾ أى : دغل ومرض القلوب قد يكون مرض شبهة ، وقد يكون مرض شهوة كما فى هذه الآية .

---

(١) مسند الامام احمد جـ ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث عن عبدالرحمن بن شيبة .

أما مرض الشبهة فكما فى قوله جل شأنه : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ قوله تعالى: ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ .

قال ابن زيد : قولا حسنا جميلا معروفا فى الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

قوله تعالى :﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ أى الزمن بيوتكن . ففيها الوقار والسكينة لكن والاحترام والهيبة . فالمرأة فى بيتها مصباح مضىء وسراج منير ، ولا تخرجن إلا لحاجة . ومن الحوائج الشرعية : الصلاة فى المسجد بشرطه كما قال رسول الله (ﷺ) : (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات)[1] وفى رواية : (وبيوتهن خير لهن) .

وقال الحافظ أبو بكر البراز بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : جاءت النساء إلى رسول الله (ﷺ) فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله - تعالى - فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله (ﷺ) : (من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى)[2] ثم قال : لا نعلم رواه عن ثاثب إلاروح ، وهو بصرى مشهور .

وقال البزار بسنده عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) قال : (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها)[3] .

وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضا عن النبى (ﷺ) قال : (صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها)[4] وهذا إسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ لأئمة التفسير أقوال فيها . قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله عن ذلك .وقال مقاتل بن حيان : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده ، فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج هو ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج .

قوله تعالى : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ بعد أن نهاهن عن السوء

---

(١) انظر سنن أبى داود جـ ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ « كتاب الصلاة » باب ماجاء فى خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٦٥ ، حديث رقم ٥٦٧ .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار « كتاب النكاح » باب ثواب من أطاعت زوجها « جـ ٢ ص ١٨٢ حديث رقم ١٤٧٥ من رواية لأنس ، قال البزار ؛ لا نعلم من رواه عن ثاثب الا روح وهو بصرى مشهور .

(٣) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب الرضاع) باب ١٨ حديث رقم ١١٨٣ فقد ورد الحديث عن رواية لعبد الله ابن عمر بلفظ : (المرأة عورة ، فإذا اخرجت استشرفها الشيطان) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٤) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب التشديد فى ذلك ٥٤ أى فى خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٧٠ برواية عن عبد الله بن مسعود بلفظ : (صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها) .

أمرهن بإقام الصلاة ففى الصلاة عصمة وأمان . قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[١] وقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[٢] وقال : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه صلى ﴾[٣] وقال ﴿ واستعينو بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾[٤] ففى الصلاة طهرة للمصلى من اللغو والرفث ، كما أمرهن بعد ذلك بإيتاء الزكاة ففيها طهرة المال وطهرة القلوب من الشح . قال تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾[٥] وقد جاءت الزكاة مقترنة بالصلاة فى أساليب متنوعة وصيغ مختلفة جاءت بصيغة الماضى كما فى قوله تعالى ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾[٦] وجاءت بصيغة المضارع كما فى قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله - إن الله عزيز حكيم ﴾[٧] وجاءت بصيغة الأمر كما فى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[٨] .

وجاءت بصيغة الصفة كما فى قوله تعالى ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[٩] وجاءت بصيغة المصدر كما فى قوله تعالى ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيهم اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[١٠] .

قوله تعالى : ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى فى كل ما آمر به ونهى عنه وهو من باب عطف العام على الخاص .

قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

قال الامام ابن كثير هذا نص فى دخول أزواج النبى - ﷺ - فى أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا ، إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادى فى السوق ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

(١) سورة العنكبوت من الاية : ٤٥ .
(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ١ - ٢ .
(٣) سورة الأعلى الآيتان : ١٤ - ١٥ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٤٥ - ٤٦ .
(٥) سورة المؤمنون آية : ٤ .
(٦) سورة التوبة آية : ١٨ .
(٧) سورة التوبة آية : ٧١ .
(٨) سورة المزمل آية : ٢٠ .
(٩) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(١٠) سورة النور الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ نزلت فى نساء النبى (ﷺ) خاصة[1] وهكذا روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ﴾ قال نزلت فى نساء النبى (ﷺ) خاصة ، وقال عكرمة : من شاء باهلته إنها نزلت فى شأن نساء النبى (ﷺ) فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففى هذا نظر فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : (الصلاة يا أهل البيت) ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[2] .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطاء بن أبى رباح حدثنى من سمع أم سلمة - رضى الله عنها - تذكر أن النبى - ﷺ - كان فى بيتها فأتته فاطمة - رضى الله عنها - ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها فقال - ﷺ - لها : (ادعى زوجك وابنيك) قالت : فجاء على وحسن وحسين - رضى الله عنهم - فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له وكان تحته - ﷺ - كساء خيبرى قالت وأنا فى الحجرة أصلى فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ قالت - رضى الله عنها - فأخذ - ﷺ - فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : (اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) قالت : فأدخلت رأسى البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال - ﷺ - (إنك إلى خير إنك إلى خير)[3] .

قال ابن جرير بسنده عن حكيم بن سعد قال ذكرنا على بن أبى طالب رضى الله عنه عند أم سلمة - رضى الله عنها - فقالت : فى بيتى نزلت ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . قالت أم سلمة : جاء رسول الله (ﷺ) إلى بيتى فقال : (لا تأذنى لأحد) فجاءت فاطمة - رضى الله عنها - فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن - رضى الله عنه - فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده (ﷺ) وأمه - رضى الله عنها - ثم جاء على - رضى الله عنه - فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فجللهم رسول الله - ﷺ - بكساء كان عليه ثم قال : (هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت فوالله ما أنعم

---

(١) انظر تفسير الطبرى : جـ ٢٢ ص ٧ : تفسير سورة الأحزاب فقد ورد الحديث عن علقمة قال : (كان عكرمة ينادى فى السوق .. الخ .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح الترمذى تفسير سورة الأحزاب جـ ٩ ص ٦٧ - ٦٨ حديث رقم ٣٢٥٩ فقد ورد الحديث بلفظة عن أنس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين ﴾ جـ ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله جـ ٨ ص ٢٩ .
انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبى وائل عن عبد الله .

وقال : (إنك إلى خير)[١] .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطية الطفاوى عن أبيه قال : إن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ حدثته قالت : بينما رسول الله فى بيتى يوما إذ قالت الخادم إن فاطمة وعليا ـ رضى الله عنهما ـ بالسدة قالت : فقال لى رسول الله (ﷺ) (قومى فتنحى عن أهل بيتى) قالت : فقمت فتنحيت فى البيت قريبا فدخل على وفاطمة ومعهما الحسن والحسين ـ رضى الله عنهم ـ وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما واعتنق عليا ـ رضى الله عنه ـ بإحدى يديه وفاطمة ـ رضى الله عنها ـ باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل عليا وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال : (اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى) قالت : فقلت وأنا يا رسول الله ؟ قال ـ ﷺ ـ : (وأنت)[٢] .

وقال ابن جرير بسنده عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن هذه الآية نزلت فى بيتى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ . قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت : يا رسول الله ، ألست من أهل البيت ؟ فقال ـ ﷺ ـ (إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبى (ﷺ) قالت وفى البيت رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى وفاطمة والحسن والحسين ـ رضى الله عنهم[٣] .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن يزيد عن العوام يعنى ابن حوشب ـ رضى الله عنه ـ عن ابن عم له قال : دخلت مع أبى على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فسألتها عن على ـ رضى الله عنه ـ فقالت ـ رضى الله عنها ـ : تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت تحته إبنته وأحب الناس إليه ؟ لقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ـ رضى الله عنهم ـ فألقى عليهم ثوبا فقال : (اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . قالت : فدنوت منهم فقلت يا رسول الله : وأنا من أهل بيتك ؟ فقال ـ ﷺ ـ : (تنحى فإنك على خير) .

وقال ابن جرير بسنده عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : (نزلت هذه الآية فى خمسة : فى ، وفى على ، وحسن ، وحسين ، وفاطمة) ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[٤] .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعا عن ابن علية قال زهير : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنى أبو حيان ، حدثنى يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسمة إلى زيد بن أرقم ـ رضى الله عنه ـ فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله (ﷺ) وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ـ تفسير سورة الأحزاب ـ جـ ٢٢ص ٦، ص ٧ فقد ورد الحديث عن حكيم بن سعد
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى رباح وعن عطية الطفاوى عن أميه وانظر ص ٣٠٤ و ٣٠٥
(٣) انظر تفسير الطبرى (تفسير سورة الأحزاب) جـ ٢٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى سعيد عن أم سلمة .
(٤) انظر تفسير الطبرى (تفسير سورة الأحزاب . . جـ ٢٢ ص ٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى سعيد الخدرى) .

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله (ﷺ) قال : يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله (ﷺ) فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله (ﷺ) يوما خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال : (وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى) ثلاثا . فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس - رضى الله عنهم - قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال نعم[1] .

قال ابن كثير : والذى لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبى (ﷺ) داخلات فى قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ قال ابن جرير : واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة . وهى السنة ، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

وقال قتادة : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ قال يمتن عليهن بذلك رواه ابن جرير .

وقال عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ يعنى لطيفا باستخراجها خبيرا بمواضعها . رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن الربيع بن أنس عن قتادة .

قوله تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجر عظيما ﴾ .

---

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة جـ ٤ ص ١٨٧٣ حديث رقم ٣٦ - ٣٤٠٨ من رواية زيد بن أرقم وقد ورد الحديث بلفظه .

وانظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ حديث (زيد بن أرقم - رضى الله تعالى عنه -) فقد ورد الحديث بلفظه .

قال الامام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن شيبة قال : سمعت أم سلمة رضى الله عنها زوج النبى (ﷺ) تقول : قلت للنبى (ﷺ) ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعرى ثم خرجت إلى حجرتى حجرة بيتى فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر : (يا أيها الناس إن الله يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) إلى آخر الآية(١) .

قوله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ يفيد أن الاسلام غير الايمان ، فالاسلام هو الامتثال الظاهرى والايمان هو التصدق القلبى . كما قال تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ .

وقال ـ ﷺ ـ : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن)(٢) ومعنى ذلك أن الايمان يسلب منه حين الزنا ولكن لا يسلب منه الاسلام . فهو ليس بكافر بإجماع المسلمين . والاسلام والايمان وإن كانا متغايرين مفهوما إلا أنهما قد يتحدان أفرادا . قال تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾(٣) ومعلوم أن المقصود بهم هم الذين آمنوا بلوط ـ عليه السلام ـ وهم مسلمون فى نفس الوقت . وهم أهل بيته ولابد أن يتوافر للمرء لكى ينجو . الاقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان .

قوله تعالى : ﴿ **والقانتين والقانتات** ﴾ القنوت هو الطاعة فى سكون .
قال تعالى : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ **وله من فى السموات والأرض كل له قانتون** ﴾(٥) ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾(٦) ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾(٧) فالاسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الايمان ثم القنوت ناشىء عنهما .

﴿ **والصادقين والصادقات** ﴾ هذا فى الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لم تجرب عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الاسلام ، وهو علامة على الايمان كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ، عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر

---

(١) انظر مسند الامام احمد جـ ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث من رواية عبدالرحمن بن أبى شيبة .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٣٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى الزبير من حديث طويل .
(٣) سورة الذاريات الآيتان : ٣٥ ـ ٣٦ .
(٤) سورة الزمر آية : ٩ .
(٥) سورة الروم آية : ٢٦ .
(٦) سورة آل عمران آية : ٤٣ .
(٧) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨ .

يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا[١] ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) والايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك .

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الاثبات وهى الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقى ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى أصعبه فى أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ .

الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث : (اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢] .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ .

الصدقة هى الاحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وقد ثبت فى الصحيحين . قوله (ﷺ) (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : أمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع)[٣] وفى الحديث الآخر : (والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار)[٤] .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ : فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : (الصوم زكاة البدن)[٥] أى يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا ، قال سعيد

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ جـ ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله جـ ٨ ص ٢٩ .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتيين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبى وائل عن عبد الله .

(٢) انظر مجمع الزوائد (كتاب الصلاة) باب فى صلاة العشاء الآخرة والصبح فى جماعة جـ ٢ ص ٤٠ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لابى الدرداء .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب فضل إخفاء الصدقة حديث رقم ٩١ ـ ١٠٣١ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٤٣٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة من رواية أخرى .

(٤) انظر سنن ابن ماجه جـ ٢ كتاب الزهد (باب الحسد) حديث رقم ٤٢١٠ ص ١٤٠٨ وقد ورد أيضا من رواية لأنس فى كتاب الفتن (باب) كف اللسان فى الفتن جـ ٢ حديث رقم ٣٩٧٣ ص ١٣١٤ من رواية لمعاذ .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٣٩٩ فقد ورد الحديث عن جابر بن عبد الله .

(٥) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٥٥٥ (كتاب الصيام) باب فى الصوم زكاة الجسد) حديث ١٧٤٥ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ (لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم) .

ابن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل فى قوله تعالى : ﴿ **والصائمين والصائمات** ﴾ والصوم من أكبر العون على كسر الشهوة قال رسول الله (ﷺ) : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[١] .

﴿ **والحافظين فروجهم والحافظات** ﴾ أى عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال عز وجل : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾[٢] .

﴿ **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات** ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : إن رسول (ﷺ) قال :

(إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا **والذاكرات** ﴾[٣]

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قلت يا رسول الله : أى العباد أفضل درجة عند الله ـ تعالى يوم القيامة ؟ قال (ﷺ) (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) . قال : فقلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله تعالى ؟ قال : (لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه)[٤] .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله (ﷺ) يسير فى طريق مكة فأتى على جمدان فقال : (هذا جمدان سيروا فقد سبق المفردون) قالوا : وما المفردون ؟ قال (ﷺ) : (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) ثم قال (ﷺ) : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : والمقصرين قال (ﷺ) (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : والمقصرين . قال (والمقصرين)[٥] .

وقال الامام أحمد حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبدالعزيز بن أبى سلمة عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عباس بن أبى ربيعة قال : إنه بلغنى عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : قال رسول (ﷺ) : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟) قالوا : بلى يا رسول الله . قال (ﷺ) : (ذكر الله عز وجل)[٦] .

---

(١) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب النكاح) جـ ٤ ص ١٩٩ حديث ١٠٨٧ من رواية لعبد الله بن مسعود مع اختلاف فى ألفاظه .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥ ـ ٧ .

(٣) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب (قيام الليل) جـ ٢ ص ٧٤ حديث ١٣٠٩ فقد ورد الحديث عن رواية أبى سعيد وأبى هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب (ما جاء فيمن أيقظ أهله الليل) جـ ١ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ حديث رقم ١٣٣٥ من رواية أبى سعيد وأبى هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٧٥ فقد ورد الحديث لفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٥) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة من حديث طويل وانظر صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) الخ باب (الحث على ذكر الله ـ تعالى ـ) جـ ٤ ص ٨٦٢ حديث ٢٦٧٦ عن أبى هريرة .

(٦) انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ .

وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجعنى عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قال : إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) (أكثرهم لله تعالى ذكرا) قال فأى الصائمين أكثر أجرا ؟ قال (ﷺ) : (أكثرهم لله عز وجل ذكرا) ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول (رسول الله ﷺ) (اكثرهم لله ذكرا) فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله (ﷺ) (أجل)[1] .

﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أى : أن الله - تعالى - قد أعد لهم أى : هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة .

ومثل هذه الآية قوله تعالى . ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[2] .

وقوله جل شأنه ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[3] .

وقوله عز وجل:﴿ الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون ﴾[4] .

قصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

(١) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٤٣٨ من رواية لمعاذ بن جبل .
(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١١ .
(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ - ٣٥ .

ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

معانى المفردات

(الخيرة) الاختيار (مبديه) مظهره (وطرا) الوطر كل حاجة للمرء له فيها همة والمراد : بلغ ما أراد من جاجته منها (حرج) ضيق وإثم .

وزيد بن حارثة بن شر حبيل كان عبدا لخديجة فوهبته للنبى (ﷺ) فأعتقه وتبناه فكان يدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ فقيل : زيد بن حارثة .

وزينب هذه بنت جحش ، وأخوها عبد الله بن جحش ، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله (ﷺ) ، فهى من ذؤابة قريش .

روى : أن رسول الله خطب زينب بنت عمته فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين أنه يريدها لزيد كرهت ذلك وامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها ومكانتها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا فلما نزل قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ رضيا وقال أخوها : مرنى بما شئت فزوجها رسول الله لزيد (١) .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخبر زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا ، وفهم من هذا أن الرسول (ﷺ) لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شىء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره .

- ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الانسان فى كل شىء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع وما أراد النبى (ﷺ) فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ٩ فقد وردت روايات متعددة فى هذا المعنى .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمة النبى (ﷺ) أميمة بنت عبدالمطلب ، وقد خطبها رسول الله (ﷺ) على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش ، فنزل : ﴿ ومـا كان لمؤمن ولا مؤمنة . . ﴾الخ . فلما نزلت قال : رضينا يا رسول الله ، فأنحكها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما ، وخمارا ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لما يبال فيه النبى بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب ـ فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ، ومن ثم قال فى أول السورة : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعى إلى من تبناه ، والا يكون للمتبنى إلا حق المولى والأخ فى الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ فى النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بارادة قوية تسخر بسلطانها . ولا تجعل لها حكما فى الأعمال إذا كانت المصلحة فى خلاف ذلك ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل ، كما ألغى بالقول فى أحد عتقاه . ومن ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهى جديد . ذلك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله ـ (ﷺ) المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء فى تنفيذ حكم الله ويقول لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله ، الى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ ثم أكد هذا بقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

التفسير

قول تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ انطلق ليخطب على فتاة زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله الله عنها ـ فخطبها فقالت لست بناكحته فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (بلى فانكحيه) قالت : يا رسول الله ، أؤمر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول

الله - ﷺ - قالت : قد رضيته يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله - ﷺ - (نعم) قالت : إذ لا أعصى رسول الله - ﷺ - قد أنكحته نفسى [١] .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ هذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فلبس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[٢] وفى الحديث (والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[٣] ولهذا شدد فى خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ كقوله تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ﴾[٤] ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[٥] وكقوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[٦] .

وكقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[٧] وقوله جل شأنه ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

إنعام الله - تعالى - على زيد إنما يتجلى فى نعمة الاسلام والتوحيد والهدايا إلى الحق ، وإنعام النبى - ﷺ - عليه بفضل الله - تعالى - إنما هو بالعتق والتحرير .

روى الامام أحمد بسنده عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال كنت فى المسجد فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فقالا يا أسامة أستأذن لنا على رسول الله - ﷺ - فأتيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان ، فقال - ﷺ - : (أتدرى ما حاجتهما ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال - ﷺ - : (لكننى أدرى) قال فأذن لهما ، قالا : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا أى : أهلك أحب أليك ؟ قال - ﷺ - : (أحب أهلى إلىّ فاطمة بنت محمد) قالا : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة ، قال - ﷺ - (فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه)[٩] وكان رسول الله - ﷺ - قد زوجه بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية - رضى الله عنها - وأمها أميمة

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ٩

(٢) سورة النساء آية : ٦٥ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة النساء - جـ ص ٢٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٤) سورة النور آية : ٦٣ .

(٥) سورة آل عمران آية : ٣٢ .

(٦) سورة النساء آية ٨٠

(٧) سورة الأنفال من الآية : ٢٤ .

(٨) سورة التوبة جزء الآية : ٦٢ والآية ٦٣ .

(٩) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ تفسير سورة الأحزاب ص ٤١٩ .

بنت بن المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفا ودرعا وخمسين مدّامن طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينها فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) .

قوله تعالى : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ أى : تخفى فى نفسك الأمر الذى أعلمك الله به من أن زيدا سيطلق زينب وستكون زوجا لك ، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد غلبه الحياء فأخفى هذا الأمر ، كما أنه كان يخشى أن يقول الناس عنه إنه تزوج امرأة متبناه ، وقد روى البخارى أن هذه الآية ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه . . ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة ـ رضى الله عنهما .

الحكمة من زواج زينب بزيد ثم من الرسول ـ ﷺ ـ

جاء فى كتاب (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ) للدكتور ابراهيم شعوط ما نسوقه بنصه قال :

١ـ قصة زواج الرسول بزينب بنت جحش :

كانت تقاليد العرب فى الجاهلية تقضى ـ فى نظام الأسرة ـ بأمور :

أحدهما أن المرأة القرشية لا يمكن أن تتزوج مولى من الموالى مهما كانت ثقافته ومنزلته ، وتعتبر مثل هذا الزواج . خروجا على التقاليد والعادات . التى تحترم فروق الطبقات .

ثانيهما : أنه إذا حدث أن تزوج المولى بامرأة من قريش وطلقها فإن منزلتها تهون بهوان زوجها . فلا يتزوجها شريف ولا محترم .

وثالثهما : أن زوجة الابن المتبنى ، كانت تحرم على الوالد بالتبنى . كما تحرم زوجة الابن من الصلب فلما جاء الاسلام كان لابد له أن يغير من وضع هذا المجتمع ، كما ذكر القرآن الكريم ضمن المحرمات على الرجل قوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾[1] وذلك بخلاف الابناء عن طريق التبنى ويحطم نظام الطبقات ، كما يقضى على عادات الجاهلية الممقوته .

فأوحى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يزوج شريفة قرشية ، من أعلى سلالات قريش نسبا ـ يزوجها ـ من مولاه (زيد) الذى كان رقيقا وأعتقه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم تبناه ، ليترتب على هذا الزواج الأمور الآتية :

أولا : أن تكون القرشية التى تقوم بهذا الدور ، هى بنت عمة الرسول ، ومن القمة فى قريش . لتكون تحت هذا المولى ، فتتحطم الفوارق بالأصل والحسب ، ويصبح التفاضل بمعايير أخرى جديدة . تقوم على المبدأ الإلهى الجديد وهو ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] ﴿ ولا فضل لعربى على عجمى

---

(١) سورة النساء من الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٣

إلا بالتقوى ﴾[1] فيخطب رسول الله - ﷺ - بنت عمته زينب بنت جحش ، لمولاه أو ابنه المتبنى (زيد ابن حارثة) فيثور الكبرياء العربى فى نفس زينب وأخيها عبد الله بن جحش ، وتتمثل لهما المهانة كلها فى هذا الزواج لكن قرآنا ينزل فى شأن زينب وأخيها بالذات ، ليقطع عليهما طريق الجدل فيتلو عليهما رسول الله - ﷺ - فى أمره تعالى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

وخضع الرجل وخضعت المرأة المؤمنة للأمر الالهى ، فسلمت جسدها لزيد ، ولكنها لم تستطع أن تعطيه قلبها الذى تملكه عادات موروثة ويتحكم فيه العجز عن مجابهة الحقيقة الجديدة ، التى لم تسبقها تجربة قبل تطبيقها على زينب ، فتظل جامحة نافرة من قسوة التجربة وغرابة التطبيق ، فلا تستطيع أبدا أن تتصور أن هناك كفاءة بينها وبين زيد ، لأنه شتان بين نسبها ونسبه . وحسبها وحسبه .

وكان موقفها أمام الأمر الالهى ورغبة الرسول ، ينطبق عليه المثل الانجليزى الذى يقول : (فى وسعك أن تأتى بالجواد إلى شاطىء النهر ، ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد) .

نعم ، إن زينب استجابت ببدنها وجسدها ، ولكنها تجد الغصة ، دائما فى حلقها ، وتحس التمرد فى قلبها ، كلما تذكرت أنها - وحدها - من بين الشريفات الحرائر ، يكتب عليها الزواج من إنسان كان - إلى عهد قريب - من ضمن العبيد الأرقاء . بينما نظيراتها - ومن هن أقل منها - يتزوجن من أكابر الأشراف والأحرار !!

وكان زيد ، يعانى من تلك العوامل النفسية عند زينب ، أشد ما يعانيه المعذبون فى حياتهم الزوجية .

كان هذا هو التخطيط الالهى لأنه سيترتب على فساد العشرة بين زيد وزينب ، أثر آخر لابد من تحقيقه فى المجتمع . ولكن موعد هذا الأمر لم يكن معروفا لرسول الله ، وإن كان يعلم أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها بعد زيد ، ليقضى على فكرة تحريم زواج الوالد من زوجة ابنه المتبنى إذا طلقها .

ولكن متى ذلك ؟ هذا هو الذى لم يعرفه رسول الله - ﷺ - ولذلك كان يقول لزيد - حينما يشكو له - : (أمسك عليك زوجك واتق الله) . وكان رسول الله - ﷺ - يدور فى خلده ، مقالة قريش فى الخروج على العادات والتقاليد ، كلما شكا له زيد من عجزه عن العيش مع زينب ومن أجل ذلك نزلت الآيات .

﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ .

وثانيا : كان من وراء هذا التدبير ، أن يطلق زيد زينب ، فيتزوجها رسول الله ليحقق غرضين :

---

(١)انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٤١١ باب (حديث رجل من أصحاب النبى) فقد ورد الحديث عن فقرة من حديث طويل .

(١) أن يبطل ما كان تدين به العرب من مساواة الأدعياء - الأبناء بالتبنى - بالأبناء الحقيقيين فى كل شيء ، تنفيذا للأمرا الألهى فى الآية : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل)[1] وكذلك النص على المحرمات من النساء لقوله : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)[2]

٢ - أن يضرب مثلا آخر لاتباعه فى المجتمع الجديد ، بإحقاله على زواج المرأة التى هانت منزلتها - بعيشها تحت عبد رقيق - لأنها لو تركت من غير ان يتزوجها رسول الله . لبقيت فى مهانة إلى الأبد : لا يقربها شريف من قومها ، ولا يرد لها اعتبارها .

فمن الذى يرفع قدرها ، ويشرح صدرها ، ويعيد إليها مكانتها بين أترابها ؟ من غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم الذى أمرها ان تتزوج من مولاه ؟

فإذا كان أمر رسول الله هو سبب نزولها - فإن زواجها من رسول الله هو الذى يداوى جراحها ، ويرفع هامتها ، ويمدها بالعز والمجد والعظمة هذه هى صورة زواج رسول الله من زينب بنت حجش .

فهل رواها المفسرون والمؤرخون على هذا الوجه المنتزع من الحقيقة والواقع ومما ترتب عليها من التشريع الجديد الذى يعتبر مفخرة للاسلام ورسول الاسلام ؟ .

تعالى معى لنمحص على المؤرخين - والمفسرين المسلمين - غفلتهم وهم يمدون خصوم الاسلام بالأسلحة التى يطعنون بها معتقداتنا ، ومقدساتنا ، فذكروا رسول الله - وهو المعصوم - بأمر يطعنه فى خلقه ، وهو الذى أثنى عليه ربه من أجله فقال له : (وإنك لعلى خلق عظيم)[3] .

فهذا الطبرى ، وابن الأثير ، وهما من كبار المؤرخين المسلمين جاء فيما نقلاه عن زواج رسول الله بزينب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج يريد زيدا وكان على باب زيد ستر من شعر ، فرفعه الريح فرأى زينب وهى حاسرة فأعجبته ، وكرهت الى زيد فلم يستطع ان يقربها .

وقال المفسرون : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر ببيت زيد ولم يكن فيه زيد ، فرأى زينب فبهره حسنها وقال : « سبحان مقلب القلوب » (راجع تفسير ابو السعود جـ ٤ تجد فيه ما لا يليق بمسلم ان يذكره عن رسول الله المعصوم) وقال أخرون : انه لما فتح باب زيد ، عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب ، فرآها فى قميصها ممددة - كما تقول المستشرقة التافهة مدام « ديكاميه » - فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة ، وعائشة وحفصة ، وزينب بنت مخزوم ، وام سلمة ، نسى كذلك ذكرى خديجة .

ومن هؤلاء الدكتور طه حسين الذى يقول: (إن الله أراد أن يمتحن نبيه ويمتحن فى ذلك زيدا ، ويمتحن فى ذلك المؤمنين الصادقين جميعا فيلقى فى قلب النبى حب زينب زوج زيد ، ويلقى فى قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها) .

والمؤسف فيما كتبه المؤرخون المسلمون ، أنهم أخذوا من المستشرقين الذين يهمهم تشويه سمعة الرسول وأصحابه .

(١) الأحزاب آية : ٤
(٢) النساء آية : ٢٣
(٣) القلم آية : ٤

- ومن الذين صوروا هذه القصة تصويرا لا يليق ، المستشرق جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) حيث يقول : ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال : (حبب إلى من دنياكم ثلاث ، الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة ولم يبال محمد بسن المرأة التى يتزوجها ، فتزوج عائشة وهى بنت عشر سنين ، وتزوج ميمونة وهى فى الحادية والخمسين ، وأطلق محمد العنان لهذا الحب . حتى انه رأى اتفاقا . زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية ، فوقع فى قلبه شىء منها ، فسرحها بعلها ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون فأوحى الله الى محمد بواسطة جبريل ، الذى كان يتصل به يوميا ، آيات تسوغ له ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت

ومما يثير الأسي والحزن ويحدث الجراح الدامية فى عقيدة المسلمين . ما ذكره الزمخشرى وأبو السعود فى تفسير سورة الأحزاب عند ذكر زواج زينب .

اسمعوا يا شباب الاسلام واحذروا !

يقول الامام الزمخشرى فى الجزء الثانى من تفسيره وأبو السعود فى الجزء الرابع : (إن رسول الله - ﷺ - أبصر زينب بعد ما أنكحها إياه ، فوقعت فى نفسه فقال : (سبحان مقلب القلوبّ) وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لا ختطبها) .

ثم يقول الزمخشرى :

فإن قلت : ما الذى افضى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها .

ثم يقول الزمخشرى ايضا : (فإن قلت : كيف عاتبه الله على ما استهجن التصريح به - وما له لم يعاتبه فى نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس - أن تنزع إلى زينب وتتبعها ؟ قلت : كم من شىء يتحفظ منه الانسان ويستحى من اطلاع الناس عليه . وهو - فى نفسه - مباح متسع وحلال مطلبه ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله) .

ثم يقول : (لأن طموح القلب إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها ، غير موصوف بالقبح فى العقل ، ولا فى الشريعة ، لأنه ليس بفعل الانسان ولا وجوده باختياره) !!

ثم يستطرد الزمخشرى فيقول : (فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حيث كتمه ، وبالغ فى كتمه بقوله ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ لا يرضى إلا اتحاد الضمير والظاهر . والثبات فى مواطن الحق . حتى يقتدى المؤمنون به ، فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وان كان مرا .

هكذا قال الزمخشرى وأفاض . . وتبعه الطبرى فى تاريخه ، وأبو السعود والنسفى فى تفسيريهما ، وابن الأثير فى تاريخه ، ومن نقل عن كل هؤلاء حتى مكنوا للمستشرقين من الاطناب فى تخريج هذه الروايات واتخاذها بوقا ضخما يذيعون منه ما تجود به بغضاؤهم وأحقادهم على رسول الله - ﷺ - .

ونحن نقول : (عدو عاقل خير من صديق جاهل) يا مسلمون ؟ ان القصة تعتبر من مفاخر محمد - ﷺ - ، وتبرهن على تنفيذ ما أمر به من تشريع ، يراد به محو تقاليد الجاهلية وعاداتها ووجد فى ذلك عنتا شديدا ، من مخالفته عادات القوم وتقاليدهم ، حتى اضطر إلى إخفاء الخطة المرسومة بينه

وبين ربه إلى أن يجد الظروف المناسبة لاعلان ما أخفاه . وهذا واضح جدا فى قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الـذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ .

فكيف تؤخذ هذه القصة المأخذ الدنىء ؟ وكيف تصور تصوير قصص الغرام والوله ؟ وكيف يرويها رواة مسلمون فى كتب انتشرت فى كل أنحاء العالم من غير تدبر فيما تهدف إليه ، دون أن يدركوا أنه يكفى لتفنيدها أمور عدة :

أولا : أن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ليكلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ ففى الآية الكريمة ذكر صحيح صريح لسبب تزويج زينب من رسول الله ـ ﷺ ـ وهو إسقاط حرج المؤمنين من زواج نساء أولادهم بالتبنى ، بعد أن يكون هؤلاء الأولاد قد قضوا من أزواجهم كل غرض . ولم يكن فيما طوت الآية ولا ما صارحت به ما يدل ـ من قريب أو بعيد على أن رسول الله كان يهوى زينب أو وقعت من قلبه فى مكان عميق ، حتى يحوقل ، ثم يقول : (سبحان مقلب القلوب) كما قال السادة المفسرون والمؤرخون !

ثانيا : أن زينب ابنة عمة محمد ـ ﷺ ـ .

ثالثا : أنها ربيت بعينه وتحت رعايته ، فيعرف منها مفاتنها ومحاسنها قبل زواجها .

رابعا : أنه شاهدها تحبو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب فلو كان فى نفسه إعجاب بها ما زوجها لزيد ولآثرها لنفسه أولا .

خامسا : أنه هو الذى خطبها على مولاه زيد ، فلما امتنعت وأبى أخوها نزل القرآن فى شأنها وشأن أخيها ، يأمرهما بتنفيذ أمر رسول الله فكيف يقال ـ بعد كل هذه الأدلة والشواهد ـ فى حق رسول الله ـ ما يقال فى حق أى عربيد ، مع علمنا بأن زواجه عليه السلام من زينب هذه ، كان بالأمر الالهى ، ليبطل الحقوق التى كانت مقررة للتبنى والادعياء وليرفع من مقام زينب ويدفع عنها خسيستها ، بعدما تزوجت من مولى كان ـ الى عهد قريب ـ عبدا رقيقا ، ثم ليرفع من قدر زيد كذلك ، ولا يأنف الشرفاء أن يردوا موارد زيد وأمثاله ، وليذيب فوارق الحسب والنسب ، التى كانت دستورا للعرب فى الجاهلية ، لأن المؤمنين سواسية (كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

سبحان مقلب القلوب

ماذا يراد بهذا العبارة التى صدرت من رسول الله ـ ﷺ ـ بعدما راجع زيدا مرارا ، وهو يقص عليه تعاظم زينب وإباءها وإصرارها على أن تنظر إلى زوجها من برجها العاجى ؟

أدرك الرسول أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ، ولا يأتمر بإرادة أو يذعن لعقل . فلما رآها رسول الله بادية الحزن ؟ كثيبة الخاطر ، أدرك أنه لا يستطيع أن يلزم زينب بالبقاء مع زيد لأن قلبها عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه رسول الله ، كما يحب لزينب أن تسعد فى زواجها به . فقال هذه العبارة من وحى ما رأى من تبرم زينب بزوجها زيد قال : (سبحان مقلب القلوب) .

وليس يفهم لهذا القول مدلول سوى هذا المدلول .

وبعد ، فلعل السر فى وقوع السادة المفسرين والمؤرخين فى هذا الخطأ هو ما قاله ابن خلدون فى هذه العبارة : (إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لا عتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو ثمينا ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط) ونحن ننقل ما رواه المفسرون والمحدثون فى هذه القضية .

موضوع زينب بنت جحش

فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر جـ ١٠ ص ١٤٢ قال : كان رسول الله - ﷺ - أراد أن يزوجها من زيد بن حارثة مولاه . فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله - ﷺ - فزوجها إياه ، ثم أعلم الله - عز وجل - بنبيه - ﷺ - بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحى أن يأمره بطلاقها وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ! وكان قد تبنى زيدا .

وفى رواية عن على قال : (- أعلم الله نبيه - ﷺ - أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه قال له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) قال الله : قد أخبرتك أنى مزوجكها ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ .

وقد أطنب الترمذى الحكيم ، فى تحسين هذه الرواية ، وقال (إنها من جواهر العلم المكنون) .

ثم يقول ابن حجر : (والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى - ﷺ - هو اخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة الذى يدعى ابنه . ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم . وإنما وقع الخلط فى تأويل متعلق الخشية) واخرج الترمذى بسنده عن عائشة قالت (لو كان رسول الله - ﷺ - كاتما شيئا من الوحى ، لكتم هذه الآية) ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه .... ﴾ الآية .

وان رسول الله لما تزوجها ، قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ الآية .

حول عبارة (سبحان مقلب القلوب)

كتاب الكافى الشافى فى تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ وعلى هامش تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٤ قال : (ذكر الثعلبى من غير سند وأخرج الطبرى معناه من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قوله : وفى الصحيحين عن أنس قصة زينب مختصرة وليس فيه مما فى أوله أ . هـ .

تفسير الخازن جـ ٤ ص ٢٦٢ لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن توفى عام ٧٢٥ هـ يقول :

فإن قلت ما ذكروه فى تفسير هذه الآية وسبب نزولها ، من محبتها فى قلب النبى - ﷺ - كما رآها ،

وإرادته طلاق زيد لها ، فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه - ﷺ - من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا : قلت : هذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفته بحق النبى - ﷺ - وفضله . وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته هو ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه - ﷺ - وهو يزوجها لزيد ، فلا يشك فى تنزيه النبى - ﷺ - عن أن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، كما ذكر عن جماعة المفسرين .

قال : وأصح ما فى هذا الباب .. أن الله عاتبه وقال : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟ وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء : وهو مطابق للتلاوة لأن الله - تعالى - أعلم نبيه أن يبدى ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ فلو كان الذى أضمره الرسول - ﷺ - محبتها وإرادة تطليقها لكان ظهر ذلك ، لأنه لا يجوز أن يخبره أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره . فدل ذلك على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون من زوجاته ، وإنما أخفى ذلك استحياء : أن يخبر زيدا أن التى تحتك وفى نكاحك ، ستكون زوجتى . وهذا قول حسن مرضى - الخ .

تفسير بقية المشهد .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

المقصود بالوطر : الحاجة والارب ، والمراد : أنه لما قضى زيد حاجته من زينب وتزوجها وعاش معها ثم طلقت (زوجناكها) وذلك لحكمة بالغة وهدف حكيم بينه الله فى قوله تعالى : ﴿ لكى لا يكون المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ لما فصل الله - تعالى - فى القضية وقال : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ فبعد إبطال الاسلام للتبنى صارت امرأة المتبنى بعد طلاقها ممن أحلهن الله للمتبنى إذا تزوجها ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى : نافذا فالله - تعالى - إذا حكم لا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وهو سريع الحساب قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب - رضى الله عنها - التى طلقها دعيه زيد بن حارثة - رضى الله عنه - وقوله تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ أى : هذا حكم الله - تعالى - فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه . ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ أى وكان أمره الذى يقدره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه ، ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله

حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

هذا مقام من أسمى المقامات ، وهدف من أعلى الأهداف إنه تبليغ رسالات الله بأمانة وصدق إلى عباده ، وهذا المقام يشمل أنبياء الله الذين قال الله فيهم ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ .

إن الذى يبلغ رسالة الله قد امتلأ قلبه من خشيته والخوف منه وحده

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾[2] .

لقد علموا أن سلطان الله باق لا يزول ، فلم يخشوا ذا سلطان ، ووثقوا أن الرزق بيد الله ، وأن خزائن الله لا تنفد أبدا فاعتمدوا على الله ، وعلموا ان من اعتصم بالله أدخله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ولا يبالى كيف أهلكه ، لقد علموا أن الناصر والحسيب والمعين هو الله فاعتمدوا عليه وسلموا الأمر اليه .

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾[3] .

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[4] .

﴿ كتب الله لا غلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز ﴾[5] .

وعلى رأس هؤلاء جميعا ، أستاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية محمد - ﷺ - الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، كان كل نبى يبعث لقومه خاصة وبعث هو إلى كل أحمر وأسود ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾[6] ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[7] ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوارة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[8] .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٥١ .
(٢) سورة ابراهيم من الآية : ١٢ .
(٣) سورة الحج آية : ٣٨ .
(٤) سورة غافر آية : ٥١ .
(٥) سورة المجادلة آية : ٢١ .
(٦) سورة الأنبياء من الآية : ١٠٧ .
(٧) سورة الفرقان آية : ١
(٨) سورة الأعراف الآيات : ١٥٦ : ١٥٨ .

نشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ونصحت الأمة ، ومحوت الظلمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا خيرا . خير ما جزاه نبيا عن أمته ، ورسولا عن قومه .

يا داعيـا للواحـد الديـان يا هازما للبغى والطغيان
يا رافعا صوت العدالة عاليا ومؤذنا فى النّاس بالقرآن

لقد ورثت أمته مقام البلاغ بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضى الله عنهم - بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله فى ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها . فبنورهم يقتدى المهتدون وعلى منهجهم يسلك الموفقون .

قال - ﷺ - (ما تزال طائفة من أمتى ظاهرين بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ﴾[1] وقال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[3] .

روى الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (لا يحقرن أحدكم نفسه أنْ يرى أمر الله فيه مقالا ثم لا يقوله فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن يخشى)[4] .

قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فإنه - ﷺ - لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه - ﷺ - ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة - رضى الله عنها - فماتوا صغارا ، وولد له - ﷺ - ابراهيم من مارية القبطية فمات أيضا رضيعا وكان له - ﷺ - من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة - رضى الله عنهم أجمعين - فمات فى حياته - ﷺ - ثلاث وتأخرت فاطمة - رضى الله عنها - حتى أصيبت به - ﷺ - ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[5] فهذه الآية نص فى أنه لانبى بعده وإذا كان لانبى بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى .

لقد توج الله رسالته بأربع بشريات ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون

---

(١) مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٢٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه برواية لثوبان من حديث طويل .
(٢) انظر المستدرك للحاكم « كتاب الفتن والملاحم » جـ ٤ ص ٥٢٢ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .
(٣) سورة الصافات الآيتان : ١٧١ - ١٧٣ .
(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد الخدرى .
(٥) سورة الانعام من الآية : ١٢٤ .

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[١] .

وإذا كان الله قد أكمل به الدين وأتم به النعمة فلا نبى بعده ، ومن ثم فلا رسول إذ الرسالة أخص من النبوة ، ومن ختم الأعم فقد ختم الأخص فلا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٢] .

أحاديث فى ختم النبوة

قال الأمام أحمد بسنده عن أبى بن كعب عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة[٣] ورواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الأمام أحمد عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى) قال : فشق ذلك على الناس فقال : ولكن المبشرات . . قالوا يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة)[٤] .

وقال الأمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة ﴾[٥] .

وقال ايضا بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول ـ ﷺ ـ : (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون الا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (فكنت أنا اللبنة)[٦]

وأخرج مسلم بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (فضلت على

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٩٣ ـ ٩٤ .

(٣) انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ١٣٦ ، ١٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى بن كعب عن أبيه وانظر سنن الترمذى « أبواب المناقب » باب ٢٢ حديث ٣٦٩٢ من رواية أبى بن كعب عن أبيه .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٢٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

(٥) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٦) انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون)[١] .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى النبى ـ ﷺ ـ : (إنى عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل فيطينته)[٢] .

٣وقال الزهرى أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ـ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (إن لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله ـ تعالى ـ بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعدى نبى)[٣] فمن رحمة الله ـ تعالى ـ بالعباد إرسال محمد ـ ﷺ ـ إليهم ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه ورسوله ـ ﷺ ـ فى السنة المتواترة عنه أنه لا نبى بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب ، أفاك ، دجال ، ضال ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على يد الأسود العنسى باليمن ومسليمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله ـ تعالى ـ معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله ـ تعالى ـ بخلقه فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الافك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم ﴾[٤] الآية وهذا بخلاف حال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، ما ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا مادامت الأرض والسموات . (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .

الأمر بذكر الله وفوائده

قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » جـ ١ ص ٣٧١ حديث ٥ / ٥٢٣ من رواية لأبى هريرة .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لعرباض بن سارية من حديث طويل .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الفضائل » باب « فى أسمائه ﷺ » جـ ٤ ص ١٨٢٨ حديث رقم ١٢٤ ٢٣٥٤ من رواية لمحمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وانظر الحديث رقم ١٢٥ ٢٣٥٤ .
(٤) سورة الشعراء الآيتان : ١٢٢ ـ ١٢٣ .

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه النبى - ﷺ - مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن ، أرشد عباده إلى تعظيمه - تعالى - وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم ، وملائكته يستغفرون لهم ، كى يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان وكان بعباده المؤمنين رحيما .

وبعد أن ذكر - سبحانه - توجيهاته لنبيه فى أول السورة وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ﴾ يقول تعالى - آمرا - عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . قال الامام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) : (ذكر الله عز وجل)[1] .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : دعاء سمعته من رسول الله (ﷺ) لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك)[2]

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » « باب » فضل الذكر جـ ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ رواية لأبى الدرداء.
وانظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث عن رواية لمعاذ بن جبل .
وانظر اتحاف السادة المتقين جـ ٥ ص ٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء .
وانظر كنز العمال جـ ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٤٧٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابيان الى رسول الله (ﷺ) فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير قال ـ ﷺ ـ : (من طال عمره وحسن عمله) وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت علينا فمرنى بأمر أنشبث به ، قال ـ ﷺ ـ (لا يزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى)[١] .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) قال : (أكثروا ذكر الله ـ تعالى ـ حتى يقولوا مجنون)[٢] وقال الطبرانى بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : (اذكروا الله ذكرا ، حتى يقول المنافقون إنكم تراءون)[٣] وقال الأمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : (ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة)[٤] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ إن الله ـ تعالى ـ لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فإن الله تعالى لم يجعل لها حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال : ﴿ اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال عز وجل : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته . ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى عند الصباح والمساء كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهييج إلى الذكر أى أنه سبحانه وتعالى يذكركم فاذكروه أنتم كقوله عز وجل : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٦] .

وقال النبى (ﷺ) : (يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه)[٧] والصلاة من الله ـ تعالى ـ ثناؤه على العبد عند الملائكة هكذا قال البخارى بسنده عن الربيع بن أنس . وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

---

(١) أنظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٩٠ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن بشر .

(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٧١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٣) انظر حلية الأولياء للاصبهانى جـ ٣ ص ٨٠ ـ ٨١ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس بلفظ « اذكروا الله ذكرا يقول المنافقون إنكم تراءون » وقال : غريب من حديث أبى الجوزاء لم يوصله الا سعيد عن الحسن .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٢٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو

(٥) سورة الروم الآيتان : ١٧ ـ ١٨ .

(٦) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٧) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله جـ ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة من حديث طويل » .

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أى بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الفكر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة . وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وماذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : مر رسول الله (ﷺ) فى نفر من أصحابه - رضى الله عنهم - وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته . فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فخفضهم رسول الله (ﷺ) وقال : (لا ، والله لا يلقى حبيبه فى النار)[2] .

وفى صحيح الامام البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله (ﷺ) رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله (ﷺ) : (أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟) قالوا : لا ، قال رسول الله (ﷺ) : (فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[3] وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم أى : من الله - تعالى - يوم يلقونه سلام أى : يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[4] وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ وأعد لهم أجرا كريما ﴾[6] يعنى الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال الامام ابن القيم : فى الذكر نحو من مائة فائدة :

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضى الرحمن - عز وجل - .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٧ - ٨ وجزء من الآية : ٩ .

(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ١٠٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية انس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب « رحمة الولد » فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٤) سورة يس الآية : ٥٨ .

(٥) سورة يونس من الآية : ١٠ .

(٦) سورة الأحزاب من الآية : ٤٤ .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغم من القلب .
الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .
الخامسة : أنه يقوى القلب والبدن .
السادسة : أنه ينور الوجه والقلب .
السابعة : أنه يجلب الرزق .
الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .
التاسعة : أنه يورثه المحبة التى هى روح الاسلام ، وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شيء سببا ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله - عز وجل - ، فليلهج بذكره ، فإنه الدرس والمذاكرة ، كما أنه باب العلم ، فالذكر باب المحبة ، وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .
العاشرة : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله فى باب الاحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الاحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة : أنه يورثه الانابة ، وهى الرجوع إلى الله - عز وجل - فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره ، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله ، فيبقى الله - عز وجل - مفزعه وملجأ ، وملاذه ومعاذه ، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .
الثانية عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .
الثالثة عشرة : أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما اكثر من الذكر ازداد من المعرفة .
الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه - عز وجل - وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله - تعالى - بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .
الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر الله - تعالى - له ، كما قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفا .
وقال النبى (ﷺ) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : (من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه)[1] .
السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الاسلام ابن - تيمية - قدس الله تعالى روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ .
السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله جـ ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

انتصاف النهار ، ثم التفت إلى وقال : هذه غدوتى ، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتى ، و كلاما قريبا من هذا . وقال لى مرة : لا أترك الذكر إلا بينه إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاما هذا معناه .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صداه كما تقدم فى الحديث وكل شىء له صدأ ، وصدأ الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

العشرون : أنه يزيل الوحشة بين العبد وربه - تبارك وتعالى - فإن الغافل بينه وبين الله - عز وجل - وحشة لا تزول إلا بالذكر .

الحادية والعشرون : أن ما يذكر به العبد ربه - عز وجل - من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الامام أحمد رضى الله عنه فى (المسند) عن النبى (ﷺ) أنه قال : (إن ما تذكرون من جلال الله - عز وجل - من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به ؟)(١) .

الثانية والعشرون : أن العبد إذا تعرف إلى الله - تعالى - بذكره فى الرخاء ، عرفه فى الشدة ، وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع الذاكر لله - تعالى - إذا أصابته شدة أو سأل الله - تعالى - حاجة ، قالت الملائكة : يا رب صوت معروف ، من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله - عز وجل - إذا دعاه أو سأله ، قالت الملائكة : يا رب ، صوت منكر من عبد منكر .

الثالثة والعشرون : أنه ينجى من عذاب الله - تعالى - ، كما قال معاذ - رضى الله عنه - ويروى مرفوعا : (ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى)(٢) .

الرابعة والعشرون : أنه سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى (ﷺ) .

الخامسة والعشرون : أنه سبب إشغال اللسان عن الغيبة والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والباطل ، فإن العبد لابد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله - تعالى - ، وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، فلا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله - تعالى - والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله - تعالى - ، ترطب بكل باطل ولغو وفاحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السادسة والعشرون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة - مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبها إليه ، وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة .

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أين ما

---

(١) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) انظر حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ - رضى الله تعالى عنه -

كان .. والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .

الثامنة والعشرون : أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لاظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر فى ظل عرشه ، والناس فى حر الشمس قد صهرتهم فى الموقف ، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففى الحديث عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : قال الله : (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

الحادى والثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من أعضاء الانسان فى اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذى فى جامعة من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : (لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)[١] .

وفى الترمذى من حديث أبى الزبير ، عن جابر عن النبى (ﷺ) قال : (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة)[٢] .

الثالثة والثلاثون : أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان ، يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، [٣] ومن قال سبحانه الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)[٤] .

---

(١) انظر سنن الترمذى« أبواب الدعوات » باب ٦ جـ ٥ ص ١٧٣ حديث رقم ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن مسعود ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

(٢) سنن الترمذى أبواب الدعوات » باب ٦١ جـ ٥ ص ١٨٤ حديث رقم ٣٥٣١ ، ٣٥٣٢ فقد ورد الحديثان من رواية أبى الزبير عن جابر . وقال : هذا حديث ٣٥٣١ حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير عن جابر .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الأدب) « باب » « فضل » لا إله إلا الله » جـ ٢ ص ١٢٤٨ حديث رقم ٣٧٩٨ .

(٤) المرجع السابق .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)[١] .

وفى الترمذى من حديث أنس بن مالك ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال حين يصبح أو يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعا أعتقه الله من النار)[٢] .

وفيه عن ثوبان ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال حين يمسى وإذا أصبح : رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد (ﷺ) رسولا ، كان حقا على الله أن يرضيه)[٣] .

وفى الترمذى : (من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة)[٤] .

الرابعة والثلاثون : أن ذكر الرب - تبارك وتعالى - يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[٥] .

وإذا نسى العبد نفسه ، أعرض عن مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها ، فهلكت وفسدت ولابد ، كمن له زرع أو بستان أو ما شية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولابد هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ،

وعطل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الذى صار أمره كله فرطا ، فانفرط عليه امره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك . ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به ، والا يزال اللسان رطبا به ، وأن ينزله منزلة حياته التى لا غنى له عنها ، ومنزلة غذائه الذى إذا فقده فسد جسمه وهلك ، وبمنزلة الماء ، عند شدة العطش ، وبمنزلة اللباس فى الحر والبرد ، وبمزلة السكن فى شدة الشتاء

---

(١) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٤ « كتاب الذكر والدعاء » فضل سبحان الله حديث رقم ٨٥ - ٢٧٣١ وانظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ١٦١ من رواية أبى ذر .

(٢) انظر حلية الأولياء جـ ٥ ص ١٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك وانظر الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ « كتاب النوافل » « باب » الترغيب فى آيات وأذ كاد يقولها إذا أصبح وإذا أمسى حديث رقم ١١ من رواية لأنس .

(٣) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما جاء فى الدعاء إذا اصبح وإذا أمسى جـ ٥ ص ١٣٣ حديث ٣٤٤٩ من رواية لثوبان « لم يرد منها » وإذا أصبح وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا دخل السوق » جـ ٥ ص ١٥٥ حديث رقم ٣٤٨٨ من رواية لسالم ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده .

(٥) سورة الحشر آية : ١٩ .

والسموم فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ، فأين هلاك الروح والقلب وفسادها من هلاك البدن وفساده ، هذا هلاك لابد منه ، وقد يعقبه صلاح الأبد ، وأما هلاك القلب والروح ، فهلاك لا يرجى معه صلاح وفلاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولو لم يكن فى فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها ، فمن نسى الله ـ تعالى ـ أنساه نفسه فى الدنيا ، ونسيه فى العذاب يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[1] .

أى : تنسى فى العذاب كما نسيت آياتنا ، فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها . وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ، وهو كتابه ، وهو المراد ويتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ، وأسمائه وصفاته وأوامره ، وآلائه ، ونعمه ، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه ـ تعالى ـ ، فإن الذكر فى الآية إما مصدرا مضافا إلى معموله الذى هو المذكور وإما إسما مضافا إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى من أعرض عن كتابى ولم يتله ، ولم يتدبره ولم يعمل به ، ولم يفهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذبا فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء ، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح : أنها تتناول معيشته فى الدنيا وعذابه فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة ينسى فى العذاب . وهذا عكس أهل السعادة والفلاح ، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة وفى البرزخ ، ولهم فى الآخرة أفضل الثواب .

قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾[2] فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[3] هذا فى البرزخ والآخرة . وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ﴾ فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾[5] فهذا فى الآخرة .

وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[6] .

هذه أربعة مواضع ذكر الله ـ تعالى ـ فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين : جزاء فى الدنيا ، وجزاء فى الآخرة . فالاحسان له جزاء معجل ولابد ، والاساءة لها جزاء معجل ولابد ، ولو لم يكن إلا

(١) سورة طه الآيات : ١٢٤ ـ ١٢٦ .
(٢) سورة النحل من الآية : ٩٧ .
(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .
(٤) سورة النحل الآية : ٤١ .
(٥) سورة هود من الآية : ٣ .
(٦) سورة الزمر آية : ١٠

ما يجازى به المحسن ، من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره ، ولذته بمعاملة ربه ـ عز وجل ـ ، وطاعته وذكره ، ويعم روحه بمحبته ، وذكره وفرحه بربه ـ سبحانه وتعالى ـ أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

وما يجازى به المسيء : من ضيق الصدر ، وقسوة القلب ، وتشتته وظلمته ، وحزازاته ، وغمه ، وهمه ، وحزنه ، وخوفه ، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسن وحياة يرتاب فيه ، بل الهموم والغموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دينوية ، وجهنم حاضرة والاقبال على الله تعالى ، والانابة إليه ، والرضابه وعنه ، وامتلأ القلب من محبته ، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة وسمعت شيخ الاملام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بدلت لهم مثل هذه القلعة ذهبا ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ـ تعالى ـ ، والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)[1] وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط ـ مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا ، وأشرحهم صدرا ، وأقراهم قلبا ، وأسرهم نفسا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا إذا إشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب إنشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها ، وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وماذاقوا أطيب ما فيها ؟ .

قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ـ تعالى ـ ومعرفته وذكره .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أ قول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة الله تعالى ، ومعرفته ، ودوام ذكره ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه ، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ،

---

(١) سورة الحديد من الآية : ١٣ .

هو جنة الدنيا والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ، وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .

وإنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله - عز وجل - فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وإنما يصدق بهذه الأمور من كان فى قلبه حياة ، وأما ميت القلب ، فيوحشك ، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك ، فإذا ابتليت به ، فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ، ولا تشتغل به عما هو أولى بك .

وأعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله - عز وجل - وإنقطاعك عنه ، وضياع وقتك عليه ، وشتات قلبك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك . فإذا بليت بهذا - ولابد لك منه - فعامل الله - تعالى - فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك ، وتقرب إلى الله - تعالى - بمرضاته فيه ، وإجعل اجتماعك به متجرا لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر فى طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن فى سيره مطمع ، فلا تقف معه ، بل اركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه ، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ، فتؤخذ أو يطلع عليك الفجر ، وأنت فى المنزلة فتسير الرفاق فتصبح وحدك وأنى لك بلحاقهم .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسير العبد وهو قاعد على فراشه ، وفى سوقه ، وفى حال صحته وسقمه ، وفى حال نعيمه ولذته ، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه ، وسفره وإقامته ، فليس فى الأعمال شىء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتى إنه يسيرّ العبد وهو نائم على فراشه ، فسيبق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقة الركب ، وذلك فضل الله يؤيته من يشاء .

وحكى عن رجل من العُباد : أنه نزل برجل من العِباد ضيفا ، فقام العابد ليله يصلى ، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب ، وهذا ونحوه له محمل صحيح ، ومحمل فاسد ، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه - عز وجل - وألصق حبه قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا وما فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفى قلبه ما الله - تعالى - به عليم .

وآخر قائم يصلى ويتلو ، وفى قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ، ما الله به عليم ، أو قلبه فى واد وجسمه فى واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبد ان ، والمعول على الساكن ، لا على الأطلال ،

والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبيت .

السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر فى الدنيا ، ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله - تعالى - : قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾[1] فالأول هو المؤمن استنار بالايمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن الله - تعالى - المعرض عن ذكره ومحبته ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، فى النور ، والشقاء كل الشقاء فى فواته .

ولهذا كان النبى (ﷺ) يبالغ فى سؤال ربه - تبارك وتعالى - حين يسأله أن يجعله فى لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه ، وأمامه ، حتى يقول : (واجعلنى نورا) فسأل ربه - تبارك وتعالى - أن يجعل النور فى ذاته الظاهرة الباطنة ، وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نورا .

فدين الله - عز وجل - نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ ، وهو - تبارك وتعالى - نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه . وفى دعاء النبى (ﷺ) يوم الطائف : (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

وقال ابن سعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه .

وقد قال تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾[2] فإذا جاء - تبارك وتعالى - يوم القيامة للفصل بين عباده ، أشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ، فإن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، ويذهب نورهما ، حجابه تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى الاشعرى : قام فينا رسول الله (ﷺ) بخمس كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[3] ثم قرأ : ﴿ أن بورك من فى النار ومن حولها ﴾[4] فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ، وكشف من الحجاب شيئا يسيرا ، ساخ الجبل فى الأرض ، وتدكدك ، ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .
(٢) سورة الزمر من الآية : ٦٩ .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام : إن الله لا ينام - الخ جـ ١ ص ١٦١ - ١٦٢ حديث رقم ٢٩٣ - ١٧٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى موسى .
(٤) سورة النمل من الآية : ٨ .

عباس فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾[١] قال : ذلك الله ـ عز وجل ـ ، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء .

وهذا من بديع فهمه ـ رضى الله تعالى عنه ـ ، ودقيق فطنته ، وكيف لا وقد دعا له رسول الله (ﷺ) أن يعلمه التأويل ، فالرب ـ تبارك وتعالى ـ يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له ، وإن رأته فالادراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس ـ ولله المثل الأعلى ـ نراها ولا ندركها كما هى عليه ، ولا قريبا من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية واورد عليه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فقال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : أفتدركها ؟ قال : لا ، قال : فالله ـ تعالى ـ أعظم وأجل .

وقد ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنوره فى قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون ، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ **﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾**[١] [النور : ٣٥] .

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم . وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبه من معرفته ومحبته والايمان به ، وذكره ، وهو نوره الذى أنزله اليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله فى قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه ، يضيىء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا ، لا باطنا ، أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله ـ عز وجل ـ لهذا النور ، ومحله ، وحامله ، ومادته مثلا بالمشكاة ، وهى الكوة فى الحائط ، فهى مثل الصدر ، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه ، وهى مثل القلب ، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن ، وهى : الصفاء ، والرقة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله ـ تعالى ـ ، ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، فلا تبطل صفة من صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعدها وتعاضدها ، **﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾**[١] وقال تعالى **﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من**

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٣ .
(٢) سورة النور آية : ٣٥ .
(٣) سورة الفتح من الآية : ٢٩ .

حولك ﴾[1] [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[2] وفى أثر : (القلوب آنية الله - تعالى - فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها) .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان فى طرفى نقيض . أحدهما : قلب حجرى قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا عالم بالحق ، ولا راحم بالخلق ، وبازائه قلب ضعيف مائى ، لا قوة فيه ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث ، وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، هى من شجرة الوحى التى هى من أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء ، فهذه مادة مصباح الايمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت به إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نورا على نور . وهكذا المؤمن قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نورا بالوحى على نوره الذى فطره الله - تعالى - عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة ، فصار نورا على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته ، فيكون نورا على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآيات العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة ، فذكر - سبحانه وتعالى - نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذى استنارت به البصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعش فيه آدمى ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولابد ، لا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه . والله - سبحانه وتعالى - يقرن بين الحياة والنور ، كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾[3] وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٣ .
(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .

الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا فهدى به من نشاء من عبادنا ﴾(١) .

وقد قيل : إن الضمير فى ﴿ **جعلناه** ﴾ عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب وقيل : إلى الايمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح ، أى : جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نورا ، فسماه روحا لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الاشراق والاضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الاضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والاضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل .

فلهذا ايضرب ـ سبحانه وتعالى ـ المثلين : المائى والنارى معا ، لما يحصل بالماء من الحياة ، وبالنار من الاشراق والنور ، كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾(٢) وقال : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل : بنارهم لأن النار فيها الاحراق والاشراق ، فذهب بما فيه الاضاءة والاشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والاحراق . وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقى فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرها وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ، فأصلاهم الله ـ تعالى ـ إياها يوم القيامة نارا موقدة تطلع على الأفئدة ، فهذا مثل من لم يصحبه نور الايمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾(٤) وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الاسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عيانا ، ولهذا قال تعالى فى حقهم : ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾(٥) إليه ، لأنهم فارقوا الاسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه . وقال تعالى فى حق الكفار : ﴿ **فهم لا يعقلون** ﴾ لأنهم لم يعقلوا الاسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ، صم بكم عمى ، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافيا ، وإلى الايمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا ، وإلى طريق الرشاد هاديا ، لقد أسمع منادى الايمان لو صادف آذانا واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت القلوب من غيها خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧ .
(٣) سورة الأنعام من الآية : ٣٩ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٧١ .
(٥) سورة البقرة آية ١٨

وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغى وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام . ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، و (ما لجرح بميت إيلام) .

والمثل الثانى المائى قوله تعالى : ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** ﴾[1] .

الصيب : المطر الذى يصوب من السماء ، أى : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ، كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان ، فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله (ﷺ) ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على اللأوى والأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس ذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقا يكاد يخطف البصر ، ورعدا عظيما وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره لأن بصره أضعف من أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيرا لا يدرى أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو فى نفسه ، بل لا يدرك إلا رعدا ، وبرقا ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفزع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيب وعلم ما يحصل بهمن الخيرات والحياة والنفع وعلم أنه لابد من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه نصيبه من الصيب . فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل (ﷺ) من عند رب العالمين - تبارك وتعالى - على قلب رسول الله (ﷺ) ليحيى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء حكمة بالغة وأسباب منتظمة نظمها العزيز الحكيم . فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده ، وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، ماستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ، وشك فيما يتيقنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش فى نحر الظهيرة ، وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩ .

وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد ، وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت فيها وقعدت ، واتسع فيها مجالها ، وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دويانها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمكثرين لسوادهم عدادا وما أقلهم عند الله وأوليائه قدرا .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم فى كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : ﴿ ومنهم .. ومنهم .. ومنهم .. ﴾ حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفى أوصاف الكفار آيتين ، وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجملة مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذى قد نابذ العدو ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى منابذته ومفارقته . ونظير هذين المثلين المثلان المذكوران فى سورة الرعد فى قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾[1] فهذا المثل هو المثل المائى ، شبه سبحانه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذى أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأودية الحاملة للسيل . فقلب كبير يسع علما عظيما ، كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية بقدرها . ولما كانت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحصله السيل فيطفو على وجه الماء زبدا عاليا ، يمر عليه متراكبا ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأرض ، فيقذف الوادى ذلك الغثاء الى جنبتيه حتى لا يبقى منه شىء ، ويبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله ـ تعالى ـ به الأرض ، فيحيى به البلاد والعبادة والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاء يجفى ، ويطرح على شفير الوادى .

فكذلك العلم والايمان الذى أنزله من السماء فى القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا فى أعلاها ، استقر العلم والايمان والهدى فى جذر القلب وهو أصله ومستقره كما قال النبى (ﷺ) (نزل الايمان فى جذر قلوب الرجال)[2] رواه البخارى من حديث حذيفة .. فلا يزول كله ، ويبقى العلم النافع والايمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويزرعون . وفى الصحيح من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى (ﷺ) قال : (مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة

---

(١) سورة الرعد من الآية : ١٧ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الفتن » « باب إذا بقى فى حثالة من الناس جـ ٩ ص ٦٦ فقد ورد الحديث من رواية حذيفة بلفظ » أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن .. الخ » .

وانظر حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٧١ ، جـ ٨ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن .... الخ .

طيبة ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، وانتفع بما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به)[١] فجعل النبى (ﷺ) الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوا إلى الله - عز وجل - ورسوله (ﷺ) ، فهؤلاء أتباع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - حقا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زكت ، فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فزكت فى نفسها ، وزكا الناس بها . وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء (ﷺ) الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾[٢] فالأيدى القوة فى أمر الله والأبصار البصائر فى دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه فى الدين والبصر بالتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهما خاصا ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وقد سئل : هل خصكم رسول الله (ﷺ) بشىء دون الناس ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض ، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ، فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ، وبذورها فى أرض قابلة للزرع والنبات فاستخرجوا غوامضها وأسرارها ، ووردوها كل بحسبه . ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾[٣] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبى (ﷺ) : (نضر الله إمرأ سمع مقالتى فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[٤] وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبى (ﷺ) لم يبلغ نحو العشرين حديثا الذى يقول فيه : سمعت ، ورأيت ، وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك فى فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها .

وقال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار ، وهى بحسب ما بلغ جامعها ، والا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس ، وقد

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب العلم » باب فضل من علم وتعلم جـ ١ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى موسى الأشعرى .

(٢) سورة ص آية : ٤٥ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٦٠ .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه . وانظر اتحاف السادة المتقين للزبيدى جـ ٨ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة . وانظر مجمع الزوائد كتاب « العلم » باب فى سماع الحديث وتبليغه جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة .

سمع كما سمعوا ، وحفظ كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم : **﴿ ذلك فضل الله يؤيته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾**[1] وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره واستنباطه ، من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ، وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الاطلاق : يؤدى الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ والأداء ، كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه . وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها .

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية فالطبقة الأولى أهل رواية ورعاية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراسة بل حظهم من الرواية أوفر .

والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ولا رعاية **﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾**[1] فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرحه ، فإن ترقت همته فوق ذلك كان فى داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقت همته فوق ذلك ، كان همه فى الرياسة والانتصار للنفس الكلبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية ، كان همه نصرة النفس السبعية ، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء ؟ فإن النفوس ثلاثة : كلبية وسبعية وملكية .

فالكلبية : تقنع بالعظم ، والكسرة والجيفة والعذرة .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، والاستعلاء عليها بالحق والباطل .

وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمتها العلم والايمان ، ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ، وإيثار محبته ومرضاته ، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذه لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها ، لا لتنقطع به عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا ، وهو المثل النارى ، فقال : **﴿ ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾**[2] ، وهو الحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح ، ويبقى خالصها ، فهو الذى ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ، ذكر حكم من استجاب له ورفع به رأسا ، وحكم من لم يستجب له ولم يرفع بهداه رأسا : فقال : **﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾**[3]

---

(١) سورة الفرقان من الآية : ٤٤ .
(٢) الرعد آية رقم ١٧
(٣) الرعد آية رقم ١٨

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور ، والموت حيث الظلمة فحياة الموجودين الروحى والحس بالنور ، وهو مادة الحياة ، كما أنه مادة الاضاءة فلا حياة بدونه كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ، فيه انفساحه وانشراحه وسعته ، كما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح)

قالوا : وما علامة ذلك ؟

قال : (الانابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله)[١]

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لايصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدره عن النور ، ولا من العمل الا الصالح ولا من الأرواح الا الطيبة ، وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور الذى أنزله على رسوله ﷺ ، والملائكة : الذين خلقوا من نور كما فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور وخلقت الشياطين من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[٢] .

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هى التى تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدى الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه فى عليين ،

فلما كانت هذه الروح ، روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة ، صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة ، وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ، فإنها لاتفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها صرها ، لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها ، وماهى منه ، وهذا مبين فى حديث البراء بن عازب الطويل الذى رواه الامام أحمد وأبو عوانة الاسفراييني فى صحيحه والحاكم وغيرهم وهو حديث صحيح[٣] .

والمقصود : أن الله عز وجل لايصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح ، إلا ماكان منها نورا ، وأعظم الخلق نورا ، أقربهم إليه وأكرمهم عليه .

وفى المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ (إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله تعالى)[٤]

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الايمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته والله تعالى الموفق .

وهذا النور الذى ألقاه عليهم سبحانه وتعالى ، هو الذى أحياهم وهداهم ، فأصابت العظمة منه

(١) اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٤٢٤

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٩٤ برقم ٦٠/ ٢٩٩٦ والامام أحمد ج ٦ ص ١٥٣

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ٤ ص ٢٨٧

(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الايمان ج ٤ ص ١٣٥ برقم ٢٧٨٠ وقال هذا حديث حسن .

حظها ، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم وأتمه بالروح ، الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام ، والنور الذى أوحاه اليهم ، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق ، الذى حصل لها يوم إلقاء النور فانضاف نور الوحى والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب واستنارت به الوجوه ، وحييت به الأرواح واذعنت به الجوارح للطاعات طوعا واختيارا ، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر ، هو أعظم منه وأجل ، وهو نور الصفات العليا ، الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الايمان ، مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات إلى العين ، وذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الايمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزا ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسول الله ﷺ يدبر أمر المالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويقضى وينفذ ، ويعز ويزل ، ويقلب الليل والنهار ، ويذل الأيام بين الناس ، ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتى بأخرى .

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به ، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب ارادته ومشيئته ، فما شاء كان كما شاء ، فى الوقت الذى يشاء ، على الوجه الذى يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولاتقدم ولا تأخر ، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات والأرض وأقطارها ، وفى الأرض وما عليها وماتحتها ، وفى البحار والجو ، وفى سائر أجزاء العالم وذراته ، يقلبها ويصرفها ويحدث فيها مايشاء ، وقد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة وحكمة ، ووسع سمعه الأصوات ، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها ، فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ذوى الحاجات ، وأحاط بصره بجميع المرئيات ، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، فالغيب عنده شهادة ، والسر عنده علانية يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ، ولم تتحرك به شفتاه ، وأخفى منه مالم يخطر بقلبه بعد ، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا

فى وقت كذا وكذا ، له الخلق والأمر ، وله الملك وله الحمد ، وله الدنيا والآخرة ، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الملك كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شىء ، ووسعت رحمته كل شىء ، وسعت نعمته إلى كل حى ﴿ **يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن** ﴾[1] : يغفر ذنبا ، ويفرج هما ، ويكشف كربا ، ويجبر كسيرا ، ويغنى فقيرا ، ويعلم جاهلا ، ويهدى ضالا ، ويرشد حيران ، ويغيث لهفان ، ويفك عانيا ، ويشبع جائعا ، ويكسو عاريا ، ويشفى مريضا ، ويعافى مبتلى ، ويقبل تائبا ، ويجزى محسنا ، وينصر مظلوما ، ويقصم جبارا ، ويقيل عثرة ، ويستر عورة ، ويؤمن روعة ويرفع أقواما ، ويضع آخرين ،

---

(١) الرحمن آية ٢٩

لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى اليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى ، لاتغيضها نفقة ، سخاء الليل والنهار . أرأيتم ماأنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض مافى يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول :

أنا الملك ، أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها ، لايتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها ، لو أن أهل سمواته ، وأهل أرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، مازاد ذلك فى ملكه شيئا ، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وانسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، مانقص ذلك من ملكه شيئا ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه ، وانسهم وجنهم ، وحيهم وميتهم ، ورطبهم ويابسهم قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه فأعطى كلا منهم ماسأله ، مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام ، والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مدادا . فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ، لفنيت الأقلام ونفد المداد ، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى . وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لابداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية فهو أحق بالفناء والنفاد ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟ هو الأول الذى ليس قبله شىء ، والآخر الذى ليس بعده شىء ، والظاهر الذى ليس فوقه شىء ، والباطن الذى ليس دونه شىء ، تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، وأنصر من أبتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأعفى من قدر ، وأكرم من قصد ، وأعدل من انتقم ، حكمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه عن حكمته ، وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعباد عليه حق واجب — كلا ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعد له - أو نعموا — فبفضله ، وهو الكريم الواسع

هو الملك الذى لاشريك له ، والفرد فلا ند له ، والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلى فلا شبيه له ، ولا سمى له ، كل شىء هالك إلا وجهه ، وكل ملك زائل إلا ملكه ، وكل ظل قالص إلا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يطاع فيشكر ، ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصى وسجل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له منضية ، والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات ، اضمحل عندها كل نور ، ووراء هذا مالا يخطر

(١) سورة يس آية رقم ٨٢

بالبال ، ولا تناله عبارة .

والمقصود : أن الذكر ينور القلب والوجه والأعضاء ، وهو نور العبد فى دنياه ، وفى البرزخ ، وفى يوم القيامة .

وعلى حسب نور الايمان فى قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله ، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله ، إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل ، وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط ، وهكذا يكون نور وجهه فى يوم القيامة والله تعالى المستعان وعليه التكلان .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأمور ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر ، وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل مايريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شىء ، وان فاته ربه عز وجل فقد فاته كل شىء .

الثامنة والثلاثون : أن فى القلب خلة وفاقه لايسدها شىء ألبته ، إلا ذكر الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعار القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان تبع له ، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة ، ويغنى الفاقة ، فيكون صاحبه غنيا بلا مال ، عزيزا بلا عشيرة ، مهيبا بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته ، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمع المتفرق ، ويفرق المتجمع ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ماتفرق على العبد من قلبه وارادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب فى تفرقتها وتشتتها عليه ، وانفراطها له ، والحياة كل الحياة والنعيم فى أجتماع قلبه وهمه ، وعزمه وارادته ، ويفرق مااجتمع عليه من الهموم ، والغموم والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه ، ويفرق أيضا مااجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره ، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ، ويفرق أيضا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن ابليس لايزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلما كان أقوى طلبا لله سبحانه وتعالى ، وأشد تعلقا به وارادة له ، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة ، بحسب ماعند العبد من مواد الخير والارادة ، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر ، وأما تقريبه البعيد فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل ، فلايزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها ، فحينئذ تصغر فى عينه الدنيا ، وتعظم فى قلبه الآخرة ، ويبعد القريب اليه ، وفى الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، متى قربت من قلبه بعدت عنه الدنيا ، كلما قرب من هذه مرحلة بعد من هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر والله المستعان . .

الفائدة الأربعون : أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم مافاته فى نومته ، شد المئزر ، وأحيا بقية عمره ، واستدرك مافاته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .

وحسبنا هذا القدر من فوائد الذكر سائلين الله تعالى أن يعلمنا ماينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا .

قوله تعالى :

﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

صلت عليك ملائك الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان

لما طلعت على الوجود مزودا ... يحمى الاله وراية القرآن

لقد مدحك الله تعالى بما منحك فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1]

أرسلك للناس عامة ، ونصرك بالرعب بين يدى سيرة شهر ، وجعل لك ولأمتك الأرض مسجدا وطهورا ، وأحل لك الغنائم ولم تحل لأحد قبلك ، وأتاك جوامع الكلم ، وأعطاك الشفاعة العظمى .

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا ... فلا أحد فى الرسل يشفع إلا هو

فيسجد تحت العرش لله سجدة ... ويسـأله فصـل القضـاء فيعطاه

فسلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين ، وسلام عليك فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، وسلام عليك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

قال البخارى فى البيوع وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، وقال وهب بن منبه : إن الله تعالى أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعياء : أن قم فى قومك بنى اسرائيل فإنى منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه أبعثه مبشرا ونذيرا ، لايقول الخنا . أفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدده بكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه والاسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتتة ، واستنقذ به فئاما من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ، ألهمهم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لى قياما وقعودا ،

---

(١) سورة القلم آية ٤

ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفا ، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل من أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعين إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .(١) .

لقد كمل الله نبيه ﷺ بالخلق الكريم فهو الداعية إلى الله على بصيره ، الشاهد لله بالتوحيد ، والشاهد على الأمم يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾(٢) وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(٣)

وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾(٤)

وقال : ﴿ وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾(٥)

وهو المبشر للمؤمنين بالجنة : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾(٦) وقال : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ﴾(٧) وقال سبحانه : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾(٨) .

وهو النذير من عذاب النار قال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾(٩) وقال : ﴿ وتنذر قوما لدا ﴾(١٠) وقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون ﴾(١١) وقال : ﴿ لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(١٢)

وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩٦ ، ص ٤٩٧ ج ١ دار التراث
(٢) سورة البقرة آية ١٤٣
(٣) سورة النساء آية ٤١
(٤) سورة النحل آية ٨٩
(٥) سورة الحج آية ٧٨
(٦) سورة البقرة آية ٢٥
(٧) سورة الكهف آية ٢
(٨) سورة التوبة الآيتان ٢١ ، ٢٢
(٩) سورة الكهف آية ٤
(١٠) سورة مريم آية ٩٧
(١١) سورة مريم آية ٣٩
(١٢) سورة غافر الآيات ١٥ ـ ١٨

دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴾[1] وقال : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾[2]

وقال : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾[3]

وهو الداعى إلى الله على بصيرة ﴿ قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيره أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾[4]

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[5] وهو السراج المنير والقمر الساطع بنوره ، الذى يبدد غياهب الظلمات ، ويحيى بدعوته الأرض والسموات ، وهو الذى بعثه الله تعالى ليملأ الأرض عدلا وقسطا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، وفرق بين السراج المنير ، والسراج الوهاج ، فالسراج المنير فيه نور وليس فيه حرارة تؤذى ، والسراج الوهاج فيه نور وحرارة كالشمس فإذا ماعقدت مقارنة بين السراجين ، السراج المنير ، وهو رسول الله ﷺ ، والسراج الوهاج وهو الشمس ، رأيت أن السراج الوهاج يطلع نهارا ويغيب ليلا ، أما نور دعوة رسول الله ﷺ فإنه لايغيب ليلا ونهارا ، الشمس قد تؤذيك بحرها صيفا ، ودعوة رسول الله ﷺ بما فيها من نور ، تدفئك شتاء ، وتنعشك صيفا ، والسراج الوهاج إذا اقتربت منه أو ذيت بحره ، أما سراج رسول الله ﷺ فكلما ازددت منه قربا ازددت من الله حبا ، لقد أمره الله ونهاه ، أمره بقوله : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ ونهاه بقوله : ﴿ ولاتطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ وأى فضل بعد رضوان الله عليهم ، وأى نعمة بعد الجنة ، كل نعيم دون الجنة حقير .

وكل بلاء دون النار عافية ؛ لقد نهاه الله تعالى فى أول هذه السورة عن طاعة الكافرين والمنافقين ، ويفيد ذلك النهى تثبيته على ماهو عليه ، وهنا أعاد الذهن مرة أخرى توكيدا وتقوية ، وأمره فى أول السورة بالتوكل على الله ، ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ وهنا أعاد الأمر بالتوكل لما فيه من زيادة التسليم والتفويض لله ، فالتوكل هو زاد الدعاة الذى لاينضب ، ورصيدهم الذى لاينفد ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد ؟

﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

كلمة عن التوكل

وهو يقال على وجهين : يقال : توكلت لفلان بمعنى توليت له . يقال : وكلته توكيلا ، فتوكل

(١) سورة ابراهيم آية ٤٤
(٢) سورة النبأ آية ٤٠
(٣) سورة سبأ آية ٤٦
(٤) سورة يوسف آية ١٠٨
(٥) سورة النحل آية ١٢٥

لى ، وتوكلت عليه بمعنى اعتمد عليه .

وقد أمر الله تعالى بالتوكل فى خمسة عشر موضعا من القرآن :

الأول : إن طلبتم النصر والفرج فتوكلوا علىَّ : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ إلى قوله ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(١)

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) .

الثانى : إذا أعرضت عن أعدائى فليكن رفيقك التوكل :

﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله ﴾(٣)

الثالث : إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لاإله إلا هو عليه توكلت ﴾(٤) .

الرابع : إذا تلى القرآن عليك ، أو تلوته ، فاستند على التوكل : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(٥) .

الخامس : إذا طلبت الصلح والاصلاح بين قوم لاتتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾(٦) .

السادس : إذا وصلت قوافل القضاء استقبلها بالتوكل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٧)

السابع : إذا نصبت الأعداء حبالات المكر ادخل أنت فى أرض التوكل ﴿ قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾(٨) وقال سبحانه : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وماكان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(٩)

وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمون ﴾(١٠).

الثامن : وإذا عرفت أن مرجع الكل إلينا ، وتقدير الكل منا ، وطن نفسك على فرش التوكل :

﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾(١١)

(١) سورة آل عمران آية ١٦٠
(٢) سورة المائدة آية ٢٣
(٣) سورة النساء آية ٨١
(٤) سورة التوبة آية ١٢٩
(٥) سورة الأنفال آية ٢
(٦) سورة الأنفال آية ٦١
(٧) سورة التوبة آية ٥١
(٨) سورة هود آيات ٥٣ - ٥٦
(٩) سورة ابراهيم الأيتان ١١ ، ١٢
(١٠) سورة يونس الآيات ٧١ ، ٧٢
(١١) سورة هود آية رقم ١٢٣

التاسع : إذا علمت أنى الواحد على الحقيقة ، فلايكن اتكالك إلا علينا ﴿ قل هو ربى لاإله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾(١)

العاشر : إذا عرفت أن هذه الهداية من عندى ، فلاقها بالشكر والتوكل : ﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(٢) .

الحادى عشر : إذا خشيت بأس أعداء الله ، والشيطان الغدار فلا تلتجىء إلا إلى بابنا : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾(٣)

الثانى عشر : إن أردت أن أكون أنا وكيلك فى كل حال فتمسك بالتوكل فى كل حال : ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾(٤)

الثالث عشر : إن أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل فى مقام التوكل ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(٥)وقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(٦)

الرابع عشر : إن شئت النزول محل المحبة فاقصد أولا طريق التوكل : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٧)

الخامس عشر : إن أردت أن أكون لك ، وتكون لى ، فاستقر على تخت التوكل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾(٨) ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾(٩) ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾(١٠)

ثم أعلم أن التوكل نصف الدين ، والنصف الثانى الانابة . فإن الدين استعانة ، وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والأنابة هى العبادة . .

ومنزلة التوكل أوسع المنازل : لايزال معمورا بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العاملين ، وعموم التوكل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار ، والفجار ، والطير ، والوحوش ، والبهائم ، وأهل السموات والأرض ، وأن المكلفين ، وغيرهم فى مقام التوكل سواء وإن تباين متعلق توكلهم .

فأولياؤه وخاصته متوكلون عليه فى حصول مايرضيه منهم ، وفى إقامته فى الخلق ، فيتوكلون عليه

---

(١) سورة الرعد آية ٣٠
(٢) سورة ابراهيم آية ٧٢
(٣) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠
(٤) سورة النساء آية ١٣٢
(٥) سورة النحل الآيتان ٤١ ، ٤٢
(٦) سورة العنكبوت الآيتان ٥٨ ، ٥٩
(٧) سورة آل عمران الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠
(٨) سورة الطلاق آية ٣
(٩) سورة النمل آية ٧٩
(١٠) سورة الفرقان آية ٥٨

فى الايمان ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، وفى محابه ، وتنفيذ أوامره .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله : من رزق ، أو عافية أو نصر على عدو ، أو زوجة ، أو ولد ، ونحو ذلك .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى حصول مالا يحبه الله ، ولا يرضاه : من الظلم والعدوان ، وحصول الاثم ، والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لاينالون غالبا إلا باستعانتهم ، وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات . ولهذا يلقون أنفسهم فى المهالك ، معتمدين على الله ـ تعالى ـ أن يشمهم ، ويظفرهم بمطالبهم .

ـ فأفضل التوكل فى الواجب : أعنى واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس ، وأوسعه وانفعه التوكل فى التأثير فى الخارج فى مصلحة دينه ، أو فى دفع مفسدة دينه . وهو توكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ فى إقامة دين الله ، ودفع المفسدين فى الأرض ، وهذا توكل ورثتهم .

ثم الناس فى التوكل على حسب أغراضهم . فمن توكل على الله فى حصول الملك ، ومتوكل عليه فى حصول رغيف ، ومن صدق توكله على الله فى حصول شيء ناله . فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة . وأن كان مسخوطا مبغوضا كان ماحصل له بتوكله مضرة ، وان كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه ، إن لم يستعن به على طاعة .

فإن قلت مامعنى التوكل ؟ قلت : قال الامام أحمد : التوكل : عمل القلب : يعنى ليس بقول ، ولا عمل جارحة ، ولا هو من باب العلوم والادراكات .

ومن الناس من يجعله من باب المعارف فيقول : هو علم القلب بكفاية العبد من الله . ومنهم من يقول : التوكل هو جمود حركة القلب ، واطراحه بين يد الله كاخراج الميت بين يدى الغاسل : يقلبه كيف يشاء ، وقيل التوكل : ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجارى الأقدار ، ومنهم من يفسره بالرضا ، ومنهم من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه .

وقيل التوكل : ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .

وقال أبو سعيد الخراز : هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . وقال سهل : من طعن فى الحركة ، فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان ، فالتوكل حال النبى ﷺ ، والكسب سنته . فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته .

وحقيقة الأمر أن التوكل : حال مركب من مجموع أمور لايتم حقيقة التوكل الا بها ، وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر ، فأول ذلك معرفة الرب وصفاته ، من قدرته ، وكفايته ، وفيوضه وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها من شيئته ، وقدرته وهذه المعرفة أولى درجة .

والثانية اثبات الأسباب والمسببات ، فإن من نفاها فتوكله مزح ، وهذا عكس مايظهر فى بادىء الرأى ، من أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل . ولكن الأمر بخلافه . فإن نُفاة الأسباب لايستقيم لهم توكل البتة . فإن التوكل أقوى الأسباب فى حصول المتوكل به ، فهو كالدعاء الذى جعله الله سببا فى حصول المدعو به .

الدرجة الثالثة : وسوخ القلب فى مقام التوحيد ، فإنه لايستقيم توكله حتى يصح توحيده .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله تعالى ، واستناده عليه ، وسكونه إليه ، بحيث لايبقى فيه اضطراب من جهة الأسباب .

الخامسة : حسن الظن بالله ، فعلى قدر حسن ظنك به يكون توكلك عليه .

السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه .

السابعة : التفويض ، وهو روح التوكل ، ولبه (حقيقته) فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة ، انتقل منها إلى درجة الرضا وهى ثمرة التوكل .

الرسول القدوة

إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[1] إنه الأمى الذى علم المتعلمين ، واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين ، والمعصوم الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى مرفأ الأمان ، وشاطىءَ الحق المبين . هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، كان ينساب فى أخلاق أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم ، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فى أمير الأنبياء :

يامن له الأخلاق ماتهوى العلا	منها ومايتعشــق الكبـراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل	يغرى بهن ويولع الكرماء

وهاك تلك الباقة العبقة التى جمعنا فيها من كل بستان زهرة ، ومن كل حديقة وردة من رياض الأخلاق المحمدية الكريمة .

تواضعه ﷺ . (من كتاب شمائل النبى للترمذى)

قال بعض العارفين : (لايبلغ العبد حقيقة التواضع إلا إذا دام تجلى الشهود فى قلبه ، لأنه يذيب النفس ويصفيها عن غشى الكبر والعجب فتلين وتطمئن ، ولاتنظر إلى قدرها)

والتواضع لغة : التدلل والخضوع .

وعرفا : خروج الانسان عن مقتضى جاهه ، وتنزله عن مرتبة أمثاله وعند المحققين : التواضع هو : ألا يرى العبد لنفسه مزية ، ويرى الحالة التى هو فيها أعظم من أن يستحقها وسئل أبو زيد : متى يكون العبد متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير العبد لنفسه مقالا ولا حالا .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢١

(١) عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله .[١]

الشرح

والاطراء : هو مجاوزة الحد فى المدح ، والمدح المنهى عنه هو دعوى أن رسول الله ﷺ بلغ مرتبة الألوهية (كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم)
وقالوا إنه إله أو ابن إله . . وإلى هذا يشير البوصيرى حين يقول :

دع ماادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

(٢) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت له : إن لى إليك حاجة . فقال أجلسى فى أى طريق المدينة شئت أجلس إليك .[٢]

الشرح

ويظهر أن الحاجة كانت تريد إخفاءها عن الذين حول النبى ﷺ وتجلى خلق النبى العظيم حين طلب منها أن تجلس فى أى مكان ليجلس إليها .
وهذا داخل فى تيسير حوائج المسلمين والعمل على تسهيل أمورهم .
ولايقال إن النبى ﷺ خلا بالمرأة ، فإن الجلوس كان بمكان عام وكان للضرورة وعلى قدرها !! والغالب أن المرأة كانت عجوزا أو أرملة ولذلك ذكر هذا الأمر فى باب تواضعه ﷺ .
٣ ـ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد . وكان يوم بنى قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف »[٣]
فقد كان ﷺ يزور المريض أيا كان عبدا أو حرا ، بل ورد أنه زار غلاما يهوديا وهو مريض ودعاه للأسلام فأسلم ، وكان يقول للمريض . كيف تجدك أو كيف أصبحت ، أو كيف أمسيت ، أو لابأس عليك ، طهور إن شاء الله ، أو كفارة وطهور ، وقد يضع يده على المكان الذى فيه الألم ثم يقول (بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك الله يشفيك) .
وجاء فى مختصر السيرة للمحب الطبرى . أن رسول الله ﷺ ركب حمارا إلى قباء ، وكان معه أبو

---

(١) أخرجه ابن حبان ج ٨ ص ٤٦ برقم ٦٢٠٦ والبخارى ج ٤ ص ٢٠٤ طبع الشعب
(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٧٦/ ٢٣٢٦
(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد برقم ٤١٧٨ ج ٢

هريرة ، فقال : أحملك بها فقال ماشئت يارسول الله . فوثب ليركب ، فلم يقدر فاستمسك به ﷺ فوقعا جميعا .. وحاول أبو هريرة الركوب مرة أخرى فوقعا جميعا ..

وكان يجيب دعوة العبد فى طعام وغيره ، قرب المكان أو بعد .

وكان النبى ﷺ يركب .. حمارا مخطوما أى ذى خطام وهو الزمام بحبل من ليف (وعليه إكاف) هو كالسرج للفرس (من ليف) من بيانية وركوب الحمار مع هذا الانتصار على بنى قريظة . خلق لايقدر عليه إلا السيد المختار .

(٤) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبى ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والأهالة السنخة فيجيب . ولقد كان له درع عند يهودى فما وجد مايفكها حتى مات .[١]

الشرح والبيان

الاهالة السنخة : الدهن الذى تغيرت رائحته من طول المكث . وكان النبى (ﷺ) يجيب إلى ذلك ، تطيبا لخاطر الداعى . والدرع هى ذات الفضول . واسم اليهودى أبو الشحم . وكان الرهن فى ثلاثين أو عشرين لأجل سنة كما فى البخارى . وكان رهن النبى (ﷺ) عند اليهودى لبيان جواز ذلك .

(فما وجد مايفكها) إلخ . لأنه ﷺ مات فقيرا . وقد فكها من بعده أبو بكر ، وقيل الامام على . وهذه الحال مع ماكان عليه النبى (ﷺ) من مال خيبر وأرض فدك وغنائم الجهاد .

(٥)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حج رسول الله (ﷺ) على رحل رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم ؛ فقال : اللهم اجعله حجا لارياء فيه ولا سمعة .[٢]

الشرح والبيان

الرحل للجمل كالسرج للفرس ، والرث : البالى الخلق . وعلى الرحل قطيفة أى كساء . (لاتساوى أربعة دراهم) أى لبساطتها (اللهم اجعله حجا إلخ) أى خالصا لوجهك ، وافتقارا لربوبيتك ، وفى الحديث تشريع للأمة وحث على التواضع وخلوص النيات .

(٦)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله (ﷺ) قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك

الشرح والبيان

كانت الصحابة تحب رسول الله أكثر من حبهم لأموالهم وأولادهم وأنفسهم وقد استفاضت الأخبار فى ذلك . !

---

(١) اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ١٠١ وكنز العمال ١٨٢٠٩

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٨٩٠ ، ج ٢ ص ٩٦٥ حلية ٣/ ٥٤

ولكنهم مع ذلك لايقومون له ، لأنه ﷺ كان يكره ذلك ، وقد اختلف العلماء فى القيام . فذهب أكثر العلماء إلى كراهته ، وذهب الأقل إلى جوازه .

عن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبى هالة ، وكان وصافا عن حلية رسول الله (ﷺ) وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئا .

فقال : كان رسول الله (ﷺ) فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، فذكر الحديث بطوله . قال الحسن : فكتمتها الحسين زمانا ، ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه . فسأله عما سألته عنه ؛ ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئا قال الحسين : فسألت أبى عن دخول رسول الله (ﷺ) فقال : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فيرد بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئا ، وكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمه على قدر فضلهم فى الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مساءلتهم عنه وإخبارهم بالذى ينبغى لهم . . ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغونى حاجة من لايستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لايستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة ، لايذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره ، يدخلون روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعنى على الخير ، قال فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؛ كان رسول الله (ﷺ) يخزن لسانه إلا فيما يعينه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى

عن أحد منهم بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لايغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لايقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ؛ أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ، ومؤازرة ، قال فسألته عن مجلسه ، فقال : كان رسول الله (ﷺ) لايقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه بنصيبه ، لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه فى حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ؛ مجلسه مجلس علم وحياء ، وأمانة وصبر ، لاترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته ، متعادلين ؛ بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى ؛ متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

الشرح والبيان

قال الحسن : (فكتمتها) أى هذه الرواية أو هذه الحلية .

(زمانا) فيه احتمال أن هذا الكتمان فيه قصدا ، كما يحتمل أن يكون اتفاقا ولكن الحسين رضى الله عنه كان قد سبق فى السؤال عن أحوال النبى (ﷺ) فى مدخله ومخرجه ومجلسه وغير ذلك . والمراد بالشكل هنا أى طريقته فى أصحابه .

جاء فى كتب اللغة أن الشاكل والشكل : الطريقة والمذهب .

وليس المراد هنا الصفة والصورة . (فلم يدع) أى فلم يترك الامام على شيئا مما سأله عنه الحسين إلا وأجاب عنه .

قال الامام على :

(كان إذا أوى إلى منزله) أى استقر فيه ، وهو بالمد أو بالقصر .

(جزأ دخوله) : أى قسم زمانه (جزء الله) أى العبادة والتهجد .

(وجزءا لأهله) أى لمؤانستهن وعشرتهن ومراعاة حقوقهن ، فقد كان خير الناس لأهله (وجزءا لنفسه) وهذا الجزء لم يخلص لنفسه ، بل قسمه بين نفسه وبين الناس ، والمراد بالخواص : الخلفاء الأربعة وكبار الصحابة .

أى أن هؤلاء الخواص يبلغون عنه مايسمعون منه .

(ولا يدخر عنهم شيئا) بل يقدم النصح للجميع كاملا غير منقوص .

وكان من عادته (ﷺ) أن يؤثر أهل الفضل ويقدمهم بإذنه والمراد بأهل الفضل أهل الصلاح والتقوى .

وكان يبدأ بأصحاب الحاجات الذين يحبون أن يسألوا عن أمور دينهم .

(فيتشاغل بهم) أى بذوى الحاجات (ويشغلهم) بفتح الياء (فيما يصلحهم والأمة) أى فى الذى يعود عليهم وعلى الأمة بالصلاح والاصلاح ، وهذا إشراف تربوى من أدق المناهج ، فلا يدع الأصحاب ينشغلون بما لايعنيهم .

وكان (ﷺ) يتعهد كل واحد بما يناسبه .

وبعد تبليغهم وإفادتهم بأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب ، ويقول لهم أوصلوا إلى حاجة الغائبين والمرضى والمستضعفين الذين لاتبلغنى حاجاتهم .

ورغب الرسول فى ذلك بتثبيت القدم على الصراط يوم القيامة . وهذا أمر يعرفه من يدرك أهوال هذا اليوم العظيم .

وقد كانت هذه عادة الرسول (ﷺ) فى مجلسه ، لايقبل الكلام اللغو ، ولا الدخول فيما لايعنى .

(يدخلون روادا) بتشديد الواو ، جمع رائد ، وهو فى الأصل من يتقدم القوم . والرواد هنا أكابر الصحابة .

(ولا يفترقون إلا عن ذواق) بفتح الواو . أى لايفترقون إلا بعد الاستفادة العلمية (ويخرجون من عنده أدلة) أى هداة للناس .

وهذه حال النبى (ﷺ) فى بيته .

فأما فى مخرجه فقال الامام على :

(كان يخزن لسانه . إلخ) أى لايتكلم إلا فى حاجة (ويؤلفهم) ويتحبب إليهم بحسن أخلاقه ، ولا ينفرهم . (ويكرم كريم كل قوم) لأن فى ذلك إكراما لقومه وجذبا لهم ، وقيل يحذر بفتح الياء ، وهو الأنسب هنا لقوله (ويحترس منهم) من غير أن يطوى عن أحد من الناس بشره ، أى طلاقة وجهه .

(ويتفقد أصحابه) أى يسأل عن حال الواحد منهم ولماذا غاب ، فإن كان مسافرا دعاله ، أو مريضا عاده ، أو ميتا استغفر له .

(ويسأل الناس عما فى الناس) ليعرف أصحاب الحوائج فيقضيها (ويحسن الحسن . إلخ) أى يمدحه (ويقبح القبيح ويوهيه) أى يظهر قبحه وينفر الناس منه (معتدل الأمر غير مختلف) أى أن أمره جميعا يجرى مع الوسط وهو خير الأمور (لايغفل) أى عن إرشادهم .

(مخافة أن يغفلوا) أى يتكاسلوا ويذهبوا عن الحق .

(لكل حال عنده عتاد) ، أى كان يعد لكل أمر ماينابسه .

(كان لايقصر عن الحق) أو بيانه أو استيفائه (الذين يلونه إلخ) أى الأقربون منه هم الخيار ، وكان النبى يفضل من الناس من تكون نصيحته أعم ، ويعظم الذين يواسون الناس ويعاونوهم ، فالله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ثم قال الحسن راويا عن الحسين : فسألته عن مجلسه ، فقال الامام على :

(كان لايقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله) أى أن الذكر هو مبدأ جلوسه ومنتهاه . (وكان يجلس حيث ينتهى به المجلس ، ويدعو إلى ذلك ، لأن ذلك هو البساطة المحبوبة ، وكان يقدم لكل جليس مايستحقه من البشر والعناية دون أن يقصر فى أى إنسان ، حتى يحسب جليسه أنه أكرم الجالسين عنده . وهذا خلق لايطيقه إلا نبينا محمد (ﷺ) .

(من جالسه أو فاوضه) أى شاوره . (صابره) أى أن النبى (ﷺ) يجالسه ويشاوره حتى ينتهى أمر المشورة من غير أن يظهر سأما ولا مللا (ومن سأله . إلخ) واضح (قد وسع) أى عم الناس بسطه ، أى طلاقة وجهه ودوام بشره (فصار لهم أبا) فى الشفقة ، بل كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم . (وصاروا عنده فى الحق سواء) أى متساوين فى الحق . (مجلسه إلخ) أى أن مجلسه كان كله صلحا وعلما وصبرا أو آدبا وأمانة وعدم رفع للأصوات وصفاء وسرور . (ولاتنثى فلتاته) أى لاتشاع ولا تذاع . والضمير للمجلس ، أى لاتشاع هفوات المجلس . (متعادلين) أى متساوين . فلا تفاخر ولا تكبر .

فقد كان أصحاب رسول الله كما وصفهم القرآن . ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] . وبقية الأوصاف واضحة .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٩

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت)[١] .

الشرح والبيان

الكراع : بضم الكاف . مادون الكعب من الدواب .

وقيل : هو مستدق الساق من الغنم والبقر .

والجمع أكرع . ورسول الله (ﷺ) يؤكد قبوله الهدية ، أى ولو كانت كراعا . وكذا يعلن إجابة الدعوة !! وهذا هو الخلق الذى عرفنا عليه رسول الله (ﷺ) .

(٩)

عن جابر رضى الله عنه قال : جاءنى رسول الله (ﷺ) ليس براكب بغل ولا برذون) .

الشرح والبيان

البغل : معروف .

والبرذون : الفرس العجمى .

وهذا حديث يفيد أن رسول الله (ﷺ) يزور أصحابه ويعودهم ماشيا ، لما فى ذلك من كثرة الثواب ، وعظيم التواضع .

(١٠)

أنبأنا يحيى بن أبى الهيثم العطار قال : سمعت يوسف بن عبد الله بن سلام قال : سمانى : رسول الله (ﷺ) يوسف وأقعدنى فى حجرة ومسح على رأسى)[٢]

الشرح والبيان

الحجر : بكسر الحاء وفتحها وسكون الجيم . وهو طرف الثوب المقدم منه .

ويطلق على المنع من التصرف ، وعلى الاثنين من الخيل .

وذكر يوسف هذا الحديث ليثبت لنا . كيف كانت معاملة النبى (ﷺ) الرفيقة الرقيقة للصغار !! أجلسه فى حجره . وسماه ، ومسح بيده على رأسه زاد الطبرانى . ودعا لى بالبركة .

فما أجملنا بالتأسى بهذا الخلق فى معاملة الصبيان .

(١١)

عن أنس بن مالك أن رجلا خياطا دعا رسول الله (ﷺ) فقرب منه ثريدا عليه دبَّاء قال : فكان

---

(١) أخرجه : الامام احمد فى مسنده ج ٢ ص ٥١٢

(٢) أخرجه : مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٢٦ ، ص ٣٢٧

رسول الله (ﷺ) يأخذ الدباء وكان يحب الدباء . قال ثابت : فسمعت أنسا يقول : فما صنع لى طعام أقدر على أن يصنع فيه دبا إلا صنع(١) .

الشرح والبيان

ذكروا أن الخياط كان من مواليه : (فقرب منه) أى إليه . والثريد : الخبز المثرود بمرق اللحم . (وعليه دبا) بالقصر والمد وهو القرع !!

(١٢)

عن عمرة قالت : قيل لعائشة ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ فى بيته ، قالت : (كان بشرا من البشر : يغلى ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه)

الشرح والبيان

(كان بشرا من البشر) : هذا أعظم تعبير تمهد به السيدة عائشة للأحوال التى ستذكرها عن رسول الله (ﷺ) وهى تفيد ندرة هذه الأخلاق واستحالة وقوعها إلا من نبينا العظيم .

لقد كان له تسع زوجات وكلهن يتسابقن إلى خدمته ويتنافسن فى قضاء مصالحه ؛ ومع ذلك فقد كان كما قالت السيدة عائشة ، (يغلى ثوبه) أى يفتشه مما علق به ، (ويحلب شاته) ويخدم نفسه .

باب ماجاء فى خلق رسول الله (ﷺ)

الخلق بضم الخاء واللام هو الطبع والسجية ، وهو من الأوصاف الباطنية
قال الامام الغزالى : الخلق هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ، فإن كانت الهيئة جميلة ، سميت خلقا حسنا ؛ وإلا : سميت خلقا سيئا .
وهذه ترجمة لبعض أخلاق النبى وبعض سجاياه ، لا لجميعها ، بدليل أن التواضع مثلا من أخلاق النبى (ﷺ)

(١)

عن خارجة بن زيد بن ثابت قال : دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله (ﷺ) قال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلى فكتبته له ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله (ﷺ) (٢)

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦١٥ برقم ١٤٥/ ٢٠٤١

(٢) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٧

الشرح والبيان

كان زيد هذا من كتاب الوحى ، وكتاب الوحى هم : زيد ، وعثمان ، وعلى ، وأبى ، ومعاوية ، وخالد بن سعيد ، وحنظلة بن الربيع ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبان بن سعيد . والمراد بذكر الدنيا ، أى أمور الدنيا الأمور النافعة ، والمراد بذكر الآخرة : أى تفاصيل يوم القيامة وما يقع فيه .

والمراد بذكر الطعام : مايفيد منه وما لايفيد . ويدل هذا على التبسيط فى الحديث والمجالسة .

(٢)

عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله (ﷺ) يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت : يارسول الله ، أنا خير أو أبو بكر ، قال : أبو بكر ، فقلت يارسول الله . أنا خير أو عمر فقال عمر ، فقلت يارسول الله : أنا خير أو عثمان قال عثمان ، فلما سألت رسول الله فصدقنى فلوددت أنى لم أكن سألته[١]

الشرح والبيان

(أشر القوم) إثبات الألف قليل ، والأكثر عدمها . وكان الرسول (ﷺ) يقبل على أشر القوم ليتألفه . قال (ﷺ) : (إنى أعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ، خشية أن يكبه الله فى النار)[٢] وكان إقبال رسول الله على عمرو لأنه كان حديث عهد بالاسلام فأراد أن يتألفه حتى يتمكن الأيمان فى قلبه ، ولقد تمكن الايمان فى قلب عمرو ، حتى أصبح صحابيا جليلا .

وقد أغرى إقبال النبى على عمرو حتى سأله هذه الأسئلة . ولكن إجابة النبوة الصريحة الصادقة ، جعلت ابن العاص يتصاغر أمام نفسه ، ويتمنى لو لم يكن قد سأل النبى (ﷺ) .

(٣)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله (ﷺ) عشر سنين فما قال لى أف قط ؟ وما قال لى لشىء صنعته لما صنعته .

ولا لشىء تركته لم تركته . وكان رسول الله (ﷺ) من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله (ﷺ) ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق النبى (ﷺ)[٣]

الشرح والبيان

كانت خدمة أنس للنبى (ﷺ) هذه المدة الطويلة فى السفر والحضر ، وهى مدة تكشف الخلق

---

(١) كنز العمال ج ٧ ص ١٦٠ برقم ١٨٥٢٢

(٢) أخرجه الامام احمد ج ١ ص ١٨٢ مسند سعد بن مالك عن أبيه .

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٤ برقم ٥١/ ٢٣٠٩ ، ص ١٨١٥ برقم ٨٢/ ٢٣٣٠

على طبيعته ، فقد يتكلف المرء معيشة أيام وطباع ليال ، ولكن لايدوم التكلف شهورا بل أعواما بحال من الأحوال « وأف » بتشديد الفاء مفتوحة ومكسورة ، وهى كلمة تبرم تقال لما يتضجر منه . « وقط » وهى ظرف بمعنى الزمن الماضى ، وقد يستعمل بمعنى دائما . ولم يكن النبى (ﷺ) يحاسب أنسا لاعتقاده أن الفاعل الحقيقى هو الله سبحانه . ولذلك كان يقول : قدر الله وماشاء فعل .

(وكان من أحسن الناس خلقا) لعل من زائدة . (ولا مسست) بكسر السين على الأفصح « خزا » ثوبا فيه حرير ، (ولا حريرا) أى خالصا .

(ولا شيئا) تعميم بعد تخصيص (ألين منه) ولين النبى (ﷺ) كان طبيعة فى الخلقة .

(ولا شممت) بكسر الميم وفتحها . (مسكا) وهو أطيب الطيب وأشهره وكان عرق النبى - بفتح الراء أطيب من المسك والعطر . لأن هذا مما تميز به النبى (ﷺ)

(٤)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه كان عنده رجل به أثر صفرة قال : وكان رسول الله (ﷺ) لايكاد يواجه أحدا بشىء يكرهه ، فلما قام قال للقومْ : لو قلتم له يدع هذه الصفرة)[1]

الشرح والبيان

لعل الصفرة التى كانت على الرجل من أثر الزعفران . وكان النبى يكره هذه الصفرة ، ولكنه لم يكن يواجه أحدا بشىء يكرهه . فأوعز إلى من حوله أن يقولوا له : دع هذه الصفرة .

(ولو) هذه شرطية أو للتمنى . والظاهر أن هذا الرجل كان ممن يخشى منه مخالفة النبى (ﷺ) ، فأوعز إلى أحد الصحابة أن يكلموه .

(٥)

عن عائشة أنها قالت : لم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ؛ ولكن يعفو ويصفح)[2]

الشرح والبيان

كان النبى ﷺ بعيدا عن الفحش كل البعد . وكذلك لم يكن (صخابا) . أى كثير الصياح ، ولا يقابل السيئة بالسيئة . بل كان يعفو ويصفح !! وبذلك كان يعفو بعد القدرة .

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لايستهين بعفوك الجهلاء .

(١) هامش المواهب اللدنية ص ١٧٣

(٢) أخرجه فى سنن الدارمى ج ١ ص ١٥ برقم ٨

(٦)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماضرب رسول الله (ﷺ) بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا امرأة)[١]

الشرح والبيان

كان النبى (ﷺ) لايضرب مع وجود أسباب الضرب ، لأن الحلم كان طبيعته ، وكظم الغيظ كان سجيته ، (إلا أن يجاهد) فإن الدفاع عن النفس فى الجهاد من شيمة الأبطال . وقد قتل رسول الله ابن خلف فى غزوة أحد وكان جريحا مطعونا .

عن عائشة قالت : مارأيت رسول الله (ﷺ) منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله شىء ، فإذا انتهك من محارم الله شىء كان من أشدهم فى ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن مأثما)[٢] .

الشرح والبيان

لم يكن النبى ﷺ ينتصر لنفسه ، مهما ظلمه الظالمون ، بل يعفو قادرا ويصفح . وقد عفا عمن قال له : (إن هذه القسمة ماأريد بها وجه الله) . وكثير وكثير ، (مالم ينتهك) بالبناء للمفعول . وعندئذ يغضب فلا يهدأ حتى يعود للحق نصابه ، ويؤدب المنتهك ، أو يقام عليه الحد ، لأنه أصبح من حقوق الله . وكان إذا خير بين أمرين من أمور الدنيا ، اختار أيسرهما وأسهلهما . ولذلك فينبغى أن يختار الانسان الأيسر من الأمور . (مالم يكن الأيسر مأثما) بفتح الميم ، أى مفضيا إلى الأثم وعندئذ فيكون الرسول بعيدا عن هذا الأيسر .

(٨)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال : بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة ، ثم أذن له فلما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت يارسول الله قلت ماقلت ثم ألنت له القول فقال : ياعائشة إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه)[٣] .

الشرح والبيان

صرحت بعض الكتب باسم الرجل فقالت : إنه مخرمة بن نوفل . والأرجح من هذا أنه عيينة بن حصين الفزارى . وكان الأحمق المطاع فى قومه . ويظهر أنه كان فاجر الخصومة ، ولذلك قال فيه النبى

---

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٤ برقم ٧٩/ ٢٣٢٨

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٧٧/ ٢٣٢٧

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٠٢ برقم ٧٣/ ٢٥٩١

(ﷺ : بئس أخو العشيرة والعشيرة هى القبيلة . ولقد حدث بعد وفاة النبى ﷺ أن عيينة هذا ارتد عن الاسلام وجىء به أسيرا فى زمن الخليفة الأول أبى بكر فلما دخل المدينة صاح الصبيان : هذا هو الذى خرج من الدين ، فقال لهم : ومتى دخلت فيه حتى خرجت منه . ومن هذا يعلم سبب قول النبى فيه ولكن الروايات ذكرت أنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وقد اعتبر العلماء قول النبى ﷺ فيه وهو غائب وإلانته له وهو حاضر من باب المداراة والتألف . ولقد فرقوا بين المداراة والمداهنة فقالوا : إن المداراة بذل الدنيا للدين ، والمداهنة بذل الدين للدنيا .

ونبينا محمد ﷺ كان قادراً أن يكلم عينية بما يستحقه ولكنه كان يحب الرفق فى الأمور كلها .

(٩)

عن الحسن بن على قال : سألت أبى عن سيرة النبى (ﷺ) فى جلساته فقال : كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح يتغافل عما لايشتهى ، ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار وما لايعينه ، وترك الناس من ثلاث كان لايذم أحدا ولا يعيبه ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، لايتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه

ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقة ومسألته ، حتى إن كانوا أصحابه ليستجلبوهم ويقول : إذا رأيتم طالب بحاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام .

الشرح والبيان

(دائم البشر) أى طلاقة الوجه (سهل الخلق) أى ليس بصعبه ولا خشنه (لين الجانب) أى سريع العطف ، كثير اللطف ، جميل الصفح ، مع الوقار والسكون (ليس بفظ ولا غليظ) أى ليس فيه جفاء ولا غلظة . ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[1] (ولا صخاب) وليس كثير الصخب ، أى الصياح : (ولا فحاش) أى لايعرف الفحش ولا يقع منه (ولا عياب) أى لايعيب غيره أبدا ، ولاعاب طعاما قط (ولا مشاح) اسم فاعل من المشاحة ، وهى عدم المساهلة مع التعقيد (يتغافل عما لايشتهى) أى يظهر الغفلة والاعراض عن الشىء الذى لايستحسنه . (ولا يؤيس) أى لايقطع رجاءه . بل يرد بالحاجة أو بميسور من القول ثم يستمر الامام على فى وصف الأخلاق النبوية فيقول : (قد ترك نفسه من ثلاث خصال مذمومة : (المراء) أى الجدال ولو بحق ، لحديث : من ترك المراء وهو محق ، بنى الله له بيتا فى ربض الجنة .

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(والاكثار) من الكلام أو المال (ومالا يعنيه) أى لايتدخل فيما لايعنيه ، وهو القائل : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) .

(وترك الناس من ثلاث) : (كان لايذم أحدا) أى مواجهة ولا غير مواجهة (ولايعيبه) فى نسخة : ولا (يعيره) من التعيير وهو التوبيخ (ولا يطلب عورته) أى لايتبع عورة المسلم .

(ولا يتكلم إلا فيما جاثوا به) أى فى الشىء النافع المطلوب (وإذا تكلم أطرق جلساؤه) أى أرخو أنظارهم إلى الأرض ، وأصغوا إليه ، كأنما على رءوسهم الطير) فإذا سكت تكلموا أى لايبتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون وهو يتكلم (لايتنازعون عنده الحديث) لأنه لاينبغى التنازع ولا التخاصم فى حضرته . (ومن تكلم عنده . إلخ) لأن هذا من آداب الحديث (حديثهم عنده حديث أولهم) أى يتحدث عنده من جاء أولا ثم من بعده على الترتيب .

(يضحك . إلخ) أى موافقة لهم وتطبيبا لخاطرهم . (ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته) أى يسامح الغرباء إذا حدثت منهم غلظة وجفوة فإن للغريب لدهشة .

وقد ورد أن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن يعتزلهم ، حتى كان الصحابة رضوان الله عليهم يستجلبون الغرباء إلى مجلس النبى (ﷺ) ، ليتمكنوا من العلم والتبسط ، وليجدوا مالم يكونوا يجدونه إذا لم يوجد (الغرباء) (إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه) أى أعينوه على طلب الحاجة حتى يصل إليها . (ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء) أى لايقبل مديحا إلا من إنسان أحسن إليه ، وماسوى ذلك أعرض عنه وأشاح بوجهه . (ولا يقطع عن أحد حديثه) أى لايقاطعه فى كلامه ، وإنما يستمع إليه حتى يفرغ منه . (حتى يجوز) أى يتجاوز الحد ، فيقطعه بنهى أو قيام .

(١٠)

عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا(١) .

الشرح والبيان

المعروف أن رسول الله ﷺ لايسأل عن شىء إلا كان يعطى سائله الحاجة المطلوبة ، أو يدعو له ، أو يعده بها ثم يوفى له ماوعد به .

(١١)

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود مايكون فى شهر رمضان حتى ينسلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة (٢)

---

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٥ برقم ٥٦/ ٢٣١١

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٣ برقم ٥٠/ ٢٣٠٨

الشرح والبيان

كانت مراتب جوده ﷺ ثلاثة :

(١) الجود العادى وهو فوق جود البشر .

(٢) جود أعلى منه وهو فى رمضان

(٣) جود أكثر وأكثر ، وكان عندما يلقى جبريل ويدارسه القرآن والجود فى المحسوسات والمعنويات . وقد استفاضت الأخبار فى أن الدنيا لم تسكن قلبه أبدا . لقد كان يعطى عطاء الملوك ، بل عطاء من لايخشى الفقر أبدا . (فلهو أجود بالخير من الريح المرسلة) أى بالمطر ، لأن الريح تتسبب فى السحاب الذى يتحول إلى الماء والانبات .

(١٢)

عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان النبى ﷺ لايدخر شيئا لغد)[١] .

الشرح والبيان

عدم الادخار يستلزم عظيم توكله على الله عز وجل . وهذا لاينافى ماورد من أنه كان يدخر قوت عام ، فلقد كان هذا المدخر يذهب غالبا إلى الصدقات والمساعدات ، ويفنى بعد قليل . فالصفة الغالبة على أحواله ﷺ هى عدم الادخار .

(١٣)

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبى ﷺ ماعندى شىء ولكن ابتع على فإذا جاء لى شىء قضيته ، فقال عمر : يارسول الله قد أعطيته فما كلفك الله مالاتقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر . فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله ﷺ وعرف فى وجهه البشر لقول الأنصارى ثم قال : بهذا أمرت)[٢] .

الشرح والبيان

(ابتع على) أى اشتر حاجتك دينا علىّ وأنا أوفى عنك وأقضى دينك ، وهذا لأنه لم يكن هناك شىء عند رسول الله ﷺ فى هذه الحال .

ويظهر أن سيدنا عمر أشفق على حال رسول الله فقال كلمته . وكراهية الرسول لكلام عمر ، لأن فيه نزولا على العادة من أحوال البشر ، ورسول الله ﷺ يحب دائما أن يسبق غيره ، (فقام رجل من الأنصار) .

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٦٧ ص ١٠ ج ٤

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ج ١١ برقم ٢٠٠٥٧ ص ١٠٩ فى وصية عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ .

لم يذكروا اسمه ، ولكن يبدو أنه استدرك ، ليرضى رسول الله ، ويذهب هذه السحابة الخفيفة التى ارتسمت على جبينه الشريف ، (أنفق) ولو فوق طاقتك (ولا تخف من ذى العلاش إقلالا) والاقلال الافتقار والحرمان ـ فانفرجت أسارير المصطفى ﷺ ، وعرف البشر فى وجهه .

ـ ١٤ ـ

عن عائشة أن النبى ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها .(١)

الشرح والبيان

الاثابة على الهدية : إعطاء عوض عن الهدية للمهدى . فمن الخلق الحسن أن ندعو للذين أحسنوا إلينا ونكافئهم ، ونحفظ لهم جمائلهم .

* هذه الأحاديث تشرح بعض جوانب هذه النفس الرفيعة ، والاحاطة بهذه النفس التى لايمكن أن يلم بها واصف ، أو يحيط بها فقيه ولا عالم . إنه ﷺ قد جعل على أكمل الفضائل ، وأتم الصفات ، وأقوى المحاسن ، وأزكى الطباع . اللهم حسن خلقنا وخلقنا ؛ واهدنا لأحسن الأخلاق ، لايهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها ؛ لايصرف عنا سيئها إلا أنت ؛ فإن أثقل شىء فى الميزان كما قال نبيك ﷺ : (خلق حسن)(٢) .

* باب ماجاء فى حياء رسول الله (ﷺ)

الحيا : بالقصر هو المطر . والحياء بالمد : هو خلق يبعث على اجتناب القبيح ، ويبعد بصاحبه عن كل مايشين بالمروءة . وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال :

(الحياء خير كله)(٣) ولقد جمع هذا الحديث أقسام الحياء جميعا .

ولقد كان بعض الصالحين يستحى من نفسه ، حتى كأن نفسه نفسان لا نفس واحدة .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئا عرف فى وجهه .(٤) .

الشرح والبيان

العذراء هى البكر ، والخدر : بكسر الخاء وسكون الدال وهو ستر يجعل للبكر فى جانب البيت لتستتر به حتى عن بعض النساء .

---

(١) أخرجه الامام احمد ج ٦ ص ٩٠

(٢) أخرجه الترمذى ج ٣ ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ برقم ٢٠٧٠ ، ٢٠٧١

(٣) أخرجه الامام مسلم ج ١ ص ٦٤ برقم ٦١/ ٣٧ وفى رواية (الحياء كله خير)

(٤) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٩ برقم ٦٧/ ٢٣٢٠

وكان حياء رسول الله ﷺ أشد من حياء هذه البكر المخدرة .

(وكان إذاكره شيئا عرفناه فى وجهه) فلا يصرح حياء ، وإنما يعرف أثر الكراهة فى وجهه ، لأنه صاف منير ، مشرق وضاء ، ومن المعروف بداهة أن الحياء الممدوح هو الذى لايضر بصاحبه ، أو هو الذى لا يتسبب فى انعزاله عن المجتمع ، أما غير ذلك فمذموم . قال رسول الله ﷺ : (نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين)[1]

(٢)

عن مولى لعائشة قال : قالت عائشة : مانظرت إلى فرج رسول الله ﷺ : أو قالت : مارأيت فرج رسول الله ﷺ قط .

الشرح والبيان

يؤكد هذا الحديث ماجاء عن عائشة : (مارأيت منه ولا رأى منى) والحديث الآخر عنها أيضا : (ماأتى رسول الله ﷺ أحدا من نسائه إلا مقنعا ، يرخى الثوب عن رأسه)[2] أورده ابن الجوزى فى كتاب الوفاء .

* وفى الباب حديثان !!

لقد كان ﷺ إذا وعظ قال : مابال أقوام ، ولعل المقصود واحد وكان لايثبت بصره فى وجه أحد .

وكان خافض الطرف ؛ نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .

لاعدة للمطلقة قبل الدخول بها

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

معانى المفردات

نكحتم : يطلق النكاح تارة (يراد به العقد . ويطلق تارة ويراد به الوطء . والمراد به هنا العقد باتفاق العلماء بدليل قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ (وأصل النكاح فى اللغة . الضم والجمع . قال القرطبى : النكاح حقيقة فى الوطء وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث أنه طريق إليه ، ونظيره تسميتهم الخمر إثما لأنها سبب فى اقتراف الاثم ، ولم يرد لفظ النكاح فى القرآن إلا فى معنى

---

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٢٦١ رقم ٦١/ ٣٣٢
(٢) أخرجه أحمد ج ٦ ص ٦٣ ، ١٩٠

العقد ، لأنه فى معنى الوطء ، وهو من آداب القرآن الكناية عنه بلفظ (الملامسة . والمماسه . والقربان . والتغشى . والاتيان)

المؤمنات : فيه إشارة إلى أنه ينبغى أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات ، وليس لفظ الايمان فى قوله ﴿ المؤمنات ﴾ للقيد أو الشرط ، بل هو لمراعاة الغالب من حال المؤمنين أنهم لايتزوجون إلا بمؤمنات .

وهذا مما اتفق عليه الفقهاء ، ولو كان للقيد أو الشرط لكان حكم (الكتابيات) مختلفا عن حكم المؤمنات مع أن الحكم واحد .

تمسوهن : المراد بالمس هنا (الجماع) بإجماع الفقهاء . وقد اشتهرت الكناية به وبلفظ الملامسة والمماسة ونحوها فى لسان الشرع عند الجماع ، وهو كما أسلفنا من آداب القرآن ، لأن القرآن العظيم يتحاشى ذكر الألفاظ الفاحشة ، فيكنى عنها ، مثل قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴾[1] ولو كان المراد فى الآية حقيقة المس باليد ، وهى إلصاق اليد بالجسم ، للزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسها بيده من غير جماع ولاخلوة ، ولم يقل بذلك أحد من الفقهاء .

عدة : العدة فى اللغة مأخوذة من العد لأن المرأة تعد الأيام التى تجلسها بعد طلاق زوجها لها أو وفاته . وهى شرعا : المدة التى تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها . أو للتعبد .

تعتدونها : أى تعدونها عليهن . أو تستوفون عددها عليهن .

فمتعوهن : أى أعطوهن المتعة . والمتعة فى الأصل مايتمتع به من مال أو ثياب ، وقد حددها بعض الفقهاء بأنها (قميص وخمار وملحفة) والصحيح أن المتعة لاتختص بالكسوة بل هى فى لسان الشرع :

كل مايعطيه الزوج لمطلقته ارضاء لها وتخفيفا من شدة وقع الطلاق عليها . وسرحوهن : أى طلقوهن . قال القرطبى : التسريح إرسال الشىء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض ، وسرح الماشية : أرسلها . سراحا جميلا : أى طلاقا بالمعروف ، والسراح الجميل يكون بالتلطف مع المطلقة بالقول وترك أذاها . وعدم حرمانها مما وجب لها من حقوق .

المناسبة والمعنى الجملى

كان الحديث فى الآيات السابقة عن نساء النبى ﷺ ومايبنغى أن يكن عليه من طاعة الله ورسوله . وزهد فى الدنيا وطهارة وكمال ، لأنهن لسن كبقية النساء ، والله تبارك وتعالى يريد لمن أن يحافظن على ذلك الشرف الرفيع ، وهو انتسابهن إلى رسول الله ، حيث أصبحن أمهات للمؤمنين ، وزوجات الرسول الطاهرات ، وقد أعقب ذلك بذكر قصة (زيد بن حارثة) وتطليقه (زينب) رضى الله عنها التى تزوجها الرسول بعد ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وذلك لحكمة جليلة وهى إبطال

---

(١) سورة النساء ٤٣ والمائدة ٦

(بدعة التبنى) ثم جاء الخطاب هنا للمؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل المساس ، وكيف يجب على المؤمنين أن يفعلوا فيها إذا وقع منهم الطلاق قبل المعاشرة ، وما هى الأحكام الشرعية التى ينبغى عليهم أن يتمسكوا بها فى مثل هذه الأحوال ، فيقول سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم ﴾ أى إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ، ثم طلقتموهن من قبل أن تقربوهن فليس لكم عليهن حق فى العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم طلقتموهن قبل المساس ، وهذا لايستلزم احتباس المرأة فى البيت وجلوسها فى العدة ، من أجل صيانة نسبكم ، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل فالواجب عليكم أن تمتعوهن بدفع ماتطيب نفوسكم لهن . وتكرموهن بشىء من المال أو الكسوة تطيبا لخاطرهن وتخفيفا لشدة وقع الطلاق عليهن وأن تفارقوهن بالمعروف فلا تؤذوهن بقول أو عمل . ولا تحرموهن مما وجب لهن عليكم من حقوق . فإن ذلك من مقتضى ايمانكم وطاعتكم لله عز وجل والله تعالى أعلم .

لطائف التفسير : -

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ نكحتم المؤمنات) فيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يتخير لنطفته ، وأن ينكح المؤمنة الطاهرة ، لأن إيمانها يجعلها تحافظ على عفتها ، ويحجزها عن الوقوع فى الفاحشة والشر ، فتصون عرض زوجها ، وتحفظه فى حضرته وغيبته وصدق الله ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾[1] .

اللطيفة الثانية : قوله ﴿ ثم طلقتموهن ﴾ التعبير (بثم) دون الفاء أو الواو والعطف بها يفيد (التراخى) للاشارة إلى أن الطلاق ينبغى أن يكون بعد تريث وتفكير طويل ، ولضرورة ملحة ، لأن الطلاق من الأمور التى يبغضها الله ، حيث فيه هدم وتحطيم للحياة الزوجية ، ولهذا قال بعض الفقهاء إن الآية ترشد إلى أن الأصل فى الطلاق الحظر ، وأنه لايباح إلا إذا فسدت الحياة الزوجية ، ولم تلفح وسائل الاصلاح بين الزوجين ، والحكم واحد لايختلف فيمن تزوج امرأة فطلقها على الفور ، أو طلقها على التراخى .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ كنى بالمس عن الجماع ، وهذا أدب من آداب القرآن ينبغى على المسلم أن يتأدب به فيكنى عن كل شىء قبيح أو فاحش .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فمالكم عليهن من عدة ﴾ فى إسناد العدة إلى الرجال إشارة إلى أنها حق للمطلق ، فوجوب العدة على المرأة من أجل الحفاظ على نسب الانسان ، فإن الرجل يغار على ولده ، ويهمه ألا يسقى زرعه بماء غيره ، ولكنها على المشهور ليست حقا خالصا للعبد .

بل تعلق بها حق الشارع أيضا ، فإن منع الفساء باختلاط الانساب من حق الشارع . والصحيح أن وجوب العدة فيها (حق الله ، وحق العبد) ولهذا قال الفقهاء العدة تجب لحكم عديدة : لمعرفة (براءة الرحم ، وللتعبد ، أو التفجع) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يقع الطلاق قبل النكاح ؟

أجمع الفقهاء على أن الطلاق لايقع قبل النكاح ، استدلالا بقوله تعالى : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾ فقد رتب الطلاق على النكاح وعطفه (بثم) التى تفيد الترتيب مع التراخى ، واستدلالا بقوله ﷺ ، (لا طلاق قبل النكاح) واختلفوا فيمن علق الطلاق مثل قول الرجل : (إن تزوجت فلانة فهى طالق) أو قوله : (كل امرأة أتزوجها فهى طالق) على مذهبين .

أ ـ مذهب الشافعى وأحمد : أنه لايقع الطلاق وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه .

ب ـ مذهب أبى حنيفه ومالك : أنه يقع الطلاق بعد عقد الزواج وهو مروى عن (ابن مسعود) رضى الله عنه .

أدلة الشافعية والحنابلة :

أ ـ استدل الامامان الشافعى وأحمد رحمهما الله على أن التعليق مثل التنجيز طلاق قبل النكاح ، وإذا طلق الانسان امرأة ، لايملكها لايقع الطلاق ، لأن الطلاق لابد أن يعتمد على الملك ، وهو يشبه ما لوقال لأجنبية لايملكها (أنت طالق) فإنه لايقع باتفاق ، فكذاالمعلق من الطلاق لايقع به طلاق .

ب ـ واستدلوا بحديث (لانذر لابن آدم فيما لايملك ، ولا عتق له فيما لايملك ، ولا طلاق له فيما لايملك (الحديث رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا وقال الترمذى حديث حسن ، وهو أحسن شيء روى فى هذا الباب)[1]

وهذا الرأى ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين وقد عد البخارى منهم أربعة وعشرين فى باب (لاطلاق قبل النكاح) وهو منقول عن (ابن عباس) رحمه الله . فقد روى أنه سئل عن ذلك أى (عن الطلاق المعلق) فقال : هو ليس بشيء فقيل له إن (ابن سعود) يخالفك يقول : إذا طلق مالم ينكح فهو جائز . فقال رحم الله أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال لقال الله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن** ﴾ ولكن إنما قال : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾

أدلة المالكية والحنفية :

واستدل الحنفية والمالكية بأن الطلاق يعتمد على الملك أو الاضافة إلى الملك ، لكنه فى حالة الاضافة إلى الملك ، يبقى معلقا ، حتى يحصل شرطه ، فإذا قال للأجنبية (إن تزوجتك فأنت طالق) كان هذا تعليقا صحيحا ، ولايقع الطلاق به الآن إنما يقع بعد أن يتزوجها . فهو مثل قولك : (إن دخلت الدار فأنت طالق) لايقع الطلاق إلا بعد الدخول ، فكذا هنا لايقع الطلاق إلا بعد أن يعقد عقد الزواج عليها ، فيكون الطلاق واقعا فى الملك بالضرورة ، فكأنه أوقعه عليها حينذاك ، وقالوا : الفرق واضح بين تنجيز الطلاق على الأجنبية ، وبين تعليق طلاقها على النكاح ، فإن قول الرجل

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ١١٩٢ ج ٢ ص ٣٢٦

لأمرأة أجنبية (هى طالق) كلام لغو ، لأنها ليست زوجته وقد طلق مالم يملك فهو طلاق قبل النكاح لايقع أصلا ، أما قوله : (إن تزوجت فلانة فهى طالق) فهو معلق على الملك والفرق واضح بينهما .
وهذا القول قال به جمع غفير من العلماء منهم (ابن سعود) ودليله قوى وهو الأحوط كما نبه عليه (ابن العربى والجصاص)

والخلاصة : فإن الطلاق بعد النكاح يقع باتفاق الفقهاء ، والطلاق المنجز قبل النكاح لايقع بإتفاق ، والطلاق المعلق على النكاح يقع عند الحنفية والمالكية ، ولايقع عند الشافعية والحنابلة ، ولكل وجهة هو موليها والله أعلم .

الحكم الثانى : هل الخلوة الصحيحة توجب العدة والمهر ؟

ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ الذى هو كناية عن الجماع أن الخلوة ولو كانت صحيحة لاتوجب مايوجبه الجماع من العدة والمهر ، وهذا مذهب الامام الشافعى رحمه الله تعالى ، ودليله : أن الله سبحانه وتعالى نفى وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع ، والخلوة ليست جماعا فلا يجب بها العدة ولا المهر .

وذهب الجمهور (المالكية والحنفية والحنابلة) إلى أن الخلوة كالجماع توجب المهر كاملا ، وتوجب العدة .

(١) واستدلوا بما رواه الدارقطنى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : (من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق دخل بها أو لم يدخل)[١]

(ب) وروى عن عمر أنه قال (إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث)[٢] .

(ج) وروى عن زرارة بن أبى أوفى أنه قال : (قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملا وعليها العدة دخل بها أو لم يدخل)

الترجيح : وأنت ترى أن أدلة الجمهور أقوى ، وحجتهم أظهر ، إذ يحتمل أن يبقى الرجل مع زوجته عاما كاملا ، يبيت معها فى فراش واحد ، ولكنه لم يجامعها طيلة هذه المدة ، فلابد أن نوجب عليه دفع المهر كاملا ، ونلزمها بالعدة ، وذلك اعتبارا بالخلوة الصحيحة ودفعا للنزاع والخلاف .

وقد اختلف القائلون بوجوب العدة بالخلوة الصحيحة فمنهم من يقول :

إنها واجبة (ديانة وقضاء) ومنهم من يقول بوجوبها قضاء لا ديانة لأنه القاضى إنما يحكم بالظاهر والرأى الأول أصح .

الحكم الثالث : ماهو حكم المطلقة رجعيا هل تستأنف العدة إذا راجعها زوجها ثم طلقها قبل المساس ؟

---

(١) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣٣ والبيهقى ج ٧ ص ٢٥٦

(٢) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣١

اختلف الفقهاء فى المرأة المطلقة رجعيا فيما إذا طلقها زوجها بعد المراجعة قبل أن يمسها على أقوال :

(١) مذهب الظاهرية : أنه لاعدة عليها جديدة والعدة الأولى قد بطلت بالطلاق الثانى ، فلا يجب عليها أن تكمل العدة الأولى (وهذا رأى ضعيف)

(ب) مذهب الشافعى : تبنى على عدة الطلاق الأول وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة .

(ج) مذهب مالك وأبى حنيفة : عليها أن تستأنف عدة جديدة .

قال القرطبى : وعلى هذا أكثر أهل العلم .

دليل الظاهرية : استدل داود الظاهرى ومن قال بقوله : أن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدتها ثم فارقها قبل ان يمسها ، أنه ليس عليها أن تتم عدتها ولا عدة مستقبلة ، لأنها مطلقة قبل الدخول بها أخذا بظاهر الآية .

دليل الشافعى : استدل الشافعى رحمه الله بأن المطلقة تبنى على عدتها الأولى وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة بأن الطلاق الثانى لاعدة له ، لأنه طلاق قبل المساس ، ولكن لاينبغى أن يبطل ماوجب بالطلاق الأول ، فإنه طلاق بعد دخول يجب أن تراعى فيه حكم الشارع فى إيجاب العدة ، فطلاقه لها قبل أن يمسها فى حكم من طلقها فى عدتها قبل أن يراجعها ، ومن طلق امرأته فى كل طهر مرة بنت ولم تستأنف .

دليل المالكية والحنفية : قالوا إن عليها أن تستأنف عدة جديدة ، لأن الطلاق الثانى وان كان لم يفصل بينه وبين الرجعة مس ولا خلوة ، لكنه لايصدق عليه أنه قد حصل قبل الدخول على الاطلاق ، إذ المفروض أن المرأة كان مدخولا بها من قبل ، فيجب عليها أن تستأنف عدة كاملة لأنها فى حكم الموطوءة .

قال القرطبى : نقلا عن الإمام مالك : إنها تنشىء عدة مستقبلة ، وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة له بها .

وعلى هذا أكثر أهل العلم ، لأنها فى حكم الزوجات المدخول بهن فى النفقة والسكن وغير ذلك ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام .

الحكم الرابع : هل تجب المتعة لكل مطلقة ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ فمتعوهن ﴾ إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء فرض لها مهرا ولم يفرض لها مهرا ، ويقوى هذا الظاهر قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾[1] فقد أوجبت لكل مطلقة (المتعة) وقد اختلف الفقهاء فى وجوب المتعة على أقوال :

(١) أنها واجبة لكل مطلقة ، فرض لها مهر أم لم يفرض لها مهر ، عملا بظاهر الآية . وهو مذهب (الحسن البصرى) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤١

(ب) أن المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول التى لم يفرض لها مهر ، وهو مذهب (الحنفية والشافعية) . وبهذا قال (ابن عباس) رضى الله عنهما . وأما التى فرض لها مهر فتكون المتعة لها مستحبة .

(ج) ان المتعة مستحبة للجميع وليست واجبة لأحد من النساء وهو مذهب (المالكية)

وسبب الخلاف بين الفقهاء فى (وجوب المتعة) أو استحبابها هو أنه قد ورد فى القرآن الكريم آيات كريمة ظاهرها التعارض ، فمنها ما يوجب المتعة على الاطلاق ، ومنها مايوجب المتعة عند عدم ذكر المهر المفروض لها ، ومنها مالم ينص على المتعة أصلا فلهذا وقع الخلاف بين الفقهاء ، أما الآيات الكريمة فهى آية الأحزاب ﴿ **فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا** ﴾[1] وآية البقرة ﴿ **ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين** ﴾[2] وآية البقرة كذلك ﴿ **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم** ﴾[3] ـ الآية

فالآية الأولى مطلقة والثانية مقيدة بقيدين (عدم المس ، وعدم الفرض) وأول الآية هو قوله تعالى : ﴿ **لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن** ﴾ الآية .

والثالثة : أوجبت نصف المهر فقط ولم تذكر المتعة . فمن الفقهاء من جعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب ويكون المعنى (فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهن المهر فى النكاح) وبهذا التفسير قال (ابن عباس) ويؤيده أن المتعة انما وجبت دفعا لايحاش الزوج لها بالطلاق ، فإذا وجب للمطلقة قبل الدخول نصف المهر كان ذلك جابرا للوحشة فلا تجب لها المتعة . .

الترجيح : ويظهر من الأدلة أن حجة الفريق الثانى وهم (الحنفية والشافعية) أقوى وأظهر وهو مذهب ابن عباس وفيه جمع بين الأدلة والله أعلم .

ماترشد إليه الآيات الكريمة

أولا ـ على الانسان أن يختار فى الزواج المرأة المؤمنة الطاهرة .

ثانيا : الطلاق هدم للحياة الزوجية فلا يصح أن يقع إلا فى الحالات الضرورية .

ثالثا : لاتجب العدة بالاجماع اذا طلقت المرأة قبل الدخول بها .

رابعا : على الزوج أن يجبر خاطر زوجته المطلقة بالمتعة .

خامسا : حرمة ايذاء المطلقة وتسريحها بالمعروف والاحسان .

حكمة التشريع

شرع الله تعالى الزواج لبقاء النوع الانسانى ، وعزز من روابطه واركانه وأحاط الأسرة بسياج

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٩
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٦
(٣) سورة البقرة آية ٢٣٧

مقدس من التكريم والتقدير وأقام الحياة بين الزوجين على أساس التفاهم والتعاون ، والمحبة والمودة ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

وقد أباح الاسلام الطلاق فى ظروف استثنائية ضرورية ، وذلك ليخلص الانسان من شقاء محتم ، وينقذه من مشكلة قد تحرمه السعادة ، أو تكلفه حياته ، والطلاق فى الاسلام أبغض الحلال إلى الله ، لان فيه خراب البيوت ، وضياع الأسرة ، وتشريد الأولاد ، ولكنه ضرورة لابد منها عند اللزوم . فلابد أن تكون الأسباب فيه جلية . والدوافع قاهرة ، وألا يكون ثمة طريق إلى الخلاص من ذلك الشقاء إلا بالطلاق . وقد قيل فى الأمثال « أخر الدواء الكى »

وقد أرشد الاسلام إلى الاستعمال الحكيم لهذا العلاج ، بألا يقدم عليه الانسان إلا بعد درس وتمحيص وروية وبصيرة فإن الطلاق ماشرع إلا ليحقق الطمأنينة والسعادة للانسان ، ويدفع عنه مرارة العيش ، وقساوة الحياة ، واذا لم يستعمله المرء فى الطريق المأمون انقلب إلى اعصار مخرب مدمر ، فحرم الأسرة الأمن والاستقرار ، فهو إذن سلاح ذو حدين : فإما أن يستعمله الانسان فيما يجلب اليه الشقاء . أو يستعمله فيما يخلصه من الشقاء .

وقد حكم البارى جل وعلا بأن من طلق زوجه قبل المساس . فليش له عليها حق أن يمنعها من الزواج ، لأنها لاعدة عليها . والعدة إنما تجب لمعرفة براءة الرحم ، وصيانة لحق الزوج لئلا يختلط نسبه بنسب غيره ، ولما كان هذا الطلاق قبل المعاشرة والاتصال الزوجى ، إذن فلاعدة ولا سبيل له عليها . فيجب أن يحسن معاملتها ، ويخلى سبيلها ، ولايجمع لها بين الاساءتين : إساءة العشرة بسبب الفراق وإساءة المعاملة بمنعها من الزواج ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾ .

وبذلك صان المولى جل وعلا كرامة المرأة ودفع عنها عدوان الزوج وطغيانه ، وحفظ لكل حقه ، فلم يظلم المرأة ولم يفرط فى حق الرجل ، وفسح المجال لكل من الزوجين فى الحياة السعيدة الكريمة .

فما اسمى تعاليم الاسلام ، وما أعدل نظمه وأحكامه !!

أحكام زواج النبى ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ * تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن

---

(١) سورة الروم آية ٢١

تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾

معانى المفردات

أحللنا : الاحلال معناه الاباحة ، وكل شيء أباحه الله فهو حلال ، وماحرمه فهو حرام ، قال فى لسان العرب : والحل والحلال والحليل . نقيض الحرام وأحله الله وحلله .

أجورهن : مهورهن والمراد فى الآية : الأزواج اللواتى تزوجهن عليه الصلاة والسلام بصداق ، وسمى المهر أجرا ، لأنه مقابل الاستمتاع بالمرأة فى الظاهر ، وأما فى الحقيقة فهو بذل وعطية ، لاظهار (حظر المحل) وشرفه ، كما قال تعالى : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾[1] أى هبة وعطية عن طيب نفس ، فالمهر تكريم للمرأة وإيناس لها ، وتطييب لخاطرها ، وليس هو مقابل المنفعة أو الاستمتاع ، كما نبه عليه الفقهاء .

ملكت يمينك : يعنى الجوارى والاماء ، لأنهن يتملكن عن طريق الحرب والجهاد ، بالجهد والتضحية ، وبذل النفس والمال فى سبيل الله ، ولذلك أطلق عليهن (ملك اليمين) .

أفاء الله : أى مما غنمته منهن . ومما رده الله عليك من الكفار ، كصفية وجويرية : فإنه عليه السلام أعتقهما وتزوجهما ، وأصل الفيء : الرجوع ، وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع إلى المسلمين من أموال الكفار بدون قتال ، فكأنه كان فى الأصل للمسلمين ، فرجع إليهم بدون حرب ولا قتال .

هاجرن معك : المراد بالهجرة هى هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة ، والمعية هنا (معل) يراد بها الاشتراك فى الهجرة ، لا فى الصحبة ، فمن هاجرت حلت له ، سواء هاجرت فى صحبته أو لم تهاجر فى صحبته ، قال أبو حيان : تقول : دخل فلان معى ، وخرج معى أى كان عمله كعملى ، وان لم يقترنا فى الزمان ، وان قلت : فرجعنا معا اقتضى المعنيان : الاشتراك فى الفعل ، والأشتراك فى الزمان .

يستنكحها : الاستنكاح طلب النكاح ، لأن السين والتاء للطلب ، مثل استنصر طلب النصرة ، واستعجل طلب العجلة ، والمراد من قوله : (إن أراد النبى) أى إن رغب النبى فى نكاحها ، فالارادة هنا بمعنى الرغبة فى النكاح .

خالصة : أى خاصة لك لايشاركك فيها أحدٌ، يقال : هذا الشيء خالصة لك : أى خالص لك

---

(١) سورة النساء آية ٤

خاصة . قال ابن كثير : أى لاتحل الموهوبة لغيرك ولو أن أمرأة وهبت نفسها لرجل ، لم تحل له حتى يعطيها شيئا ، وكذا قال مجاهد والشعبى .

مافرضنا عليهم : أى ماأوجبنا على المؤمنين من نفقة ، ومهر ، وشهود فى العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وماأبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور .

حرج : أى ضيق ومشقة ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ أى لكيلا يكون عليك ضيق فى دينك ، حيث أختصصناك بما هو أولى وأفضل . وأحللنا لك أجناس المنكوحات توسعة لك . وتيسيرا عليك ، لتتفرغ لشئون الدعوة والرسالة .

ترجى : قال فى لسان العرب : ارجأ الأمر : أحزه وترك الهمزة لغة والارجاء : التأخير ، قال ابن عباس فى معنى الآية : تطلق من تشاء من نسائك وتمسك من تشاء منهن لاحرج عليك . وقال مجاهد والضحاك : المعنى تفسم لمن شئت ، وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت ، وتكثر لمن شئت . لاحرج عليك فى ذلك .

فإذا علمن أن هذا حكم الله وقضاؤه زالت الاحنة والغيرة عنهن ، ورضين وقرت أعينهن .

وتؤوى : أى تضم : يقال أوى وآوى بمعنى واحد قال تعالى :
﴿ آوى إليه أخاه ﴾[1] أى ضمه إليه وأنزله معه ، قال ابن الجوزى (وأكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحبة نسائه كيف يشاء ، من غير إيجاب القسمة عليه والتسوية بينهن . غير أنه كان يسوى بينهن)

تقر أعينهن : أى تطيب نفوسهن بتلك القسمة قال أبو السعود (ذلك أدنى أن تقر أعينهن) أى أقرب إلى قرة العيون ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن) .

عليما حليما : أى مبالغا فى العلم فيعلم كل ماتبدونه وتخفونه .

حليما لايعاجل بالعقوبة ، فلا تغتروا بتأخيرها ، فإنه تعالى يمهل ولا يهمل .

المناسبة والمعنى الاجمالى

أحل الله تعالى لنبيه ﷺ صنوفا من النساء ، صنفا يدفع له المهر (الممهورات) وصنفا يتمتع به بملك اليمين (المملوكات) ، وصنفا من أقاربه من نساء قريش ، ونساء بنى زهرة (المهاجرات) ، وصنفا رابعا ينكحه بدون مهر (الواهبات) أنفسهن وقد خص البارى جل وعلا رسوله فى أحكام الشريعة بخصائص لم يشاركه فيها أحد ، وذلك توسعة عليه ، وتيسيرا له فى نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، فتزوجه ﷺ بأكثر من أربع ، واختصاصه بنكاح الواهبات أنفسهن بدون مهر ، وعدم وجوب

(١) سورة يوسف آية ٦٩

القسم عليه بين الأزواج ، كل ذلك خاص به صلوات الله وسلامه عليه ، تشريفا له وتكريما وإظهارا لمقامه السامى عند المولى عز وجل .

روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحى أمرأة ان تهب نفسها لرجل ؟ ! حتى أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ فقلت « ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك »[1]

ومعنى الآيات الكريمة : ياأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وأحللنا لك ماملكت يدك من السبى فى الحرب ، وأحللنا لك قريباتك من بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات ، اللواتى وهبن أنفسهن ، حبا فى الله وفى رسوله ، ورغبة فى التقرب لك ، إن أرت أن تتزوج من شئت منهن ، بدون مهر خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا مافرضنا على المؤمنين فى زوجاتهم ورفيقاتهم من شرائط العقد ، ووجوب المهر فى غير المملوكات ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيرا لك لكيلا يكون عليك ضيق أو حرج ولك ـ أيها الرسول ـ أن تترك من زوجاتك من تشاء ، وتضم إليك من تشاء ، وتقسم لمن تشاء منهن ، وأن تراجع بعد الطلاق من تريد . ذلك أقرب أن ترتاح قلوبهن لعلمهن أنه بأمر الله وترخيصه لك ، فيرضين بكل ماتفعل ، ويقبلن به عن طيب نفس ، وكان الله عليما بما انطوت عليه القلوب ، حليما لايعاجل بالعقوبة لمن خالف أمره وعصاه .

وسبب نزول الآية ، أنه لما نزلت آية التخيير ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

أشفق نساء النبى ﷺ أن يطلقهن فقلن : يانبى الله أجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ، ودعنا فى عصمتك ، فنزلت هذه الآية ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ الآية . (أخرجه ابن أبى شيبه من رواية رزين)[2] .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : الاحلال معناه الاباحة والحل . واسناده إلى الله عز وجل ﴿ أحللنا لك أزواجك ﴾ دال على أن التحليل والتحريم خاص به سبحانه ، والتشريع لله وحده ، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ولا يملك أحد سلطة التشريع ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[3]

اللطيفة الثانية : فى وصفه تعالى النساء بقوله : ﴿ اللاتى آتيت أجورهن ﴾ تنبيه على أن الله عز وجل اختار لنبيه ﷺ الأفضل والأكمل ، فإن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيره ، والتعجيل كان سنة السلف لايعرف منهم غيره ، وقد شكا بعض الصحابة عدم القدرة على التزوج ، فقال له عليه السلام (فأين درعك الحطمية ؟)

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى ج ١٠ ص ٤٩
(٢) أخرجه ابن أبى شيبة ج ٤ ص ٣٠٤
(٣) سورة يوسف آية : ٤٠

وليس تأخير بعض المهر وتقسيمه إلى (معجل ومؤجل) إلا شيء استحدثه العرف ، واقتضاه التغالى بالمهور ، أو الحذر على مستقبل الفتاة من الطلاق بعد أن فسد حال الناس ، فذكر الأجور ليس للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان الأفضل .

اللطيفة الثالثة : تخصيص ماملكت يمينه فى قوله تعالى : ﴿ مما أفاء الله عليك ﴾ للاشارة على أنها أحل وأطيب مما تشترى من الجلب . فما سبى من دار الحرب قيل فيه (سبى طيبة) وماكان عن طريق العهد قيل (سبى خبيثه) والله تعالى لايرغب نبيه إلا فى الطيب دون الخبيث (أفاده أبو حيان فى البحر المحيط) .

اللطيفة الرابعة : ذكر العم والخال مفردا ، وجمع العمات والخالات ، فى قوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾

قال ابن العربى : والحكمة فى ذلك أن العم ، والخال فى الاطلاق (اسم جنس) كالشاعر ، وليس كذلك فى العمة والخالة ، وقد جاء الكلام عليه بغاية البيان ، على العرف الذى جرى عليه العرب .

اللطيفة الخامسة : العدول عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿ إن أراد النبى ﴾ ثم الرجوع إلى الخطاب فى قوله ﴿ خالصة لك ﴾ وذكره ﷺ بعنوان (النبوة) للدلالة على أن الاختصاص كان من الله تعالى ، تكرمة له لأجل النبوة ، والتكرير للتفخيم من شأنه ﷺ ، وبيان استحقاقه الكرامة لنبوته .

قال الزجاج : وإنما قال : (إن وهبت نفسها للنبى) ولم يقل : لك . لأنه لوق قال : لك . جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز فى بنات العم وبنات العمات .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز النكاح بلفظ الأجارة أو الهبة ؟

لاخلاف بين الفقهاء على أن عقد النكاح ينعقد باللفظ الصريح ، وهو لفظ (النكاح أو الزواج) وبكل لفظ مشتق من هذه الصيغة . إذا لم يقصد به الوعد لقوله تعالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾[1] ولقوله ﷺ (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ﴾[2] فصيغة النكاح والتزويج وردت فى الكتاب والسنة ، وهى من الصيغ الصريحة فى النكاح .

وقد اتفق الفقهاء أيضا على أن ألفاظ (الاباحة ، والاحلال ، والاعارة والرهن والتمتع) لايجوز بها عقد النكاح ومثلها لفظ (الاجارة) فلا يجوز به عقد النكاح عند جمهور الفقهاء .

وقال أبو الحسن الكرخى : يجوز بلفظ الاجارة لقوله تعالى : ﴿ اللاتى آتيت أجورهن ﴾[3] وحجته أن الله عز وجل سمى المهر أجرا ، والأجر يجب بعقد يتحقق بلفظ الأجارة فيصح به النكاح .

---

(١) سورة النساء آية ٢٥
(٢) أخرجه الترمذى ج ٢ ص ٢٧٤ برقم ١٠٩٠ ، ١٠٩١
(٣) سورة الأحزاب ٥٠

الرد على الكرخى

والجواب : أن معنى (الإجارة) يتنافى مع عقد النكاح ، إذ النكاح مبنى على التأبيد ، والتوقيت يبطله ، وعقد الاجارة مبنى على التوقيت ، حتى لو أطلق كان مؤقتا ويتجدد ساعة فساعة ، فكيف يصح جعل ماهو موضوع على التوقيت دالا على مايبطله التوقيت

ومن جهة ثانية فإن الاجارة عقد على المنافع بعوض ، والمهر ليس مقابل العوض . بل هو عطية أوجبها الله تعالى إظهارا لخطر المحل ، ولذلك يصح النكاح مع عدم ذكر المهر ، ويجب مهر المثل بالدخول ، ولايصح النكاح بلفظ الاجارة ، حتى لايلتبس الأمر بعقد المتعة الباطل ، ولهذا لم يوافق أحد من فقهاء الحنفية الكرخى فيما ذهب إليه .

أما النكاح بلفظ الهبة فقد أجازه الحنفية ، ومنعه جمهور الفقهاء .

استدل الحنفية على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة بما يلى :

(١) قوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها ﴾ ووجه الاستدلال أن الله عز وجل سمى العقد بلفظ الهبة نكاحا فقال : (أن يستنكحها) فدل على جواز النكاح بلفظ الهبة ، وإذا جاز هذا للنبى ﷺ فقد جاز لنا أيضا ، لأننا أمرنا باتباعه والاقتداء به .

(ب) وقالوا أيضا : إن النبى ﷺ وأمته فى عقد النكاح بلفظ (الهبة) سواء وخصوصيته التى أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ إنما هى فى جواز النكاح بدون مهر ، بدليل قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ وذلك يشير إلى أن الخصوصية دفعت حرجا ، والحرج إنما يكون فى الزام المهر ، لأنه يلزم مشقة السعى فى تحصيل المال . وهو عليه السلام مشغول بشئون الرسالة ، وليس ثمة حرج فى أن يكون العقد بلفظ النكاح ، أو التزويج ، فتكون الخصوصية له عليه السلام فى النكاح بدون مهر .

ج ـ وقالوا : مما يؤيد هذا ماروى عن عائشة أنها كانت تعير النساء اللاتى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ وتقول :

(ألا تستحى أن تعرض نفسها بغير صداق !!) فلما نزل قوله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ إلى قوله ﴿ فلا جناح عليك ﴾ قالت : ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك . . وقد تقدم الحديث .[١] .

(د) واستدلوا بحديث سهل بن سعد (إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله : جئت لأهب نفسى لك وفيه (فقام رجل من الصحابة فقال يارسول الله . ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، وذكر الحديث إلى قوله : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن)[٢] .

ففى هذا الحديث أنه عقد له النكاح بلفظ التمليك والهبة من ألفاظ التمليك . فوجب أن يجوز

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٦

(٢) أخرجه البخارى ج ٧ ص ٢٦ كتاب النكاح

بها عقد النكاح فكل ماكان من ألفاظ . (الاباحة) لم ينعقد به عقد النكاح قياسا على المتعة ، وكل ماكان من ألفاظ (التمليك) ينعقد به عقد النكاح قياسا على سائر عقود التمليكات .

حجة الجمهور

واستدل الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة) على عدم جواز النكاح بلفظ الهبة بماياتى :

(١) أن الله تعالى خص رسوله بهذه الخصوصية . وهى جواز النكاح بلفظ الهبة بدون مهر فقال جل ثناؤه : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبى ﴾ وقوله : ﴿ خالصة لك ﴾ دليل على أن إحلال المرأة عن طريق الهبة إنما كان خاصا بالنبى (ﷺ) بدليل قوله تعالى : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ فالخصوصية له عليه السلام كانت بالهبة (لفظا ومعنى) لأن اللفظ تابع للمعنى .

ب ـ وقالوا ماكان من خصوصياته عليه السلام . فلا يجوز أن يشاركه فيها أحد . والآية دلت على أن هذا خاص بالرسول ﷺ أى أن النكاح بدون مهر . وبلفظ الهبة معا . من خصائصه عليه السلام .

فمن أين لكم الخصوصية فى المعنى دون اللفظ ؟ ومن أين لكم أنه يجوز عقد النكاح لغير النبى (ﷺ) بلفظ الهبة مع إيجاد المهر ؟

ج ـ وأما استدلال الحنفية بحديث (سهل بن سعد) أن النبى عليه السلام زوج الصحابى بلفظ التمليك بقوله (اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن)

فليس منه مايدل لهم . فقد جاء فى بعض الروايات (اذهب فقد زوجتكها)

وليس كل مايدل على التمليك ينعقد به النكاح . فلفظ الاجارة يدل على التمليك ومع ذلك لاينعقد به النكاح باتفاق .

الترجيح : أقول : أدلة الحنفية كما بسطها الامام (الجصاص) وإن كانت قوية إلا أن النص ورد بالخصوصية للرسول عليه السلام فى (نكاح الهبة) والظاهر أن المراد منه (اللفظ والمعنى) ، وحمله على المعنى دون اللفظ يحتاج إلى دليل ، وصيغ النكاح لايجرى فيها القياس ، فما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح كما قال الامام مالك رحمه الله : إن الهبة لاتحل لأحد بعد النبى (ﷺ) إن كانت هبة نكاح ، والله أعلم .

الحكم الثانى : هل الهجرة شرط فى النكاح ؟

ظاهر الآية الكريمة يدل على أن من لم تهاجر معه من النساء لايحل له نكاحها لقوله تعالى : ﴿ اللاتى هاجرن معك ﴾ الآية . وإلى هذا الظاهر ذهب بعض العلماء قال القاضى أبو يعلى : وهذا يدل على أن من لم تهاجر معه من النساء لم يحل له نكاحها . قالت أم هانىء بنت أبى طالب : خطبنى رسول الله (ﷺ) فاعتذرت إليه فعذرنى ، ثم نزلت هذه الآية ﴿ إنا أحللنا لك أزواجك .. ﴾ إلى قوله : ﴿ اللاتى هاجرن معك ﴾ قالت : فلم أكن لأحل له . لأنى لم أهاجر معه . كنت من الطلقاء .

وجمهور المفسرين على أن الهجرة ليست بقيد ولا شرط . وإنما هى لبيان الأفضل كما فى قوله تعالى : ﴿ اللاتى آتيت أجورهن ﴾ فالآية ذكرت الأصناف التى يباح للرسول ﷺ أن يتزوج منها ، وبين ماهو أفضل له وأكمل ، فكما أن ذكر (الأجور) ليس للقيد وإنما هو لبيان الأفضل فكذا هنا .

قال أبو حيان : (والتخصيص باللاتى هاجرن معك . لأن من هاجر معه من قرابة غير المحارم أفضل من غير المهاجرات ، وقيل : شرط الهجرة فى التحليل منسوخ) .

وحكي الماوردى فى ذلك قولين : أحدهما : أن الهجرة شرط فى إحلال النساء له على الاطلاق .

والثانى : أنه شرط فى إحلال قراباته المذكورات فى الآية دون الأجنبيات .

الترجيح : والصحيح ماذهب إليه جمهور المفسرين أن تقييد القريبات بكونهن مهاجرات لبيان الأكمل والأفضل . .

الحكم الثالث : هل كان عند النبى امرأة موهوبة ؟

ذكر أكثر العلماء إلى أن الهبة وقعت من كثير من النساء ، وقد وردت روايات كثيرة منها القوى ومنها الضعيف فى أسماء الواهبات أنفسهن . منهن (أم شريك) و (خولة بنت حكيم) و (ليلى بنت الخطيم) . ولم يكن عند رسول الله (ﷺ) . منهن أحد ، وقيل (ميمونة بنت الحارث) و (زينب بنت خزيمة) كذلك من الواهبات أنفسهن والصحيح هو الأول .

قال أبو بكر بن العربى : (وروى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبى (ﷺ) امرأة موهوبة)

قال ابن كثير : (اللاتى وهبن أنفسهن للنبى (ﷺ) كثير ، كما قال البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أغار من اللاتى وهبن أنفسهن للنبى (ﷺ) وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء . ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾

قلت : مارأى بك إلا يسارع فى هواك) .

الحكم الرابع : هل كان القسم واجبا على رسول الله ﷺ ؟

يرى بعض العلماء أن القسم كان واجبا على رسول الله (ﷺ) وأنه كان يقسم بينهن بالعدل ويقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لاأملك)[1] يريد بقوله : (مالا أملك) ميل للقلب نحو بعض نسائه كعائشة رضى الله عنها .

واستدلوا بأن القسم كان واجبا عليه بأنه عليه السلام كان يستأذن بعض نسائه فيقول : أتأذن لى أن أبيت عند فلانة . وقد ورد فى ذلك أحاديث صحيحة .

وذهب أكثر العلماء على أن هذه الآية الكريمة نزلت مبيحة لرسول الله (ﷺ) معاشرة من شاء من نسائه دون أن يكون القسم عليه واجبا ، ومع ذلك فقد كان يعدل بينهن ويسوى فى القسمة .

قال الجصاص : « وهذه الآية تدل على أن القسم بينهن لم يكن واجبا على النبى (ﷺ) وأنه كان

---

(١) رواه الحاكم ٢/ ١٠٧ والبيهقى فى السنن ٧/ ٢٩٨ واتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٦٨

مخيرا فى القسم لمن يشاء ، وترك من شاء منهن)

وقال ابن كثير : (وذهب طائفة من العلماء من الشافعية وغيرهم ، إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه ، ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، وقال البخارى عن معاذ عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبى ﷺ يستأذننا فى يوم المرأة منا ، بعد أن نزلت هذه الآية :

﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ فقلت لها : ماكنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلى فإنى لاأرى يارسول الله أن أوثر عليك أحدا)[1]

والصحيح أن القسم لم يكن واجبا عليه وهو اختيار الجمهور ، قوله تعالى : ﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولايحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما** ﴾

﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى باليك من تشاء**) أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولايجب عليك قسم بينهن ، بل الأمر فى ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

﴿ **ومن ابتغيت ممن عزلت فلاجناح عليك** ﴾ أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك فى ذلك .

والخلاصة : أنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبى رزين قال : (لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يارسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ماشئت ، ودعنا كما نحن فنزلتْ هذه الآية . فأرجأ رسول الله ﷺ بعضهن ، وآوى إليه بعضهن . وكان ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمسا : أم حبيبة ، وميمونة ، وسودة ، وصفية ، وجويرية ، فكان لايقسم بينهن ماشاء ، ثم بين السبب فى الايواء والارجاء ، وأنه كان ذلك فى مصلحتهن ، فقال :

﴿ **ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن** ﴾ ، أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم لاجناح عليك فى أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارا منك لاوجوبا عليك . ففرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن . وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك بينهن .

﴿ **والله يعلم مافى قلوبكم** ﴾ من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لايمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر له فى حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : (اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) . يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين مافى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله له من ذلك ،

---

(١) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٦٠٢ برقم ٢١٣٦ كتاب النكاح

وفوضه إلى مشيئته ، وبعث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله ﷺ .

﴿ وكان الله عليما حليما ﴾ أى وكان الله عليما بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

قوله تعالى : ﴿ لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ .

تتضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(١) ﴿ لايحل لك النساء من بعد ﴾ أى لايحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى فى عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال :

(لما خيرهن فاخترن الله ورسوله ﷺ قصره سبحانه عليهن) .

وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : « حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه »

(٢) ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك ﴾ أى ولايحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ماملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسراها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا .

وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبى (ﷺ) قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل »[1] وعن المغيرة بن شعبة قال : (خطبت امرأة فقال لى النبى ﷺ : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) .

﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ أى وكان الله حافظا ومطلعا على كل شىء ، عليما بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده ، وتخطى حلاله إلى حرامه .

آداب الاستئذان والوليمة والحجاب

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟

(١) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ برقم ٢٠٨٢

رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

معانى المفردات

يؤذن لكم : أى تدعوا إلى تناول الطعام ، والأصل أن يتعدى بـ (فى) تقول : أذنت لك فى الدخول ، ولا تقول أذنت لك إلى الدخول ، ولكن اللفظ لما ضمن معنى (الدعوة) عدى بـ (إلى) بدل (فى) ومعنى الآية .

لاتدخلوا بيوت النبى إلا إذا دعيتم إلى تناول الطعام .

قال الزمخشرى : ﴿ إلا أن يؤذن ﴾ فى معنى الظرف تقديره : وقت أن يؤذن لكم . ناظرين إناه : أى منتظرين نضجه ، قال فى اللسان : وإنى الشيء : بلوغه وإدراكه ، وفى التنزيل ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ أى غير منتظرين نضجه وإدراكه وبلوغه ، تقول : أنى يأنى إذا نضج إنى أى نضجا ، والانى بكسر الهمزة والقصر : النضج فهو على هذا مصدر مضاف إلى الضمير .

ويرى بعض المفسرين أنه ظرف بمعنى (حين) وهو مقلوب (آن) بمعنى (حان) فعلى الأول يكون المعنى : غير منتظرين نضجه ، وعلى الثانى يكون المعنى : غير منتظرين وقته أى وقت إدراكه ونضجه ، وهما متقاربان .

فانتشروا : أى أخرجوا وتفرقوا ، يقال انتشر القوم : أى تفرقوا ومنه قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾[1] أى تفرقوا فى الأرض لطلب الرزق والكسب .

مستأنسين لحديث : معنى الاستئناس : طلب الأنس بالحديث لأن السين والتاء للطلب تقول : أستأنس بالحديث : أى طلب الأنس والطمأنينة والسرور به . وتقول : مابالدار أنيس ، أى ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ، وقد كان من عادة الناس أنهم يجلسون بعد الأكل فيتحدثون طويلا ، ويأنسون بحديث بعضهم بعضا فعلمهم الله الأدب ، وهو أن يتفرقوا بعد تناول الطعام . ولا يثقلوا على أهل البيت ، لأن المكث بعده فيه نوع من الاثقال .

إن ذلكم : اسم الاشارة راجع إلى الدخول بغير إذن . والمكث عقب الطعام للاستئناس بالحديث . وقيل : هو راجع إلى الأخير خاصة ، ومعنى الآية : إن انتظاركم واستئناسكم يؤذى النبى . ،

فيستحيى منكم : أى يستحى من اخراجكم من بيته ، والله لايستحى من بيان الحق فهو على حذف مضاف .

متاعا : المتاع : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ، وهو فى اللغة : مايستمتع به حسيا كان كالثوب والقدر والماعون . أو معنويا كمعرفة الأحكام الشرعية والسؤال عنها ، وقد يأتى المتاع بمعنى

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠

التمتع بالشىء والايقاع به كما قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[١] وفى الحديث الشريف : (الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة)[٢] .

حجابها : أى ساتر يستره عن النظرة قال فى اللسان : حجب الشىء يحجبه أى ستره ، وقد احتجب وتحجب إذا اكتن من وراء حجاب . وامرأة محجوبة قد سترت بستر ، والحجاب : اسم ماالحتجب به .

وكل ماحال بين شيئين فهو حجاب . قال تعالى : ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾[٣]

ومعنى الآية : **إذا سألتموهن شيئا مما يستمتع به وينتفع فاسألوهن من وراء ستر وحجاب**

أطهر : أى أسلم وأتقى . أفعل تفضيل من الطهارة بمعنى النزاهة والنقاء .

والمعنى : سؤالكم للسؤال من وراء حجاب ، أكثر نقاء وتنزيها لقلوبكم وقلوبهن من الهواجس والخواطر ، التى تتولد فيها عند اختلاط الرجال بالنساء ، وأبعد عن الريبة وسوء الظن .

أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يتأدبوا بالآداب الاسلامية الكريمة ، ويتمسكوا بما شرعه لهم من التوجيهات والارشادات الحكيمة ، التى بها صلاح دينهم ودنياهم ، وبخاصة مع النبى ﷺ ، فمقام النبوة لايعادله مقام ، وإيذاء النبى ﷺ - سواء كان بالقول أو الفعل - من أعظم الكبائر عند الله ، وقد ألزمنا الله سبحانه بتلك الآداب الفاضلة ، وأمرنا بالتمسك بها حتى يتحقق المجتمع الفاضل الذى ينشده الاسلام . وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أمرين هامين .

الأول : الأدب فى أمر الطعام والاستئذان ودخول البيوت (أدب الوليمه)

الثانى : الأدب فى مخاطبة النساء ، وعدم الاختلاط بهن أو الخلوة .

أدب (الحجاب الشرعى)

يقول الله جل ثناؤه مامعناه : ياأيها المؤمنون لاتدخلوا بيوت النبى إلا بعد الاذن ولا تترقبوا أوقات الطعام فتدخلوا عليه فيها ، أو تنتظروا إلى أن يحين وقت نضج الطعام فتستأذنوا عليه فى الدخول ، إلا إذا كنتم مدعوين إلى وليمة قد أعدها لكم رسول الله (ﷺ) . ومع ذلك إذا دعيتم وطعمتم فاخرجوا وتفرقوا ولا تثقلوا على الرسول الكريم بالجلوس بعد الطعام ، فإن حياءه يمنعه أن يأمركم بالانصراف . أو يظهر لكم الامتعاض من جلوسكم فى بيته ، فهو ذو الخلق الرفيع ، والقلب الرحيم ، لايصدر منه إلا مايسركم . فلا يليق بكم أن تثقلوا عليه ، أو تؤذوه فى نفسه أو أهله ، وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات ، فاسألوهن من وراء حاجز وحجاب ، لأن ذلكم أزكى لقلوبكم وقلوبهن ، وأنفى للريبة ، وأبعد عن التهمة وأطهر لبيت النبوة .

ولا يليق بكم أيها المؤمنون أن تؤذوا رسولكم ، الذى هداكم الله به وأخرجكم من الظلمات إلى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ الحديد آية ٢٠

(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١٠٩٠ برقم ٦٤/ ١٤٦٧

(٣) سورة فصلت آية ٥

النور ، فهو كالوالد لكم ، وأزواجه كالأمهات لكم ، وهل يصح لمؤمن أن يتزوج أمه ؟ فلا تؤذوه فى حياته ولا بعد مماته ، ولا تتزوجوا بأزواجه من بعده أبدا ، فإن إيذاء الرسول ، ونكاح أزواجه من بعد وفاته ، ذنب عظيم عند الله لايغفره الله لكم أبدا ، وهو عند الله بالغ الذنب والعقوبة .

سبب النزول

تعرضت الآية الكريمة لأمرين هامين هما : (آداب الدعوة) و (مشروعية الحجاب) ولكل منهما سبب نزول .

أما الأول : فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله فصنعت (أم سليم) أمى حيسا فجعلته فى تور وقالت ياأنس : اذهب إلى رسول الله ﷺ فقل بعثت به إليك أمى ، وهى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا منا قليل يارسول الله !!!

قال : فذهبت به إلى رسول الله ﷺ وقلت له : إن أمى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا لك منا قليل يارسول الله . فقال : ضعه ثم قال : إذهب فادع لى فلانا وفلانا ، ومن لقيت وسمى رجالا ، فدعوت من سمى ومن لقيت ، قيل لأنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة .

قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ ياأنس هات التور ، قال فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة فقال رسول الله (ﷺ) ليتحلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه . فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم .

فقال لى : ياأنس : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ؟ وجلس منهم طوائف يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ وهو جالس وزوجه مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ فخرج فسلم على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب وخرجوا كلهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل وأنا جالس فى الحجرة فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج على وأنزل الله هذه الآية ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى** ﴾ فخرج رسول الله ﷺ فقرأها على الناس .[1] .

ثانيا : وأما بالنسبة لمشروعية الحجاب فقد كان سبب النزول ماروى فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ الآية . وهذه إحدى الموافقات الثلاثة التى نزل القرآن الكريم فيها موافقا لرأى عمر رضى الله عنه .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (وافقت ربى فى ثلاث :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، برقم ٩٠٥ والامام مسلم ج ٢ ص ١٠٥١ برقم ٩٤/ ١٤٢٨

قلت يارسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزل :
﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[1] . وفى الحجاب : فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبى (ﷺ) فى الغيرة فقلت : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن)[2] فنزلت كذلك .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ بيوت النبى ﴾ إضافة البيوت إلى النبى (ﷺ) إضافة تشريف ، مثل (ناقة الله) و (بيت الله) الاضافة فيها للتكريم والتشريف فلبيوت النبى (ﷺ) من الحرمة ماليس لغيرها من البيوت ، وهذه الأحكام المذكورة هنا خاصة ببيوت النبى (ﷺ) تكريما له عليه السلام وتشريفا .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام ﴾ فى الكلام باء محذوفة تسمى (باء المصاحبة) أى إلا بأن يؤذن لكم ، وتضمين (الاذن) معنى (الدعوة) للاشعار بأنه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن وجد صريح الاذن بالدخول ، حتى لايكون الانسان (طفيليا) يحضر الوليمة بدون سابق دعوة .

ومما يدل على هذا التضمين قوله تعالى بعدها : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ فإنها صريحة فى أن المراد بالاذن (الدعوة) فتنبه لهذا السر فإنه دقيق .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾

قال الامام الرازى : (فيه لطيفة وهى أن فى العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن : لاتدخلها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لايدخلها أصلا ولا بالدعاء ، فقال : لاتفعلوا مثل مايفعله المستنكفون ، بل كونوا طائعين سامعين ، إذا قيل لكم : لاتدخلوا فلا تدخلوا ،وإذا قيل لكم : ادخلوا فادخلوا ، وهذا معنى لطيف .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ولامستأنسين لحديث ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الاطلاق . فالأمر أمر وليمة وقد انتهت .

ولم يبق إلا أن يفرغ أهل البيت لبعض شأنهم . والبقاء بعد ذلك فيه نوع من الاثقال غير محمود .

قال بعض العلماء : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، وقرأها بعضهم فقال :
(هذا أدب من الله تعالى أدب به الثقلاء) ويروى عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما : (حسبك فى الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم)

وأنشد بعض الفضلاء :

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥
(٢) التحريم آية ٥

وثقيـل أشـد من ثقول الموت   ومن شدة العذاب الأليم
لو عصت ربها الجحيم لما كان   سـواه عقـوبة للجحيـم

وقال آخر :

ربما يثقـل الجليـس ولو كـان   خفيفـا فى كفـة الميـزان
ولقد قلت حين وتد فى البيت   ثقيـل أربى على سهـلان
كيـف لم تحمـل الأمـانة أرض   حمـلت فوقها أبا سفيـان

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ **فيستحيى منكم ، والله لايستحى من الحق** ﴾ الاستحياء لايكون من الذات ، وإنما يكون من الأفعال ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **والله لايستحى من الحق** ﴾ ولم يقل : والله لايستحى منكم والكلام فيه حذف تقديره : فيستحى من إخراجكم أو من أمركم بالانصراف والله لايستحى من بيان الحق ، وأطلق استحياء الله وأراد منه عدم السكوت عن بيانه ، فسمى السكوت عليه استحياء على (طريق المشاكلة) لوقوعه بجانب استحياء الرسول على حد قول القائل :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ **ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾ فيه إشارة دقيقة إلى مابين العين والقلب من صلة وثيقة ، فالعين طريق الهوى والنظرة بريد الشهوة ، فإذا لم تر العين لايشتهى القلب ، وكما قال بعض الأدباء :

وما الحب إلا نظرة إثر نظرة   تزيد نموا إن تزده لجاجا .

فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر .

اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ **إن ذلكم كان عند الله عظيما** ﴾ الاشارة فى قوله (ذلكم) يعود إلى ماذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ، ونكاح أزواجه من بعده ، وقد جاء التعبير بلفظ (ذلكم) ولم يأت بلفظ (هذا) للتهويل والتعظيم .

قال أبو السعود :

وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشر والفساد ، وقوله : ﴿ **كان عند الله عظيما** ﴾ أى أمرا عظيما . وخطبا هائلا ، لايقادر قدره ، وفيه من تعظيمه تعالى بشأن رسوله ﷺ ، وايجاب حرمته حيا وميتا مالا يخفى ، ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز تناول الطعام بدون دعوة ؟ اتفق الفقهاء على أنه لايجوز دخول البيوت إلا بإذن ، ولا يجوز تناول طعام الانسان إلا بإذن صريح أو ضمنى ، لقول عليه السلام : (لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس)[1]

وقد دلت الآية الكريمة على حرمة دخول بيوت النبى ﷺ إلا بعد الاذن ، وعلى حرمة التطفل ، وهو أن يحضر إلى الوليمة بدون دعوة وفاعله يسمى بـ (الطفيلى) والحكم عام فى جميع البيوت ، فلا يجوز للانسان أن يدخل بيت أحد بدون إذنه ، ولا أن يتناول الطعام بدون رضا صاحبه .

وهذا أدب رفيع من الآداب الاجتماعية ، التى أرشد اليها الاسلام .

قال ابن عباس : كان ناس يتحينون طعامه عليه الصلاة والسلام ، فيدخلون عليه قبل الطعام ، وينتظرون الى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، فكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم ، فنزلت هذه الآية .

وقال ابن كثير رحمه الله :

حظر الله تعالى على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الاسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى لهذه الأمة ومعنى الآية : أى لاترقبوا الطعام إذا طبخ ، حتى اذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه ثم قال : وهذا دليل على تحريم التطفل وهو الذى تسميه العرب (الضيفن) .

الحكم الثانى : هل الجلوس بعد تناول طعام الوليمة حرام ؟

دل قوله تعالى : **﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾** على ضرورة الخروج بعد تناول الطعام ، وهذا من الآداب الاسلامية التى أدب الله بها المؤمنين .

فالمكث والجلوس بعد تناول الطعام ، ليس بحرام ولكنه مخالف لآداب الاسلام ، لما فيه من الاثقال على أهل المنزل ، سيما إذا كانت الدار ليس فيها سوى بيت واحد ، اللهم إلا اذا كان الجلوس بإذن صاحب الدار أو أمره ، أو كان جلوسا يسيرا تعارفه الناس ، لايصل إلى حد الأثقال المذموم

ومع ذلك فالأفضل الخروج ، ولهذا جاء التعبير بالفاء ، التى تفيد الترتيب والتعقيب (فانتشروا)

فالمكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الاطلاق ، ولم يبق إلا أن يفرغ أهل البيت لبعض شأنهم ، والبقاء بعد ذلك نوع من الأثقال غير محمود ، ، يتنافى مع الأدب الرفيع ، والذوق السليم .

الحكم الثالث : هل الأمر بالحجاب خاص بأزواج النبى أو هو عام ؟

الآيات الكريمة وردت فى شأت بيوت النبى ﷺ خاصة ، تعظيما لرسول الله وتكريما لشأنه ، ولكن الأحكام التى فيها عامة ، تعم جميع المؤمنين ، لأنها آداب اجتماعية ، وإرشادات إلهية ، يستوى

---

(١) أخرجه الامام أحمد ج ٥ ص ٧٢

فيها جميع الناس ، فالأمر بعدم الاختلاط بالنساء وبسؤالهن من وراء حجاب ، ليس مقصورا على أزواج الرسول ﷺ ولكنه عام يشمل جميع نساء المؤمنين ، فإذا كان نساء الرسول ﷺ لايجوز الاختلاط بهن ، ولا النظر إليهن ، مع أنهن ﴿ أمهات المؤمنين ﴾ يحرم الزواج بهن ، ولا يجوز سؤالهن الا من وراء حجاب ، فلا شك أن الاختلاط بغيرهن من النساء ، أو التحدث إليهن بدون حجاب ، يكون حراما من باب أولى ، لأن الفتنة بالنساء متحققة .

ثم أن أمر الحجاب ليس خاصا بأزواج الرسول ﷺ ، بل هو عام لجميع نساء المؤمنين ، بدليل قوله تعالى فى آخر السورة : ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾

فهل خرجت مؤمنة من هذا الخطاب ؟ وهل أمر الحجاب خاص بنساء الرسول حتى يزعم بعض المضلين ، أن الحجاب مفروض على نساء الرسول ﷺ خاصة دون سائر النساء ؟

الحكم الرابع : هل الطعام المقدم للضيف على وجه التمليك أو الاباحة ؟

أشارت الآية الكريمة وهى قوله تعالى : ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾ الى أن الطعام الذى يقدم للضيف ، لايكون على وجه التمليك ، وإنما هو على وجه الاباحة ، فلو أراد الضيف ان يحمل معه الطعام الى بيته ، لايجوز له ذلك ، لأن المضيف إنما أباح له الأكل فقط ، دون التمليك له أو أخذه أو إعطائه لأحد .

قال العلامة القرطبى : (فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ، لأنه تعالى قال : ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقى الملك على أصلة

الحكم الخامس : هل زال النكاح عن أمهات المؤمنين بموت النبى ﷺ ؟

قال القرطبى : فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن : اختلف العلماء فى أزواج النبى ﷺ بعد موته ، هل بقين أزواجا أو زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت ، فهل عليهن عدة أو لا ؟

فقيل : عليهن العدة ، لأنه توفى عنهن والعدة عبادة .

وقيل : لاعدة عليهن ، لأنها مدة تربص لاينتظر بها الأباحة .

والقول الثانى هو الصحيح لقوله عليه السلام (ماتركت بعد نفقة عيالى) وروى (أهلى)[1] وهذا اسم خاص بالزوجية فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن ، لكونهن نساءه وحرمن على غيره ، وهذا هو معنى بقاء النكاح ، وإنما جعل الموت فى حقه عليه السلام بمنزلة المغيب فى حق غيره ، لكونهن أزواجا له فى الآخرة قطعا ، بخلاف سائر الناس ، لأن الرجل لايعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ، فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ، فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق ، وبقى فى حق النبى ﷺ ، وقد قال عليه السلام : (كل سبب ونسب ينقطع الاسببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة)[2]

---

(١) القرطبى ج ٨ ص ١٧٨ ، ج ١٤ ص ٢٢٩

(٢) كنز العمال ج ١١ ص ٤٠٩ برقم ١٣٩١٤ .

فأما زوجاته عليه السلام اللاتى فارقهن فى حياته ، مثل الكلبية وغيرها .

فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ، لما روى أن الكلبية التى فارقها رسول الله ﷺ تزوجها (عكرمة بن ابى جهل)

وقيل إن الذى تزوجها (الاشعث بن ابى جهل)

قال القاضى أبو الطيب : الذى تزوجها (مهاجر بن ابى أمية) ولم ينكر ذلك أحد ، فدل على أنه إجماع .

ماترشد إليه الآيات الكريمة

(١) النهى عن دخول بيوت الرسول ﷺ بغير اذنه وبدون سابق دعوة .

(٢) لاينبغى الحضور قبل نضج الطعام ، ولا المكث بعد تناول الوليمة .

(٣) وجوب احترام الرسول ﷺ ، وتعظيمه ، وامتثال أوامره ، وتقديم طاعته . على كل شىء .

(٤) حرمة إيذاء الرسول ﷺ بالأقوال أو الأفعال ، والتأدب معه فى جميع الأقوال .

(٥) حرمة نكاح أمهات المؤمنين من بعد وفاته ، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ .

(٦) خلق الرسول الرفيع يمنعه من أمر الناس بالخروج من منزله ، فينبغى عدم الاثقال عليه .

(٧) نساء الرسول ﷺ ، هن القدوة والاسوة الحسنة لسائر النساء ، فينبغى مخاطبتهن من وراء حجاب .

(٨) فى عدم الاختلاط بالنساء ، صفاء النفس ، وسلامة القلب ، ونقاء السريرة ، والبعد عن مظان التهم .

(ج) الآداب التى أرشد إليها القرآن ، ينبغى التمسك بها وتطبيقها تطبيقا كاملا .

حكمة التشريع

حرم الله تعالى على المؤمنين دخول بيوت النبى ﷺ بدون إذن ، تكريما لرسول الله عليه السلام وتعظيما لشأنه ، ومنع الناس من الاثقال على رسول الله ﷺ ، سواء بالدخول الى بيوته دون سابق دعوة ، أو المكث فيه بعد تناول طعام الوليمة ، لأن فى ذلك إثقالا على الرسول الكريم ، وإيذاء له والتطفل ، والاثقال على أهل الدار ، ليس من أوصاف المؤمنين ، وقد كان رسول الله ﷺ شديد الحياء ، وكان كما فى حديث ابى سعيد الخدرى - رضى الله عنه .

(أشد حياء من العذراء فى خدرها)[1] ولم يكن من خلقه الكريم ، ان يجابه أحدا بما يكره ، مهما

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٦١١ برقم ١٤٩٩ من رواية أبى سعيد الخدرى ، زوائد البزار عن أنس ج ٣ ص ١٥٣

اصابه الأذى والضرر ، ولا من عادته أن يأمر الزائر بالانصراف ، مهما طال المكث والبقاء ، لأن هذا لايتفق مع خلق الداعية ، فكيف بخلق النبوة وأوصاف سيد المرسلين **﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾**[١] .

وكان بعض الناس ممن لم تتهذب أخلاقهم بعد ، يتحينون طعام النبى ﷺ ، فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن ينضج ، ثم يأكلون ، ولا يخرجون ، فكان الناس بحاجة إلى ان يتعلموا الآداب الرفيعة ، وأن يكون عندهم (ذوق اجتماعى) وشعور رقيق ، يمنعهم عن ارتكاب النقائص ، وفعل مايخل بالمروءة .

لذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات الكريمة تعليما للأمة ، وإرشادا لها الى سلوك الطريق القويم ، وقد قال اسماعيل بن ابى حكيم : (هذا أدب أدب الله به الثقلاء)

وقال آخر : هذه الآية نزلت فى الثقلاء وحسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

ولقد كان هناك من بعض المنافقين إيذاء لرسول الله ﷺ بالفعل أو القول ، حتى قال رجل من المنافقين حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد وفاة زوجها أبى سلمة : مابال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قدمات ، لأجلنا السهام على نسائه يريد اقتسمناهن بالقرعة ، فنزلت الآية فى هذا ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات تطييبا لخاطره الشريف ، وهذا من خصائصه عليه السلام تمييزا ، لشرفه ، وتنبيها على مرتبته ، وما كان لمؤمن أن يؤذيه فى نفسه ، أو أهله ، لأنه عليه الصلاة والسلام أب للمؤمنين ، وهل يليق بالانسان أن يتزوج امرأة أبيه ، وهى أمه بنص القرآن الكريم وصدق الله .

﴿ وماكان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما ﴾

قوله تعالى : **﴿ ان تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما ﴾**

هذه مبالغة فى الوعيد والتهديد . أى أن ماتكنه ضمائركم ، وتنطوى عليه سرائركم ، فالله يعلمه ، إذ لاتخفى عليه خافية ، **﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾**[٢]

ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام ، وان كان عاما بظاهره ، فالمقصود مايتعلق بزوجاته عليه الصلاة والسلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب ، قال رجل : أننهى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجن نساءه .

وأخرج جويبر عن ابن عباس (ان رجلا أتى بعض أزواج النبى فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبى ﷺ : لاتقومن هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يارسول الله إنها ابنة عمى ، والله ماقلت منكرا ، ولا قالت لى قال النبى ﷺ :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة غافر آية ١٩

قد عرفت ذلك : أنه ليس أحد أغير من الله تعالى - وانه ليس أحد أغير منى فمضى ثم قال : مايمنعنى من كلام ابنة عمى لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية فأعتق الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله وحج ماشيا لأجل كلمته)

وروى ان بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد ابى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : مابال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ان نساء النبى لا يكلمن إلا من وراء حجاب ، أردف ذلك استثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما فى الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى انه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت .

التفسير

لا إثم على أزواج النبى ﷺ فى ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع ، أو أبنائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن ، أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدى ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد ، لما فى الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

وأخشين الله فى السر والعلن ، فإنه شهيد على كل شىء ، لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة أن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم فاتقوه فيما تأتون وما تذرون .

الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

معانى المفردات

يصلون : الصلاة فى اللغة معناها : الدعاء والاستغفار ، ومنه قوله تعالى : ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾[١] . أى ادع لهم بالمغفرة والرحمة ، قال الأعشى :

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى *** نوما ، فإن لجنب المرء مضطجعا

أى لك من الدعاء مثل ما دعوت لى به .

وسميت الصلاة المفروضة صلاة ، لما فيها من الدعاء والاستغفار ، وتأتى الصلاة بمعنى الرحمة ، ومنه قوله (ﷺ) : (اللهم صل على آل أبى أوفى)[٢] .

قال الأزهرى : هى بمعنى الرحمة . أى ارحم آل أبى أوفى ، وقال الشاعر :

صلى على عزة الرحمن وابنتها *** ليلى وصلى على جارتها الأخر

قال ابن عباس : (أراد أن الله تعالى يرحمه ، والملائكة يدعون له ويبركون وقال أبو العالية : « صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاتهم دعاؤهم له) .

النبى : قال الجوهرى : والنبى المخبر عن الله عز وجل ، لأنه أنبأ عنه وجمعه أنبياء ، وفى النهاية : يجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه .

قال سيبويه : ليس أحد من العرب إلا ويقول : تنبأ مسيلمة بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز فى النبى ، كما تركوه فى الذرية والبرية ، إلا أهل مكة ، فإنهم يهمزون هذه الأحرف ، ثم قال : والهمز فى (النبى) لغة رديئة ، وإشتقاقه من نبأ وأنبأ أى أخبر .

وجمع النبىء : انبئاء ونبآء .

قال ابن مرادس :

ياخاتم النبآء إنك مرسل *** بالخير كل هدى السبيل هداكا

إن الإله أثنى عليك محبة *** فى خلقه ومحمدا أسماكا

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٢) أخرجه الامام مسلم ج٢ ص٢٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ كتاب الزكاة والامام أحمد ح٤ ص٣٥٣ .

أقول : كل ماورد فى القرآن من خطاب للنبى أو الرسول ، فإنما يقصد به محمد عليه الصلاة والسلام ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين يؤذون الله : إيذاء الله : وصفه بمالا يليق به جل وعلا كقول اليهود : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾[1] . ، و﴿ **عزير ابن الله** ﴾[2] ، وقول النصارى : ﴿ **المسيح ابن الله** ﴾[3] . ﴿ **إن الله ثالث ثلاثة** ﴾[4] . وقول كفار قريش : **الملائكة بنات الله** ، وسائر مالا يرضى الله عز وجل من الكفر والعصيان .

وإيذاء الرسول كقولهم عنه : مجنون ، شاعر ، ساحر ، كذاب ، أو إلحاق الأذى به ، كشج وجهه الشريف ، وكسر رباعيته فى أحد ، وأمثال ذلك من الأذى الحسى أو المعنوى ، الذى كان يلحقه به المنافقون والكفار . لعنهم الله : اللعن : الطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾[5] .

بهتانا : البهتان : الإفتراء والكذب الواضح ، وهو من البهت بمعنى التحير . قال فى اللسان : بهت الرجل يبهته بهتانا . وباهته استقبله بأمر يقذفه به وهو منه برىء . والبهتان : الباطل الذى يتحير من بطلانه . مبينا : بينا ظاهرا لأنه واضح الكذب والبهتان : تقول : بان الشىء ، وبان الأمر ، وبان الحق ، اذا ظهر جليا واتضح ، قال الشاعر :

فبان للعقل ان العلم سيده   فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

وتسمى البينة بينة ، لأنها تكشف الحق وتظهره .

المعنى الإجمالى

يخبر المولى جل وعلا بما ناله الرسول الكريم ، من جاه عظيم ، ومنزلة سامية ، ومكانة رفيعة عند الله تعالى ، وماله من السيادة والمقام المحمود فى الملأ الأعلى ، وما خصه الله تعالى به من الثناء العاطر ، والذكر الحسن ، فيقول الله تعالى ما معناه : إن الله تعالى يرحم نبيه ، ويعظم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكته الأبرار ، وجنده الأطهار ، يدعون للنبى عليه السلام ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يبارك ويمجد عبده ونبيه محمدا (ﷺ) وينيله أعلى المراتب ، ويظهر دينه على جميع الأديان ، ويجزل له الأجر والثواب ، على ما قدم لأمته من خير عميم ، وفضل جسيم ، فيأيها المؤمنون : صلوا أنتم عليه ، وعظموا أمره ، واتبعوا شرفه ، وأكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، ومهما فعلتم فلن تؤدوه حقه ، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، وبه أخرجكم الله من الظلمات إلى النور .

---

(١) سورة المائدة آية ٦٤

(٢) ، (٣) سورة التوبة آية ٣٠

(٤) سورة المائدة آية ٧٣

(٥) سورة الأحزاب آية ٦١

﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾[1] . فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف : اللهم صل على محمد وسلم تسليما كثيرا ، وادعوا الله أن يجزيه عنكم خير الجزاء ، ثم أخبر تعالى أن الذين يؤذون الله ورسوله قد استحقوا غضب الله ولعنته ، عليهم فى دنياهم وآخرتهم ، وأن الله أعد لهم عذابا شديدا لا يدرك كنهه ولا يعرف هوله ، وكذلك الذين آذوا المؤمنين والمؤمنات ، فنسبوا إليهم مالم يفعلوه ، واتهموهم بالكذب والزور والبهتان ، وتقولوا على ألسنتهم ، مالم يقولوه ، هؤلاء الذين فعلوا ذلك لهم أيضا عذاب أليم فى الدنيا والآخرة جزاء ما اقترفوا من سىء الأعمال .

وجه الارتباط بالآيات الكريمة السابقة

فى الآيات الكريمة السابقة ، كان الحديث عن حرمة دخول بيوت النبى ، وعن حرمة نكاح أزواجه الطاهرات ، وقد بين تعالى فيها أن شأن المؤمنين ألا تكون منهم أذية للرسول عليه الصلاة والسلام ، لما له عليهم من حق عظيم ، وفى هذا تكريم وإرشاد إلى تكريمه (ﷺ) وحياطة لمقامه الشريف ، وهنا بين تعالى أن الله يكرم نبيه ، ويرحمه ويعلى شأنه ، وملائكته كذلك ، فكيف لا يكرمه المؤمنون ، مع أن الله يصلى عليه ؟ وهو لا يستحق إلا كل تكريم وتمجيد ، فكأنه قيل لهم : لا ينبغى لكم أن تؤذوه ، فإن الله يصلى عليه وملائكته ، فهذا وجه الارتباط ، والله تعالى أعلم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون ﴾ .

ورد ذكر الثناء على الرسول (ﷺ) بهذه الصيغة ، فجاء الخبر مؤكدا بـ (إن) اهتماما به ، وجىء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وكانت الجملة إسمية فى صدرها ، ﴿ إن الله ﴾ فعلية فى عجزها ﴿ يصلون ﴾ للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى ، والتمجيد الدائم يتجدد وقتا فوقتا على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .

اللطيفة الثانية : قد يقول قائل : اذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا عليه .

نقول : الصلاة عليه ليس لحاجة إليها ، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه عليه السلام ليثيبنا الله تعالى عليه ،

ولهذا قال عليه السلام : (من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرا)[2] . فصلوات ربى وسلامه عليه .

اللطيفة الثالثة : قال الإمام الفخر : الصلاة الدعاء ، يقال فى اللغة صلى عليه : أى دعا له ،

---

(١) سورة الحديد آية ٩

(٢) أخرجه النسائى ج٣ ص٤٣

اتحاف السادة المتقين ج٣ ص٢٨٨ الدارمى ٣١٧/٢

وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى ، فإنه لا يدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث ، والجواب : أن اللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا ، وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز ، وهذا مذهب الشافعى رحمه الله ، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار ، وهما يشتركان فى العناية بحال المرحوم ، والمستغفر له . والمراد هو القدر المشترك .

اللطيفة الرابعة : أمرنا الله بالصلاة على نبيه المصطفى (ﷺ) وكان يكفى أن نقول صلينا عليه ، أو يقول الإنسان : أصلى عليه ، فلماذا نقول عند الصلاة عليه : اللهم صل على محمد ؟

والجواب : أن الله لما أمرنا بالصلاة عليه ، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك ، أحلناه على الله تعالى ، وقلنا : اللهم صل أنت على محمد ، لأنك أعلم بما يليق به ، فنحن عاجزون عن توفيته حقه ، وقاصرون عن معرفة الثناء الذى يليق بقدره ، وقد أوكلنا القدر إليك فتدبر سر هذه الجملة : (اللهم صل على محمد) فإنه نفيس ودقيق .

اللطيفة الخامسة : قال بعض العلماء : معنى قولنا : اللهم صل على محمد أى عظِّمه فى الدنيا بإعلاء ذكره ، وإظهار دعوته ، وإبقاء شريعته ، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته ، وتضعيف أجره ومثوبته ، وإعطائه المقام المحمود .

فضائل الصلاة على النبى (ﷺ)

١ ـ عن أبى طلحة رضى الله عنه أن النبى ﷺ : (جاء ذات يوم والسرور يرى فى وجهه ، فقلنا : إنا لنرى السرور فى وجهك !! فقال : إنه أتانى الملك فقال يامحمد : إن ربك يقول : أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا)[١] .

٢ ـ وقال (ﷺ) : (إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة)[٢] .

٣ ـ وقال ﷺ : (البخيل الذى من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ)[٣] . اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك وبركاتك . على سيد المرسلين ، وإمام المتقين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، إنك سميع مجيب الدعاء .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هى صيغة الصلاة والتسليم على النبى عليه السلام ؟

صيغة الصلاة على النبى (ﷺ) وردت فيها طرق كثيرة من السنة النبوية المطهرة ، وقد ذكرت فيها صور مختلفة عن كيفية الصلاة عليه من المؤمنين ، واختلافها يشعر بأن الغرض ليس تحديد (كيفية

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣٣ ط النهضة الحديثة .
(٢) أخرجه الترمذى ج١ ص٣٠٢ برقم ٤٨٢ ، اتحاف السادة المتقين ج٥ ص٤٨
(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣٤ ط النهضة الحديثة .
الترمذى ج٥ ص٢١١ برقم ٣٦١٤ أبواب الدعوات احمد ج١ ص٢٠١ .

خاصة) وإنما هى ألوان من التعظيم والثناء له عليه السلام ، وسنقتصر على بعض ما صح من هذه الكيفيات ، لأن استيعابها يطول ، فنقول ومن الله نستمد العون .

أولا : روى الشيخان عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله : أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ . قال : قل : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد)[1] .

ثانيا : وروى مالك وأحمد والشيخان عن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه أنهم قالوا يارسول الله : كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[2] .

ثالثا : وأخرج الجماعة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قلنا : يارسول الله : هذا السلام عليك قد علمناه فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : (اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم ، فى العالمين ، إنك حميد مجيد)[3] .

رابعا : وروى مسلم والترمذى والنسائى عن أبى مسعود البدرى أنه قال : أتانا النبى (ﷺ) ونحن فى مجلس (سعد بن عبادة) فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يارسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال قولوا : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم) .

وفى بعض رواياته : (اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آل محمد)[4] .

وأما التسليم فصيغته معروفة وهى أن يقول المؤمنون : السلام عليك يارسول الله .

وفى التشهد يقول المصلى : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ومعنى التسليم : الدعاء بالسلامة من جميع البلاى والآفات والأسقام ، وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم : الانقياد وعدم المخالفة أى سلموا لما يأمركم به والله أعلم .

الحكم الثانى : ما معنى صلاة الله والملائكة على النبى عليه السلام ؟

تقدم معنا أن الصلاة فى اللغة تأتى بمعنى (الدعاء) وتأتى بمعنى (الرحمة) وتأتى بمعنى التمجيد والثناء ، ومن الأخير قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾[5] .

(١) أخرجه البخارى ج٨ ص٩٥ كتاب الدعوات/ ومسلم ج١ ص٣٠٥ برقم ٦٦/٤٠٦ والنسائى ج٣ ص٤٠ وابو داود ج١ ص٦٠٠ رقم ٩٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى ج٤ ص١٧٨/ ومسلم ج١ ص٣٠٦ برقم ٦٩/٤٠٧ كتاب الصلاة وأحمد ج٥ ص٤٢٤/ وأبو داود ج١ ص٦٠٠ برقم ٩٧٩ .

(٣) أخرجه البخارى ج٦ ص١٥١ تفسير سورة الأحزاب . والنسائى ج٣ ص١٧٨ واحمد ج٣ ص٤٧ .

(٤) أخرجه النسائى ح٣ ص٣٨ ، ص٣٩

(٥) سورة البقرة آية ١٥٧ .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصلاة من الله تعالى على نبيه معناها تمجيده والثناء عليه وإلى هذا ذهب البخارى وطائفة من العلماء وهو الأظهر .

وقال آخرون : المراد بالصلاة على النبى رحمته ومغفرته وإلى هذا ذهب الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، وقيل : المراد بها البركة والكرامة . وأما صلاة الملائكة فمعناها : الدعاء له عليه السلام والاستغفار لأمته ، وعلى جميع الأقوال فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة .

ولما جاء اللفظ مجموعا مضافا إلى واو الجماعة (إن الله وملائكته يصلون على النبى) وكانت الصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة ، لذلك فقد اختلف المفسرون فى تأويل الآية على أقوال :

أ - فذهب بعضهم إلى أن فى الآية حذفا دل عليه السياق ، تقديره : إن الله يصلى على النبى ، وملائكته يصلون على النبى ، فتكون واو الجماعة راجعة إلى الملائكة خاصة ، ويؤيد هذا قراءة الرفع (وملائكته) وليس اللفظ مشتركا بين الله تعالى والملائكة .

ب - وذهب بعضهم إلى أنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو اختيار الفخر الرازى ومذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، فعنده يجوز استعمال اللفظ المشترك فى معنييه معا ، كما يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فيكون لفظ (يصلون) عائدا إلى الله وإلى الملائكة بالمعنيين معا ويصبح معنى الآية) ﴿ إن الله تعالى يرحم نبيه وملائكته يدعون له ﴾ .

ج - وذهب جماعة إلى القول بأنه من باب (عموم المجاز) لا من باب (الجمع بين الحقيقة والمجاز) فيقدرون معنى مجازيا عاما ، ينتظم أفرادا كثيرة يشملها هذا اللفظ ، وهذا المعنى العام هو مثلا (العناية بشأن النبى) (ﷺ) فالاعتناء يكون من الله تعالى على وجه ويكون من الملائكة على وجه آخر ، وهذا اختيار أبى السعود وأبى حيان والزمخشرى ، وغيرهم من مشاهير المفسرين .

قال أبو السعود : قوله تعالى : ﴿ يصلون على النبى ﴾ قيل : الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، وقال ابن عباس : أراد أن الله يرحمه ، والملائكة يدعون له . . فينبغى أن يراد فى ﴿ يصلون ﴾ معنى مجازى عام ، يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له ، أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ، ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ، وذلك من الله سبحانه بالرحمة ، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار .

وقال أبو حيان فى البحر المحيط : (وصلاة الله غير صلاة الملائكة فكيف اشتركا ؟ والجواب : اشتركا فى قدر مشترك وهو إرادة وصول الخير إليهم ، فالله تعالى يريد برحمته إياهم وصول الخير إليهم ، والملائكة يريدون بالاستغفار ذلك)

الحكم الثالث : هل الصلاة على النبى (ﷺ) على سبيل الندب أو الفرض ؟ أمر الله سبحانه المؤمنين بالصلاة على نبيه الكريم ، وهذا الأمر للوجوب ، فتكون الصلاة على النبى (ﷺ) واجبة ، ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرة فى العمر ، لقد حكى (القرطبى) الإجماع على ذلك ، عملا بما يقتضيه الأمر (صلوا) من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام فى ذلك كالتلفظ بكلمة التوحيد ، حيث لا يصح إسلام الإنسان إلا بالنطق بها .

وقد اختلف العلماء فى حكم الصلاة على النبى (ﷺ) هل تجب فى كل مجلس ، وكلما ذكر اسمه

الشريف ﷺ ؟ أم هى مندوبة ؟ وذلك بعد اتفاقهم على أنها واجبة فى العمر مرة واحدة .

أ ـ فقال بعضهم : إنها واجبة كلما ذكر اسم النبى عليه السلام .

ب ـ وقال آخرون : تجب فى المجلس مرة واحدة ولو تكرر ذكره عليه السلام فى ذلك المجلس عدة مرات .

ج ـ وقال آخرون : يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد أو مجلس ، ولا يكفى أن تكون فى العمر مرة .

وحجة القائلين بالوجوب فى المجلس ، أو كلما ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن الله عز وجل أمر بها ، والأمر يفيد التكرار ، ثم ما ورد من الوعيد الشديد لمن لم يصل على رسول الله عليه السلام ، .

كقوله : (البخيل الذى من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ)[1] .

وقوله عليه السلام : (ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)[2] .

* معنى ترة : حسرة وندامة .

وقول جبريل للنبى عليه السلام : (بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين) .

فهذه تفيد الوجوب عندهم .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبى الله ، قربة وعبادة ، كالذكر والتسبيح والتحميد . وأنها واجبة فى العمر مرة ، ومندوبة ومسنونة فى كل وقت وحين ، وانه ينبغى الإكثار منها لما صح عنه (ﷺ) انه قال :

(من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا)[3] . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة فى فضل الصلاة على النبى عليه السلام . فهى مطلوبة ولكن لاعلى سبيل (الوجوب) بل على سبيل (الندب) والاستحباب .

قال العلامة أبو السعود : (والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه : معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام ، أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع . وما ذهب اليه الجمهور هو الأصح والأرجح والله أعلم .

الحكم الرابع : هل تجب الصلاة على النبى عليه السلام فى الصلاة ؟

اختلف الفقهاء فى حكم الصلاة على النبى (ﷺ) فى الصلاة على مذهبين :

أ ـ مذهب الشافعى وأحمد : أنها واجبة فى الصلاة ولا تصح الصلاة بدونها .

ب ـ مذهب مالك وأبى حنيفة : أنها سنة مؤكدة فى الصلاة ، وتصح الصلاة بدونها مع الكراهة والإساءة .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣٤

(٢) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات ج٥ ص٢١١ برقم ٣٦١٤ وأحمد ج١ ص٢٠١ .

(٣) أخرجه النسائى ج٣ ص٤٣ اتحاف السادة المتقين ج٣ ص٢٨٨ احمد ج٣ ص٢٦١ .

ـ أدلة الشافعية والحنابلة :

استدل الشافعية والحنابلة على أن الصلاة على النبى (ﷺ) واجبة فى الصلاة بأدلة نوجزها فيما يلى :

أ ـ الأمر الوارد فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا صلوا عليه** ﴾ والأمر يقتضى الوجوب ، ولا وجوب فى غير التشهد ، فتكون الصلاة على النبى واجبة فى الصلاة .

ب ـ حديث كعب بن عجرة (قلنا يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ فقال : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)[١] . الحديث، قال ابن كثير رحمه الله : ذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله (ﷺ) فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته ، وهو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، وهو مذهب الإمام أحمد ، واليه ذهب ابن مسعود وجابر بن عبد الله .

ـ أدلة المالكية والأحناف :

واستدل المالكية والأحناف على مذهبهم ببضعة أدلة نوجزها فيما يلى :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا صلوا عليه** ﴾ قالوا : قد تضمنت هذه الآية الأمر بالصلاة على النبى (ﷺ) وظاهره يقتضى الوجوب ، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة فى صلاة أو غير صلاة ، فقد أدى فرضه ، وهو مثل كلمة التوحيد والتصديق بالنبى (ﷺ) متى فعله الإنسان مرة واحدة فى عمره ، فقد أدى فرضه ، والأمر يقتضى الوجوب لا التكرار .

ب ـ حديث ابن مسعود حين علمه ﷺ فقال : (اذا فعلت هذا ، أو قلت هذا ، فقد تمت صلاتك ، فإن شئت أن تقوم فقم ، ثم اختر من أطيب الكلام ما شئت) ولم يأمره بالصلاة على النبى عليه السلام .

ج ـ حديث معاوية السلمى وفيه أن النبى ﷺ قال : (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هى التسبيح والتهليل وقراءة القرآن)[٢] . ولم يذكر الصلاة على النبى ﷺ .

د ـ ماروى عن كثير من الصحابة أنهم كانوا يكتفون بالتشهد فيالصلاة وهو : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) ولا يوجبون الصلوات الإبراهيمية .

قال أبو بكر **الرازى** : (زعم الشافعى أن الصلاة على النبى (ﷺ) فرض فى الصلاة ، وهذا قول لم يسبقه اليه أحد من أهل العلم ـ فيما نعلمه ـ وهو خلاف الآثار الواردة عن النبى (ﷺ) لفرضها فى الصلاة) .

الحكم الخامس : هل **تجوز الصلاة** على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ يرى بعض العلماء أن الصلاة تجوز على غير **الأنبياء ، لأن** الصلاة معناها الدعاء ، والدعاء يجوز للأنبياء ولغير الأنبياء .

---

(١) أخرجه : البخارى ج٤ ص١٧٨ الترمذى ج١ ص٣٨١ **برقم** ٤٨٢

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ج١ ص٣٨١ ، ٣٨٢ برقم ٥٣٧/٣٣

واستدلوا بما ورد عنه ﷺ من قوله : (اللهم صل على آل أبي أوفى)[١] .

وذهب الأكثرون إلى أن الصلاة (شعار) وهى خاصة بالأنبياء ، فلا تجوز لغيرهم فلا يصح أن تقوف : اللهم صل على الشافعى مثلا أو على أبى حنيفة ، وإنما تترحم عليهما ، ويجوز الترضى عن الصحابة والتابعين ولا تجوز الصلاة عليهم لأنها شعار الأنبياء والمرسلين .

قال العلامة أبو السعود : (وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا ، وتكره استقلالا . لأنه فى العرف شعار ذكر الرسل . ولذلك لا يجوز أن يقال : (محمد عز وجل) مع كونه ﷺ عزيزا جليلا .

والمراد بقوله أن تقول مثلا : اللهم صل على محمد وآله وذريته وأتباعه المؤمنين فلا يصح أن تقول : اللهم صلى على ذرية محمد ، ولا اللهم صل على أزواج محمد ، وإنما اذا صليت على الرسول يجوز لك أن تضيف تبعا من شئت من عباد الله الصالحين . والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

(١) منصب النبوة منصب عظيم ، ومكانة الرسول مكانة عظيمة عند الله تعالى .
(٢) ثناء الله عز وجل على نبيه الكريم وثناء الملائكة الأطهار مظهر من مظاهر رفعة الرسالة .
(٣) احترام الرسول وتعظيم أمره واجب على المؤمنين ، لأنه من تعظيم أمر الله وطاعته جل وعلا .
(٤) الصلاة على الرسول ﷺ ينبغى أن تكون بالصيغة الشرعية : (اللهم صل على محمد) إلخ .
(٥) يندب للمسلم أن يصلى على الرسول (ﷺ) كلما ذكر اسمه الشريف ﷺ امتثالا للأمر الإلهى .
(٦) إيذاء الرسول ﷺ إيذاء لله تعالى ، وهو سبب لسخط الله وغضبه .
(٧) إيذاء المؤمنين واتهامهم بما ليس فيهم من الكبائر التى ينبغى أن يبتعد عنها المسلم .

خاتمة البحث :

مجد الله رسوله (ﷺ) وأثنى عليه الثناء العاطر ، ورفع مكانته على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأحله المحل الرفيع الذى يليق بمنزلته السامية ، ومرتبته العالية ، وأمر المؤمنين بالتأدب مع الرسول الكريم ، وبتعظيم أمره ، وتمجيد شأنه ، وصلى عليه فى الملأ الأعلى مع الملائكة الأطهار ، وكل ذلك ليعلم المؤمنين مكانة هذا النبى العظيم ، ليجلوه ويحترموه ، ويطيعوا أمره ، لأنه سبب سعادتهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة **﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾**[٢] .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالصلاة على الرسول الكريم ، وجعل ذلك فرضا لازما لا يتم إيمان بدونه ، وحرم إيذاءه بالقول أو بالفعل ، ونهى عن كل ما يمس مقامه الشريف من إساءة أو

---

(١) أخرجه مسلم ج٢ ص٧٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ . والامام احمد ج٤ ص٣٥٣ .

(٢) سورة الفتح آية ٩

عدوان ، وجعل ذلك إيذاء له تعالى ، لأن فى تكذيبه ﷺ تكذيبا لله تعالى ، وفى الاستهزاء بدعوته ، استهزاء بالله تعالى ، لأنه رسول رب العالمين ، فيجب أن يطاع فى كل أمر ، وأن يحترم قوله ، لأنه مبلغ من عند الله وصدق الله حيث يقول : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾(١) .

وقد حكم الله جل وعلا باللعنة والغضب على من آذى الرسول عليه السلام ، لأنه كفران للنعمة ، وجحود للفضل الذى أسداه الرسول ﷺ لأمته ، وكيف يليق بالمؤمن أن يؤذى رسول الله ، مع أنه صلوات الله عليه سبب لإنقاذنا من الضلالة ، وإخراجنا من الظلمات إلى النور ؟! وهو باب الرحمة الإلهية ، ومظهر الفضل والإحسان والجود ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾(٢) . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين . وصدق من قال :

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه ، فما مقدار ما تمدح الورى ؟

حجاب المرأة المسلمة

قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

معانى المفردات

أزواجك : المراد بكلمة الأزواج (أمهات المؤمنين) الطاهرات رضوان الله عليهن ، ولفظ الزوج فى اللغه يطلق على الذكر والأنثى ، قال تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾(٣) . ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾(٤) . وإطلاق لفظ (الزوجة) صحيح ولكنه خلاف الأفصح وأنكر الأصمعى لفظ (زوجه) بالهاء .

وقال : هى زوج لا غير . واحتج بأنه لم يرد فى القرآن إلا بدون هاء ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾(٥) .

والصحيح أنه خلاف الأفصح وليس بخطأ قال الفرزدق :

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى كساع الى أسد الثرى يستبيلها

وفى حديث عمار بن ياسر قوله عن السيدة عائشة : (والله انى لأعلم انها زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعونه أم تطيعونها) .

---

(١) سورة النساء آية ٨٠
(٢) سورة التوبة آية ١٢٨
(٣) البقرة آية ٣٥ والأعراف آية ١٩
(٤) الاعراف آية ١٨٩
(٥) الأحزاب آية ٣٧

يدنين : أي يسدلن ويرخين . وأصل الإدناء التقريب .
يقال للمرأة اذا زُل الثوب عن وجهها أدن ثوبك على وجهك . والمراد فى الآية الكريمة يغطين وجوههن وأبدانهن ليميزن عن الإماء والقينات .
ولما كان متضمنا معنى الإرخاء والسدل عدى بعلى (يدنين عليهن) .
جلابيبهن : جمع جلباب وهو الثوب الذى يستر جميع البدن .
قال الشهاب هو ازار يلتحف به . وقيل هو الملحفة وكل ما يغطى سائر البدن . قال فى لسان العرب : الجلباب ثوب أوسع من الخمار دون الرداء ، تغطى به المرأة رأسها وصدرها ، وقيل هو الملحفة .
قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلا لها :

تمشى النسور إليه وهى لاهية
مشى العذارى عليهن الجلابيب

وقيل جلباب المرأة : ملاءتها التى تستمل بها واحدها جلباب والجماعة جلابيب وانشدوا . مجلبب من سواد الليل جلبابا .
وفى الجلالين : الجلابيب جمع جلباب، وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة .
قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب ، إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر .
والخلاصة فإن الجلباب هو الذى يستر جميع بدن المرأة ، وهو يشبه الملحفة المعروفة فى زماننا نسأله تعالى الستر والسلامة .
أدنى : افعل تفضيل بمعنى أقرب من الدنو بمعنى القرب ، يقال أدنانى منه أى قربنى منه .
وقوله تعالى : ﴿ **قطوفها دانية** ﴾[1] . أى قريبة المنال وتأتى كلمة (أدنى) بمعنى أقل وقد جمع المعنيان فى قول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى الى شرف من الانسان

غفورا : أى ساترا للذنوب ، ماحيا للآثام ، يغفر لمن تاب وأناب ، ما فرط منه ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم إهتدى** ﴾[2] .
رحيما يرحم عباده ويلطف بهم ومن رحمته تعالى انه لم يكلفهم مالا يطيقون .
المعنى الاجمالى :
يأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن يوجه النّداء إلى الأمة الاسلامية جمعاء ، بأن تعمل على

(١) سورة الحاقه ٢٣
(٢) سورة طه آية ٨٢

التمسك بآداب الاسلام ، وإرشاداته الفاضلة ، ونظمه الحكيمة ، التى بها صلاح الفرد ، وسعادة المجتمع ، وخاصة فى أمر اجتماعى هام ، يتعلق بالأسرة المسلمة ، ألا وهو (الحجاب الشرعى) الذى فرضه الله على المرأة المسلمة ، ليصون لها كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النفوس المريضة ، والنوايا الخبيثة ، التى يكنها الفساق من الرجال للنساء غير المحتشمات ، فيقول الله تعالى ما معناه :

يأيها النبى بلغ أوامر الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، وابدأ بنفسك ، فمر زوجاتك أمهات المؤمنين الطاهرات ، وبناتك الفضليات الكريمات ، ان يرتدين الجلباب الشرعى ، وأن يحتجبن عن أنظار الرجال ، ليكن قدوة لسائر النساء فى التعفف والتستر والاحتشام ، حتى لا يطمع فيهن فاسق أو ينال من كرامتهن فاجر ، وأمر سائر نساء المؤمنين ، أن يلبسن الجلباب السابغ ، الذى يستر محاسنهن وزينتهن ، ويرفع عنهن ألسنة السوء ، وأمرهن كذلك أن يغطين وجوههن ، وأجسامهن بجلابيبهن ، ليميزن عن الاماء والقينات ، فلا يكن هدفا للمغرضين ، وليكن بعيدات عن التشبه بالفواجر ، فلا يتعرض لهن إنسان بسوء ، فذلك أقرب إلى أن يعرفن بالعفة والتصون ، فلا يطمع فيهن من فى قلبه مرض ﴿ **وكان الله غفورا** ﴾ يغفر لمن امتثل أمره ، رحيما بعباده حيث لا يشرع لهم إلا مافيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة

سبب النزول

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، أن الحرة والأمة كانتا تخرجان ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان ، وبين النخيل من غير تمييز بين الحرائر والاماء ، وكان فى المدينة فساق لايزالون على عاداتهم فى الجاهلية ، يتعرضون للاماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم يقولون حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الاماء فى الزى ، فيتسترن ليحتشمن ، ويهبن فلا يطمع فيهن ذوو القلوب المريضة ، فأنزل الله ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك . .** ﴾ الآية .

وقال ابن الجوزى : سبب نزولها أن الفساق كانوا يؤذون النساء اذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها ، وقالوا هذه حرة ، واذا رأوها بغير قناع قالوا : أمة فآذوها ، فنزلت هذه الآية . قاله السدى .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : بدأ الله تعالى بنساء النبى ﷺ وبناته فى الأمر بـ (الحجاب الشرعى) وذلك للاشارة الى أنهن قدوة لبقية النساء ، فعليهن التمسك بالآداب الشرعية ، ليقتدى بهن سائر النساء ، والدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعى بها فى نفسه وأهله ، ومن أحق من (بيت النبوة) بالتمسك بالآداب والفضائل ، وهذا هو السر فى تقديمهن فى الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ **قل لأزواجك وبناتك** ﴾ .

اللطيفة الثانية : الأمر بالحجاب إنما جاء بعد أن استقر أمر الشريعة على وجوب (ستر العورة) فلابد ان يكون الستر المأمور به هنا زائدا على ما يجب من ستر العورة ، ولهذا اتفقت عبارات المفسرين على اختلاف الفاظها ـ على أن المراد بالجلباب . الرداء الذى تستر به المرأة جميع بدنها فوق الثياب وهو ما يسمى فى زماننا بـ (الملاءة) أى المحلفة ، وليس المراد ستر العورة كما ظن بعض الناس .

اللطيفة الثالثة

فى هذا التفصيل والتوضيح ﴿ أزواجك . . بناتك . . نساء المؤمنين ﴾ رد صريح على الذين يزعمون أن الحجاب انما فرض على أزواج النبى ﷺ خاصة .

فإن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يدل دلالة قاطعة ، على أن جميع نساء المؤمنين مكلفات بالحجاب ، وأنهن داخلات فى هذا الخطاب العام الشامل ، فكيف يزعمون أن الحجاب لم يفرض على المرأة المسلمة ؟!

اللطيفة الرابعة :

أمر الحرائر بالتستر ، ليميزن عن الاماء ، قد يفهم منه ان الشارع أهمل أمر إماء ، ولم يبال بما ينالهن من الايذاء ، وتعرض الفساق لهن فكيل يتفق هذا مع حرص الاسلام على طهارة المجتمع ؟

الجواب :

ان الاماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن فى الأسواق ، لقضاء الحاجات وخدمة سادتهن ، فاذا كلفن بلبس الحجاب السابغ كلما خرجن كان فى ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر ، لأنهن مأمورات بالاستقرار فى البيوت ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾[1] . وعدم الخروج الا عند الحاجة ، فلم يكن عليهن من الحرج والمشقة فى التستر ما على الاماء ، وقد وردت الآية السابقة ﴿ ان الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ وهى تتوعد المؤذين بالعذاب الأليم ، وهذا يشمل الحرائر والإماء .

اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ فيه ذكر للعله أى (الحكمة) التى فرض من أجلها الحجاب والاحكام الشرعية كلها مشروعة لحكمة وجمهور المفسرين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ أن يعرفن ﴾ أى يعرفن أنهن حرائر ويميزن عن الإماء ، وقد اختار (أبو حيان) وجها آخر غير الوجه الذى سلكه الجمهور ، فجعل الأمر بالحجاب موجها الى جميع النساء سواء منهن (الحرائر والاماء) .

وفسر قوله تعالى ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد .

وإليك نص كلامه كما فى البحر المحيط :

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يشمل الحرائر والاماء ، والفتنة بالاماء أكثر ، لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .

وقوله : ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة اذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها ، بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها وهو رأى تبدو عليه مخايل الجودة والدقة فى الاستنباط .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣

وما اختاره أبو حيان ، هو الذى نختاره لأنه يحقق غرض الاسلام فى التستر والصيانة . والله أعلم .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل يجب الحجاب على جميع النساء ؟

يدل ظاهر الآية الكريمة على أن الحجاب مفروض على جميع المؤمنات (المكلفات شرعا) وهن : (المسلمات . الحرائر . البالغات) لقوله تعالى :

﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ﴾ الآية .

فلا يجب الحجاب على الكافرة ، لأنها لا تكلف بفروع الإسلام ، وقد امرنا ان نتركهم وما يدينون ، ولأن لحجاب عبادة ، لما فيه من امتثال أمر الله عز وجل ، إذا تركته تقلدا للمجتمع الفاسد مع اعتقادها بوجوبه فهى عاصية مخالفة لتعاليم القرآن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[1]

وغير المسلمة ـ وان لم تؤمر بالحجاب ـ لكنها لا تترك تفسد فى المجتمع ، وتتعرى أمام الرجل وتخرج بهذه الميوعة والانحلال الذى نراه فى زماننا ، فإن هناك (آدابا اجتماعية) يجب ان تراعى وتطبق على الجميع ، وتستوى فيها المسلمة وغير المسلمة ، حماية للمجتمع ، وذلك من السياسات الشرعية التى تجب على الحاكم المسلم .

وأما الأول فقد عرفت مافيه من أقوال للعلماء ، وقد ترجح لديك رأى العلامة (أبى حيان) فى أن الأمر بالتستر عام ، يشمل الحرائر والاماء ، وهذا ما يتفق مع روح الشريعة فى صيانة الأعراض ، وحماية المجتمع من التفسخ والانحلال الخلقى ، وأما البلوغ فهو شرط التكليف . أقول : يطلب من المسلم أن يعود بناته منذ سن العاشرة ، على ارتداء الحجاب الشرعى ، حتى لا يصعب عليهن بعد ارتداؤه ، وإن لم يكن الأمر على وجه التكليف ، وانما هو على وجه التأديب ، قياسا على أمر الصلاة .

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع)[2] .

الحكم الثانى : ما هى كيفية الحجاب ؟

أمر الله المؤمنات بالحجاب وإرتداء الجلباب ، صيانة لهن وحفظا ، وقد اختلف أهل التأويل فى كيفية هذا التستر على أقوال :

---

(١) الأحزاب آية ٣٣

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ج١ ص٣٣٤ برقم ٤٩٥

١ ـ فأخرج ابن جرير الطبرى عن ابن سيرين انه قال : سألت (عبيدة السلمانى) عن هذه الآية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها ، وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه ، وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر .

٢ ـ وروى ابن جرير وأبو حيان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (تلوى الجلباب فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف وان ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .

٣ ـ وروى عن السدى فى كيفيته انه قال : (تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين . قال أبو حيان وكذا عادة بلاد الأندلس ، لا يظهر من المرأة إلا عينها الواحدة .

٤ ـ واخرج عبد الرازق وجماعة عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت :

(لما نزلت هذه الآية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ خرج نساء الأنصار ، كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها)[1] .

الحكم الثالث : هل يجب على المرأة ستر وجهها ؟ تقدم معنا فى سورة النور ، أن المرأة منهية عن إبداء زينتها إلا للمحارم ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ﴾ الآية .

ولما كان الوجه أصل الزينة ، ومصدر الجمال والفتنة ، لذلك كان ستره ضروريا عن الاجانب ، والذين قالوا ان الوجه ليس بعورة ، اشترطوا ألا يكون عليه شيء من الزينة ، كالأصباغ والمساحيق التى توضع عادة للتجمل ، وبشرط أمن الفتنة ، فاذا لم تؤمن الفتنة فيحرم كشفه .

ومما لاشك فيه أن الفتنة فى هذا الزمان غير مأمونة ، لذا نرى وجوب ستر الوجه حفاظا على كرامة المسلمة ، وقد ذكرنا بعض الحجج الشرعية على وجوب ستره فى بحث (بدعة كشف الوجه) . من سورة النور ، ونزيد هنا بعض أقوال المفسرين فى وجوب ستر الوجه .

(طائفة من أقوال المفسرين فى وجوب ستر الوجه) .

أولا : قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ أى يغطين رءوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر ، والمراد بالجلابيب : الأردية قاله ابن قتيبة .

ثانيا : وقال ابو حيان فى البحر المحيط : وقوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ شامل لجميع أجسادهن ، أو المراد بقوله : ﴿ عليهن ﴾ أى على وجوههن لأن الذى كان يبدو منهن فى الجاهلية هو الوجه .

ثالثا : وقال ابو السعود : الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء ، تلويه المرأة على رأسها ، وتبقى منه ما ترسله على صدرها ، ومعنى الآية : أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن ، إذا برزن لداعية من الدواعى .

وعن السدى : تغطى احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين .

رابعا : وقال أبو بكر الرازى وفى هذه الآية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبية ، واظهار الستر والعفاف عند الخروج ، لئلا يطمع فيها أهل الريب .

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٤١

خامسا : وفى تفسير الجلالين : الجلابيب جمع جلباب ، وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة ، قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ، ليعلم أنهن حرائر .

سادسا : وفى تفسير الطبرى : عن ابن سيرين انه قال : (سألت عبيدة السلمانى عن قوله تعالى : ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه . وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر . وروى مثل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد تقدم الحديث سابقا .

فهذا وأمثاله كثير من أقوال مشاهير المفسرين ، يدل دلالة واضحة على وجوب ستر الوجه وعدم كشفه أمام الأجانب ، اللهم إلا إذا كان الرجل خاطبا ، أو كانت المرأة فى حالة احرام بالحج ، فانه وقت عبادة والفتنة مأمونة ، فلا يقاس على هذه الحالة كما يفعل بعض الجهلة اليوم ، حيث يقولون : اذا جاز لها أن تكشف عن وجهها فى حالة الاحرام ، فمعناها انه يجوز لها ان تكشفه فى غيره من الأوقات ، لان الوجه ليس بعورة فهذا كلام من لم يفقه شريعة الاسلام .

ومن درس حياة السلف الصالح ، وما كان عليه النساء الفضليات ـ نساء الصحابة والتابعين ـ وما كان عليه المجتمع الاسلامى فى عصره الذهبى من التستر ، والتحفظ ، والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون ان الوجه لا يجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة ، لأجل ان يتخلصوا من الاثم ـ بزعمهم ـ فى كتم العلم ، وما دروا انها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التدرج بالمرأة المسلمة الى التخلص من الحجاب الشرعى ، الذى عمل له الاعداء زمنا طويلا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الحكم الرابع : ماهى شروط الحجاب الشرعى ؟

يشترط فى الحجاب الشرعى بعض الشروط الضرورية وهى كالآتى : أولا : ان يكون الحجاب ساترا لجميع البدن ، لقوله تعالى : ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ وقد عرفت معنى (الجلباب) وهو الثوب السابغ الذى يستر البدن كله ، ومعنى (الادناء) وهو الارخاء والسدل ، فيكون الحجاب الشرعى ما ستر جميع البدن .

ثانيا : ان يكون كثيفا غير رقيق ، لأن الغرض من الحجاب الستر ، فإذا لم يكن ساترا لا يسمى حجابا ، لانه لا يمنع الرؤية ولا يحجب النظر ، وفى حديث عائشة أن (أسماء بنت أبى بكر) دخلت على رسول الله ﷺ (الحديث رواه ابو داود بسند مرسل)[1] .

ثالثا : ألا يكون زينة فى نفسه ، أو مبهرجا ذا ألوان جذابة ، يلفت الأنظار لقوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ الآية ، ومعنى ﴿ **ما ظهر منها** ﴾ أى بدون قصد ولا تعمد ، فاذا كان فى ذاته زينة ، فلا يجوز ارتداؤه ، ولا يسمى (حجابا) لأن الحجاب هو الذى يمنع ظهور الزينة للأجانب .

رابعا : ان يكون فضفاضا غير ضيق ، ولا يشف عن البدن ، ولا يجسد العورة ، ولا يظهر أماكن

---

(١) أخرجه أبو داود ١٨٢/٢ ، ١٨٣ ترغيب ج٣ ص٩٥

الفتنة فى الجسم ، وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ انه قال (صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضرب بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا . .) وفى رواية أخرى : وان ريحها ليوجد من مسير خمسمائة عام)[1].

ومعنى قوله عليه السلام : (كاسيات عاريات) أى كاسيات فى الصورة ، عاريات فى الحقيقة ، لأنهن يلبسن ملابس لا تستر جسدا ، ولا تخفى عورة ، والغرض من اللباس الستر ، فإذا لم يستر اللباس كان صاحبه عاريا .

ومعنى قوله : (مميلات مائلات) أى مميلات لقلوب الرجال مائلات فى مشيتهن ، يتبخترن بقصد الفتنة والإغراء ، ومعنى قوله : (كأسنمة البخت) أى يصففن شعورهن فوق رءوسهن ، حتى تصبح مثل سنام الجمل ، وهذا من معجزاته عليه السلام .

خامسا : ألا يكون الثوب معطرا فيه إثارة للرجال ، لقوله عليه الصلاة والسلام (كل عين نظرت زانية ، وان المرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا يعنى زانية) (رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح) .

وفى رواية أخرى (إن المرأة اذا استعطرت فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهى زانية)[2] .

وعن موسى بن يسار قال : (مرت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف ، فقال لها : أين تريدين يأمة الجبار ؟ قالت الى المسجد ، قال : وتطيبت ؟ قالت : نعم قال : فارجعى فاغتسلى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يقبل الله من امرأة صلاة ، خرجت الى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع الى بيتها فتغتسل)[3] .

سادسا : ألا يكون الثوب فيه تشبه بالرجال ، أو مما يلبسه الرجال ، لحديث أبى هريرة : (لعن النبى ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[4] . وفى الحديث (لعن الله المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء)[5] . أى المتشبهات بالرجال فى أزيائهن وأشكالهن كبعض نساء هذا الزمان نسأله تعالى السلامة والحفظ .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

١ ـ الحجاب مفروض على جميع نساء المؤمنين ، وهو واجب شرعى محتم .
٢ ـ بنات الرسول ونساؤه الطاهرات ، هن الأسوة والقدوة لسائر النساء .
٣ ـ الجلباب الشرعى يجب أن يكون ساترا للزينة والثياب ولجميع البدن .

(١) أخرجه مسلم : ج٣ ص١٦٨٠ برقم ٢١٢٨/١٢٥ ترغيب ج٣ ص٩٥
(٢) أخرجه الترمذى ج٤ ص١٩٤ برقم ٢٦٣٧/ النسائى ٢٨٣/٢ أبو داود ١٩٢/٢ .
(٣) أخرجه البيهقى ١٣٣/٣ ، ٢٤٦ ترغيب ٩٤/٣ .
(٤) أخرجه أبو داود ١٨٤/٢/ ابن ماجه ٥٨٨/١/ احمد ٣٢٥/٢ .
(٥) أخرجه الترمذى ج٤ ص١٩٤ برقم ٢٩٣٥ .

٤ ـ الحجاب لم يفرض على المسلمة تضييقا عليها ، وإنما تشريفا لها وتكريما .
٥ ـ فى ارتداء الحجاب الشرعى صيانة للمرأة ، وحماية للمجتمع من ظهور الفساد ، وانتشار الفاحشة .
٦ ـ على المسلمة أن تتمسك بأوامر الله ، وتتأدب بالآداب الاجتماعية التى فرضها الاسلام .
٧ ـ الله رحيم بعباده ، يشرع لهم من الأحكام مافيه خيرهم وسعادتهم فى الدارين .

حكمة التشريع

قد يظن بعض الجهلة أن الحجاب لم يفرضه الاسلام على المرأة المسلمة ، وانه من العادات والتقاليد التى ظهرت فى العصر العباسى ، وهذا الظن ليس له نصيب من الصحة ، وهو وإن دل فإنما يدل على أحد أمرين .

أ ـ اما الجهل الفاضح بالاسلام وبكتاب الله المبين .
ب ـ واما الغرض الدفين فى قلوب أولئك المتحللين .

وأحب ان أكشف الستار ، لتوضيح الحقيقة ، حتى لا يلتبس الحق بالباطل ، ولا يختلط الخبيث بالطيب ، وحتى يظهر الصبح لذى عينين ، فما أكثر هؤلاء المضللين فى هذا الزمان ، الذين يزعمون انهم أرباب المدنية ودعاة التقدمية !! وما أشد خطرهم على الأخلاق والمجتمع ، لأنهم يفسدون باسم الاصلاح ، ويهدمون باسم البناء ، ويدجلون باسم الثقافة والعلم ، ويزعمون انهم مصلحون .

النصوص الواردة فى الحجاب

١ ـ يقول الله سبحانه : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[1] .
٢ ـ ويقول تعالى : ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾[2] .
٣ ـ ويقول سبحانه مخاطبا نبيه العظيم ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾[3] . الآية .
٤ ـ ويقول سبحانه وتعالى أيضا : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾[4] . الآية .

فمن هذه النصوص الكريمة ، نعلم أن الحجاب مفروض على المرأة المسلمة ، بنصوص فى كتاب الله قطعية الدلالة ، وليس كما يزعم المتحللون انه من العادات والتقاليد التى أوجدها العصر العباسى .. الخ فإن حبل الكذب قصير ..

---
(١) سورة الاحزاب آية ٣٣
(٢) سورة الاحزاب آية ٥٣
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٩
(٤) سورة النور الآية ٣١

ومن خلال هذه الآيات الكريمة ، نلمح أن الاسلام ، إنما قصد من وراء فرض الحجاب ، أن يقطع طرق الشبهات ونزغات الشيطان أن تطوف بقلوب الرجال والنساء ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ وهدفه الأول انما هو صون (الشرف) والمحافظة على (العفة والكرامة) ولا ننسى ان هناك كثيرا من ضعفاء القلوب ومرضى الضمائر يتربصون بالمرأة السوء ، ليهتكوا عنها ستر الفضيلة والعفاف .

ولايشك عاقل ان تهتك النساء وخلاعتهن ، هو الذى أحدث ما يسمونه (أزمة الزواج) ذلك لأن كثيرا من الشباب قد أحجموا عن الزواج ، لأنهم أصبحوا يجدون الطريق معبدا لاشباع غرائزهم من غير تعب ولا نصب ، فهم فى غنى عن الزواج ، وهذا بلاشك يعرض البلاد الى الخراب والدمار ، وينذر بكارثة لا تبقى ولا تذر ، وليس انتشار الخيانات الزوجية وخراب البيوت إلا أثرا من آثار هذا التبرج الذميم .

يقول (الشيخ سيد سابق) فى كتابه فقه السنة :

(إن أهم ما يتميز به الانسان عن الحيوان اتخاذ الملابس ، وأدوات الزينة ، يقول الله تعالى : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ﴾[1] . الآية .

والملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والحضارة ، والتجرد عنهما إنما هو ردة إلى الحيوانية ، وعودة الى الحياة البدائية ، وإن أعز ما تملكه المرأة الشرف ، والحياء ، والعفاف ، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة فى أسمى صورها ، وليس من صالح المرأة ، ولا من صالح المجتمع أن تتخلى المرأة عن الصيانة والاحتشام ، ولاسيما وان الغريزة الجنسية هى أعنف الغرائز ، وأشدها على الاطلاق[2] .

﴿ امنعوا الاختلاط . . وقيدوا حرية المرأة ﴾

وتحت هذا العنوان نشرت صحيفة (الجمهورية) بالقاهرة مقالا لصحفية أمريكية تدعى (هيلسيان متانسيرى) قالت هذه الكاتبة الأمريكية بعد أن مكثت شهرا فى جمهورية مصر العربية ما نصه : (ان المجتمع العربى مجتمع كامل وسليم ، ومن الخليق بهذا المجتمع ان يتمسك بتقاليده التى تقيد الفتاة والشاب فى حدود المعقول ، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبى والأمريكى ، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة ، وتحتم احترام الأب والأم ، وتحتم اكثر من ذلك عدم (الإباحية الغربية ، التى تهدد اليوم المجتمع والأسرة فى أوربا وأمريكا) .

ان القيود التى يفرضها المجتمع العربى على الفتاة صالحة ونافعة ، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم ، وامنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية الفتاة ، بل ارجعوا الى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحية وإنطلاق ومجون أوربا وأمريكا .

---

(١) سورة الاعراف آية ٢٦
(٢) فقه السنة ج٢

امنعوا الاختلاط ، فقد عانينا منه فى أمريكا الكثير ، لقد أصبح المجتمع الأمريكى مجتمعا معقدا ، مليئا بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين ، يملأون السجون والأرصفة ، والبارات والبيوت السرية ، ان الحرية التى أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار ، قد جعلت منهم عصابات أحداث ، وعصابات (جيمس دين) وعصابات المخدرات والرقيق .

ان الاختلاط ، والإباحية ، والحرية فى المجتمع الأوربى والأمريكى ، هدد الأسر وزلزل القيم والأخلاق ، فالفتاة الصغيرة - تحت سن العشرين - فى المجتمع الحديث ، تخالط الشبان ، وترقص ، وتشرب الخمر ، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية . وهى تلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، بل وتتحدى والديها ، ومدرسيها والمشرفين عليها . . تتحداهم باسم الحرية والاختلاط ، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق ، تتزوج فى دقائق ، وتطلق بعد ساعات ، ولا يكلفها أكثر من امضاء وعشرين قرشا . وعريس ليلة)[1] .

أقول : هذا رأى الكاتبة الأمريكية ، والفضل ما شهدت به الأعداء . . !

وصدق الله العظيم : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

﴿ من كتاب تفسير آيات الأحكام - للصابونى ﴾ .

﴿ جزاء المنافقين وأحكام أخرى ﴾

قال تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ

---

(١) جريدة الجمهورية ٩ من يونيو ١٩٦٢م

لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

معانى المفردات

مرض : المراد مرض الفسوق والعصيان ، المرجفون والرجفان الاضطراب الشديد ، والمراد الملتمسون الفتنة المشيعون للأكاذيب والأباطيل (لنغرينك بهم : لنسلطنك عليهم . الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا جمع السيد وهو كبير قومه ، وكبراءنا : أى ذوى الاسنان أو العلماء ، ضعفين من العذاب : أى مثلى عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا .

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ، ومن يكون له من خصال الخير مابه يعرف ولا ينكر . القول السديد : القول الصادق الذى يراد به الوصول الى الحق ، من قولهم : سدد سهمه اذا وجهه للغرض المرمى ولم يعدل به عن سمته . العرض : هنا ، النظر الى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل انها حقوق أوجبها الله على المكلفين وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد ، وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الاخلال بشيء منها .

فأبين : أى كن غير مستعدات لها ، وحملها الانسان : أى كان مستعدا لها ، انه كان ظلوما جهولا : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور ، لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المناسبة واجمال المعنى

روى انه لما كانت الحرائر والاماء فى المدينة ، يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والاماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فاذا كلموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء ـ فطلب من رسوله ان يأمر الحرائر ان يخالفن الاماء فى الزى والتستر ، ليتمايزن ويهبن ، فلا يطمع فيهن الفساق وامراض القلوب ، وبعد ان ذكر حال هذه الفئات الثلاث فى الدنيا وهم : ١ ـ المنافقون الذين يؤذون الله سرا ، ٢ ـ ومن فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم ، ٣ ـ والمرجفون الذين يؤذون الرسول بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ألى نحو ذلك مما يراد به اظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم ـ وانهم يلعنون ويهانون ويقتلون عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة ، فذكرهم بيوم القيامة ، وبين ما يكون لهم فى هذا اليوم .

وبعد ان بين سبحانه عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات ، عقب على ذلك بذكر الذين آذوا موسى من بنى إسرائيل ، ونسبوا اليه ماليس فيه ، فبرأه الله منه ، لأنه ذو كرامة ومنزلة لدية ، فلا يلصق به ماهو نقص فيه . وبعد ان نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو فعل ، أرشدهم الى ما ينبغى ان يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سببا فى الفوز : النجاة فى الدار الآخرة ، والقرب من الله ورسوله ، وان من يراعيها فله الفوز العظيم ، وأن من يتركها يستحق العذاب ، أردف ذلك عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية ، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس ، ثم بيان ان ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام انما يكون بلا جبر ولا التزام .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ .

أى لئن لم يكف أهل النفاق الذين يسترون الكفر ويظهرون الايمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم ، وركنوا الى الخلاعة والفجوز ، وأهل الأرجاف فى المدينة الذين ينشرون الاخبار الملفقة الكاذبة ، كاظهار عورات المؤمنين وابراز ما استكن من خفاياهم ، كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراعهم ، ونحو ذلك مما فى اظهاره مصلحة للعدو وكسر لشوكة المسلمين ـ لنسلطنك عليهم ، وندعونك الى قتالهم واجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها الا قليلا ، وتخلو المدينة منهم بالموت أو الاخراج ، ثم بين مآل أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، فقال عز وجل : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ ملعونين أى مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أى وجدوا ﴿ أخذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وقتلوا تقتيلا ﴾ ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا ، هو شرعة الله فى أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم فقال تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ أى هذه سنته فى المنافقين اذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم ، ان اهل الايمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ أى وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ .

يقول تعالى فخرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، انه لا علم له بالساعة ، وان سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها الى الله عز وجل ؛ كما قال تعالى فى سورة الأعراف وهى مكية ، وهذه مدنية فاستمر الحال فى رد علمها ، الى الذى يقيمها ، لكن أخبره انها قريبة بقوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . وقال : ﴿ اقترب للناس

حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا . لا يجدون وليا ولا نصيرا . يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ .

يقول سبحانه : ﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أى أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيرا ﴾ أى فى الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها . ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم طريقا الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[٣] . وقوله جل شأنه : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب أليم ﴾[٤] . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾[٥] . وقوله تبارك اسمه : ﴿ ان جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لا بثين فيها أحقابا . لا يذقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميا وغساقا جزاء وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٦] .

وقوله جل جلاله : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ أى وليس لهم مغيث ولا معين ، ينقذهم مما هم فيه . ثم قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أى يسحبون فى النار على وجوههم كما قال تعالى : ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾[٨] .

وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[٩] . وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرضات بقوله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن

---

(١) سورة الانبياء آية ١
(٢) سورة النحل آية ١ .
(٣) سورة النساء الآيات ١٦٧ ـ ١٦٩
(٤) سورة المائدة آية ٣٧
(٥) سورة الجن آية ٢٣
(٦) سورة النبأ الآيات ٢١ ـ ٣٠
(٧) سورة النساء آية ٥٦
(٨) القمر الآيتان ٤٧ ـ ٤٨
(٩) سورة غافر الآيتان ٧١ ـ ٧٢

الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾[٢] . وقال جل شأنه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يالتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٣] .

وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه انهم يودون ان لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ﴿ وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاوس : سادتنا يعنى الاشراف وكبراءنا يعنى العلماء ـ رواه ابن ابى حاتم ـ اى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا ان عندهم شيئا وانهم على شىء فاذا هم ليسوا على شىء ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أى بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ قالوا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ .

قال البخارى فى أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة رضى الله قال : قال رسول الله ﷺ (ان موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب فى جلده إما برصى واما أدره واما آفة ، وان الله عز وجل أراد ان يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ اقبل على ثيابه ليأخذها وان الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملأ من بنى اسرائيل فرأوه عريان أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من اثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا ـ قال ـ فذلك قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾[٥] .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله قال قسم : رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار ان هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت ياعدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : (رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر)[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أى ذا وجاهة وجاه ، قال أئمة المفسرين ومنهم الحسن

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٢٨ ـ ٢٩
(٢) سورة الحجر آية ٢
(٣) سورة الأنعام الآيتان ٢٧ ـ ٢٨
(٤) سورة ص آية ٦١
(٥) اخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الانبياء ج٤ ص١٩٠
(٦) أخرجه الامام احمد ج١ ص٣٨٠

البصرى ، كان مستجاب الدعوة عند الله ، وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وقال معضم : من وجاهته عند الله انه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله فى قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾[١] . وكقوله تعالى : ﴿ **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ . قال ان ابى حاتم بسنده عن ابى موسى الأشعرى قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ الينا بيده فجلسنا فقال : ان الله تعالى أمرنى أن آمركم ان تتقوا الله وتقولوا قولا سديدا) ثم أتى النساء فقال : (ان الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولا سديدا)[٣] . وروى عن ابن عباس موقوفا : من سره ان يكون اكرم الناس فليتق الله . قال عكرمة القول السديد . لا آله إلا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد هو السداد ، وقال غيره هو الصواب والكل حق ، فيقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه ، أن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وان يقولوا (قولا سديدا) أى مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم انهم اذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بان يصلح لهم أعمالهم أى يوفقهم للأعمال الصالحة ، وان يغفر لهم الذنوب الماضية وما قد يقع منهم فى المستقبل ويلهمهم التوبة ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ وذلك انه يجأر من نار الجحيم ويصير الى النعيم المقيم ..

والتقوى هى السلاح الأقوى ، ومصدر كل سعادة فى المعاش والمعاد ، قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[٤] .

وقال : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾[٥] .

وقال : ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب** ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا** ﴾[٩] .

---

(١) سورة مريم الآيات ٥١ ـ ٥٣
(٢) سورة القصص الآيتان ٣٤ ـ ٣٥
(٣) تفسير ابن كثير ج٦ ص٤٧٦
(٤) سورة آل عمران آية ٢٠٠
(٥) سورة النساء آية ١٣١
(٦) سورة الأعراف آية ٢٦
(٧) سورة البقرة آية ١٩٧
(٨) سورة يوسف آية ١٩٧
(٩) سورة البقرة آية ٢٨٢

وقال : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾[١]
وقال : ﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ﴾[٢] .
وقال : ﴿ يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[٣] .
وقال : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾[٤] .
وقال : ﴿ يأأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾[٥]
وقال : ﴿ ياعباد فاتقون ﴾[٦] .
وقال : ﴿ يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٧] .
وقال ﷺ لمعاذ : (اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[٨] .

اذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى — تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه — ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

جاء فى معنى الأمانة أقوال نوضحها فيما يلى :

قال العوفى عن ابن عباس الأمانة : الطاعة ، عرضها عليهم قبل ان يعرضها على آدم ، فلم يطقنها فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها ؟ قال ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ .

وقال ابن عباس أيضا : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم ، وان ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك ، وأشفقوا عليه من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله الا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم ، فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ يعنى غرا بأمر الله .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢
(٢) سورة الحشر آية ١٨
(٣) سورة النساء آية ١
(٤) سورة المائدة آية ٣٥
(٥) سورة الحج آية ١
(٦) سورة الزمر آية ١٦
(٧) سورة آل عمران آية ١٠٢
(٨) أخرجه الامام أحمد ج٥ ص١٥٣ ، ١٥٨ .

وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصرى وغير واحد : ان الأمانة هى الفرائض ، وقال آخرون : هى الطاعة ، قال ابى بن كعب من الامانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها ، وقال قتاده الامانة الدين والفرائض والحدود ، وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو انه ان قام بذلك أثيب ، وان تركها عوقب ، فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه الا من وفق الله وبالله المستعان .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن زيد بن أسلم فى هذه الآية . قال الانسان بين أذنى وعاتقى ، فقال الله عز وجل : إنى معينك عليها ، إنى معينك على عينيك بطبقتين فاذا نازعاك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين فإذا نازعك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه الى ما أكره[1] .

وقال ابن جرير بسنده عن ابى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خمس من جاء بهن يوم القيامة مع ايمان دخل الجنة . من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها ـ وكان يقول ـ وأيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن وأدى الأمانة) قالوا ياأبا الدرداء وما اداء الامانة ؟ قال رضى الله عنه : الغسل من الجنابة فان الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيره[2] .

وقال ابن جرير ايضا بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال . . القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها . . أو قال يكفر كل شىء إلا الامانة يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك . . فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به إلى أمه الهاوية فيذهب به الى الهاوية فيهوى فيها حتى ينتهى إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها الى شفير جهنم حتى اذا رأى انه قد خرج زلت قدمه فهوى فى أثرها أبد الآبدين . . قال : والأمانة فى الصلاة والأمانة فى الصوم والأمانة فى الوضوء والأمانة فى الحديث وأشد ذلك الودائع . . فلقيت البراء فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال صدق[3] .

وروى الامام أحمد بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت احدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا ان الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبرا وليس فيه شىء . . قال ثم أخذ حص فدحرجه على رجله قال . . فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال انه فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما فى قلبه حبة خردل من ايمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم ما بعت ان كان مسلما ليردنه على دينه ، وان كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه فأما اليوم فما

---

(١) تفسير الطبرى ج٢٢ ص٥٥

(٢) حلية الأولياء ج٢ ص٢٣٤ ترجمة ابى الدرداء

(٣) تفسير ابن جرير الطبرى ج٢٢ ص٥٦ ط الحلبى

كنت أبايع منكم الا فلانا وفلانا ، واخرجاه فى الصحيحين[١] .

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة قال بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ فى حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة ! قال ها أنا يارسول الله قال : فاذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة[٢] .

وروى الامام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال (أربع اذا كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمه)[٣] . وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، فقد ورد فى حديث مرفوع ، قال أبو داود بسنده .

عن أبى بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من حلف بالأمانة فليس منا)[٤] .

وللأمام النسفى تفسير فى هذه الآية جديد بالذكر ، قال رحمه الله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) وهو يريد بالأمانة الطاعة لله ، ويحمل الأمانة الخيانة ، يقال فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، اذ الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها ، وهو حاملها ، ولهذا يقال ركبته الديون ولى عليه حق ، فاذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها ، يعنى ان هذه الاجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها ، وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تليق بها ، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته ، ايجادا وتكوينا وتسوية ، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال سبحانه : ﴿ **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾[٥] . وأخبر ان الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله ، وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله ، واما الانسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه ، وهو العاقل الصالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات ، فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، وهذا معنى قوله : ﴿ **فأبين أن يحملها** ﴾ أى ابين الخيانة فيها والا يؤدينها ﴿ **وأشفقن منها** ﴾ وخفن من الخيانة فيها ﴿ **وحملها الانسان** ﴾ أى خان فيها وأبى الا يؤديها . ﴿ **انه كان ظلوما جهولا** ﴾ لكونه تاركا لأداء الأمانة ﴿ **جهولا** ﴾ لاخطائه ، ما يسنده مع تمكنه منه وهو أداؤها قال الزجاج الكافر والمنافق حملا الامانة ، أى خانا ولم يطيعا ومن أطاع من الانبياء والمؤمنين فلا يقال ظلوما جهولا .

وقوله تعالى : ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ أى إنما حمل ابن آدم الأمانة ، وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الايمان خوفا من

---

(١) أخرجه البخارى ج٨ ص١٢٩ كتاب الرفاق/ واحمد ج٥ ص٣٨٣ ومسلم فى كتاب الايمان ج١ ص١٢٦ برقم ١٤٣/٢٣٠ .
(٢) أخرجه البخارى ج٢ ص٢٢٠ كتاب طواف الوداع .
(٣) أخرجه الامام احمد ج٢ ص١٧٧
(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٤٧
(٥) سورة فصلت آية ١١

أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة الرسل .

﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى وكان الله ستارا لذنوب عباده ، كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب اليه ، ورجع الى حظيرة قدسه ، وأخلص له العمل ، وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم ان تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات وتثيبنا بالفوز العظيم ، انك سميع قريب مجيب الدعوات .

تفسير سورة سبأ

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها أربع وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر . .

مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول ﷺ - ومعجزات داود ، وسليمان ، ووفاتها وهلاك سبأ ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة سادة الضلال ، وسغلتهم ، ومعاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المنفقين والمصدقين بالاخلاف والرجوع بإلزام الحجة على مفكرى النبوة ، وتمنى الكفار فى وقت الوفاة الرجوع الى الدنيا فى قوله : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ مرتين بتقديم السموات ، بخلاف يونس ، فإن فيها (مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ لان فى هذه السورة تقدم ذكر السموات فى أوائل السورة ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ وقد سبق فى يونس .

قوله : ﴿ أفلم يروا ﴾ بالفاء ليس غيره . زيد الحرف ، لأن الاعتبار فيها بالمشاهدة على ماذكرنا ، وخصت بالفاء لشدة اتصالها بالأول لأن الضمير يعود الى الذين قسموا الكلام فى النبى ﷺ وقالو : محمد أما عاقل كاذب ، واما مجنون هاذ ، وهو قولهم ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ فقال الله : بل تركتم القسم الثالث وهو اما صحيح العقل صادق .

قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ وفى الاسراء : ﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دونه ﴾ ، لأن فى هذه السورة اتصلت بآية ليس فيها لفظ الله ، فكان التصريح أحسنُ ، وفى الاسراء اتصل بآيتين فيهما (بضعة عشر) مرة ذكر الله صريحا وكناية ، (وكانت) الكناية أولى وقد سبق .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ وبعده ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ بالجمع ، لأن المراد بالأول : لآية على احياء الموتى ، فخصت بالتوحيد ، وفى قصة سبأ جمع ، لأنهم

صاروا اعتبارا يضرب فيهم المثل ، تفرقوا أيدى سبأ ، فرقوا كل مفرق ، وفرقوا كل ممزق ، فوقع بعضهم الى الشام ، وبعضهم الى يثرب ، وبعضهم الى عمان ، فختم بالجمع ، وخصت به لكثرتهم ، وكثرة من يعتبر بهن .

فقال : ﴿ لآيات لكل صبار شكور ﴾ على المحنة ﴿ شكور ﴾ على النعمة أى المؤمنين .

قوله : ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ وبعده : ﴿ لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ سبق . وخص هذه السورة بذكر الرب ، لانه تكرر فيها مرات كثيرة منها ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ ﴿ ربنا باعد ﴾ ﴿ يجمع بيننا ربنا ﴾ ﴿ موقوفون عند ربهم ﴾ ولم يذكر مع الأول ﴿ من عباده ﴾ لأن المراد بهم الكفار ، وذكر مع الثانى ، لانهم المؤمنون . وزاد ﴿ له ﴾ وقد سبق بيانه .

قوله : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير ﴾ ولم يقل : من قبلك ، ولا قبلك خصت السورة به ، لأن فى هذه السورة اخبارا مجردا ، وفى غيرها اخبار للنبى ﷺ ، وتسلية له ، فقال : ﴿ قبلك ﴾ قوله : ﴿ ولا تسأل عما تعملون ﴾ وفى غيرها ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ .

لأن قول ﴿ أجرمنا ﴾ بلفظ الماضى ، أى قبل هذا ، ولم يقل : نجرم فيقع فى مقابلة ﴿ تعملون ﴾ لأن من شرط الايمان وصف المؤمن ان يعزم ألا يجرم .

وقوله : ﴿ تعملون ﴾ خطاب للكفار ، وكانوا مصرين على الكفر فى الماضى من الزمان والمستقبل ، فاستغنت به الآية عن قوله (كنتم) . قوله : ﴿ عذاب النار التى ﴾ وقد سبق .

صلتها بما قبلها .

(١) ان الصفات التى أجريت على الله فى مفتتحها ، تشاكل الصفات التى نسبت اليه فى مختم السورة السالفة .

(٢) انه فى السورة السابقة ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم انكارها صريحا ، وطعنهم على من يقول بالبعث ، وقال هنا مالم يقله هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ

وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

معانى المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله .
الحكيم : الذى احكم أمر الدارين ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة .
الخبير : هو الذى يعلم بواطن الأمور وخوافيها .
يلج فى الأرض : أى يدخل فيها .
ويعرج : أى يصعد .
لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه .
مثقال ذرة : أى مقدار أصغر نملة .
والكتاب المبين : اللوح المحفوظ .
رزق كريم : أى حسن لا تعب فيه ولا من عليه .
معاجزين : أى مسابقين يظنون انهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم .
رجز : أى عذاب شديد .
العزيز : أى الذى يغلب ولا يغلب .
الحميد : اى المحمود فى جميع شئونه
وصراطه : هو التوحيد والتقوى
تمزيق الشيء : تقطيع أوصاله وجعله قطعا قطعا ، يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق ومنه قوله :

اذا كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق

والافتراء : اختلاق الكذب
والجنة : الجنون وزوال العقل
كسفا : قطعا واحدها كسفة
منيب : أى راجع الى ربه مطيع له .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه ان له الحمد فى الآخرة على ما أسدى الى عباده من النعم ، أردف ذلك بيان أن كثيرا منهم ينكرها أشد الإنكار ، ويستهزىء بمن يثبتها ، ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر ان مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان ان الناس فريقان ، مؤمن بآيات ربه ، يرى أنها الحق وأنها تهدى الى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى ابطالها . ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال ، وبعد أن أبان سبحانه انهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا ، وأكده كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون اذ ذاك من جزاء المؤمن بالثواب العظيم ، على ما عمل من صالح الاعمال ، وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب فى الجحيم ، على ما دسى به نفسه من اجتراح المعاصى ، وفاسد المعتقدات ، أردف ذلك ذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء . ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد ، لعلهم يرجعون عن عنادهم ، ويثوبون الى رشدهم .

التفسير

حمد الله تعالى ذاته ليلقن عباده كيف يحمدونه ، وقد سبق فى سورة الفاتحة قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ وفى سورة الانعام قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور** ﴾ وفى سورة الكهف قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** ﴾ .

وهنا يحمد الله تعالى ذاته لان له ما فى السموات وما فى الأرض فهو المالك المدبر ، والسيد المتصرف ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾[1] .

فهو جلت قدرته بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو المحمود فى الدارين ، وهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، وهو الحكيم الذى تنزه عن العبث ، وتقدس عن النقائص ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، الخبير العليم بدقائق الأشياء ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾[2] .

---

(١) سورة القصص آية ٧٠
(٢) سورة الأنعام آية ٥٩

﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[١] . ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٢] .

لذا جاء تفسير الخبير فى الآية التى تليها قال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾ أى ما يدخل فيها ، كما يعلم ما يخرج منها ، ويعلم ما ينزل من السماء ، كما يعلم ما يعرج فيها ويصعد اليها ، أحاط علمه بكل شىء كما أحصى كل شىء عددا ، وهو الرحيم ، الذى شملت رحمته هذا الملك العظيم ، الغفور الذى يستر الذنوب ﴿ ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾[٣] .

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[٤] .

وسبحان القائل : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾[٥] .

يامن يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخـر متجندل

وسبحان من علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

بصيرة فى الحمد

قال صاحب البصائر :

الحمد : الثناء بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر ، فان المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره ، ومما يكون منه وفيه بالتسخير ، فقد يمدح الانسان بطول قامته ، وصباحة وجهه ، كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه ، والحمد يكون فى الثانى دون الأول ، والشكر لا يقال إلا فى مقابلة نعمة ، فكل شكر حمد ، وليس كل حمد شكرا ، وكل حمد مدح ، وليس كل مدح حمدا ، وفلان محمود اذا حمد ، ومحمد اذا كثرت خصاله المحمودة ، ومحمد كمكرم اذا وجد محمودا .

---

(١) سورة نعمان آية ١٦
(٢) سورة الملك آية ١٤
(٣) سورة الشورى اية ٢٥
(٤) سورة المجادلة آية ٧
(٥) سورة ق آية ٤

قوله تعالى : ﴿ إنه حميد مجيد ﴾[1] . يصح ان يكون فى معنى المحمود وان يكون فى معنى الحامد ، وحماداك ان تفعل كذا ، أى غايتك المحمودة .

وقوله تعالى : ﴿ ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[2] . فأحمد اشارة الى النبى ﷺ باسمه ، تنبيها على انه كما وجد احمد ، يوجد وهو محمود فى أخلاقه وأفعاله ، وخص بلفظ احمد فيما يبشر به عيسى عليه السلام ، تنبيها انه احمد منه ومن الذين قبله .

قوله تعالى : ﴿ محمّد رسول الله ﴾ محمد ههنا وان كان اسما له علما ، ففيه اشارة الى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾[4] . على معنى الحياة .

بصيرة فى الشكر

وهو تصور النعمة وإظهارها ، وقيل : هو الثناء على المحسن بما أولى من المعروف ، ليقال : شكرته وشكرت له وتعديته باللام أفصح .

قال تعالى : ﴿ واشكروا لى ﴾[5] . وقال جل ذكره : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾[7] . يحتمل ان يكون مصدرا ، مثل قعد قعودا ، ويحتمل أن يكون جمعا ، مثل برد وبرود ، وكفر وكفور .

والشكران : خلاف الكفران ، والشكورُ : الشاكر والشكور من الدواب ، الذى يجترىء بالعلف القليل ، ويسمن عليه قال الأعشى : ولابد من غزوة فى الربيع .. رهب تكل الوقاح الشكورا

وقيل : الشكر مقلوب الكشر ، أى الكشف وقيل : أصله من عين شكرى ممتلئة ، والشكر على هذا : الامتلاء من ذكر المنعم .

والشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على النعم ، وشكر بسائر الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .

﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ انتصابه على التمييز ومعناه : اعملوا ما تعملونه شكرا لله وقيل : شكرا مفعول لقوله : ﴿ اعملوا ﴾ ولم يقل : اشكروا ، لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، وقوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ فيه تنبيه ان توفية شكر الله صعب ، ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه إلا على اثنين ، قال فى وصف ابراهيم عليه السلام :

---

(١) هود آية ٧٣
(٢) الصف آية ٦
(٣) الفتح آية ٢٩
(٤) مريم آية ٧
(٥) البقرة آية ١٥٢
(٦) لقمان آية ١٤
(٧) الانسان آية ٩

﴿ شاكرا لأنعمه ﴾[١] وقال فى نوح عليه السلام : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾[٢] . واذا وصف الله بالشكر فى قوله ﴿ والله شكور حليم ﴾[٣] فإنما يعنى به إنعامه على عباده ، وجزاؤه بما أقامه من العبادة .

واعلم ان الشكر أعلى منازل السالكين وفوق منزلة الرضا ، فإنه يتضمن الرضا وزيادة ، والرضا مندرج فى الشكر ، اذ يستحيل وجود الشكر بدونه ، وهو نصف الايمان ، وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببا للمزيد من فضله ، وحارسا وحافظا لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسما من أسمائه ، فإنه سبحانه هو الشكور ، وهو موصل الشاكر ، الى مشكوره ، بل يعيد الشاكر مشكورا ، وهو غاية رضا الرب عن عبده ، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[٤] . وقال : ﴿ واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٥] .

وقال عن خليله ابراهيم : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾[٦] وعن نبيه نوح : ﴿ انه كان عبدا شكورا ﴾[٧] . وقال ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٨] .

وقال : ﴿ أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٩]

وقال : ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾[١٠]

وقال : ﴿ واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[١١] وقال ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[١٢].

وسمى نفسه شاكرا وشكورا ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا ، وأعاد به الشكر مشكورا ، كقوله : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾[١٣]. ورضا الرب عن عبده كقوله (وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[١٤]. وقلة أهله فى العالمين على انهم من خواصه .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ : (انه قام حتى تورمت قدماه فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[١٥]. وقال لمعاذ (يامعاذ إنى أحبك فلا تنس ان تقول فى دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[١٦].

---

(١) النحل آية ١٢١
(٢) الاسراء آية ٣
(٣) التغابن آية ١٧
(٤) البقرة آية ١٧٢
(٥) البقرة آية ١٥٢
(٦) النحل آية ١٢١
(٧) الاسراء آية ٣
(٨) النحل آية ٧٨
(٩) البقرة آية ١٧٢
(١٠) آل عمران آية ١٤٤
(١١) ابراهيم آية ٧
(١٢) سبأ آية ١٩
(١٣) الانسان آية ٢٢
(١٤) الزمر آية ٧
(١٥) أخرجه الامام مسلم ج٤ ص٢١٧١ برقم ٢٨١٩/٧٩
(١٦) أخرجه فى الحلية ج١ ص٢٤١ ترجمة معاذ بن جبل

وفى الترمذى فى بعض دعائه المشهور : (رب اجعلنى لك شكارا لك ذكارا لك رهابا لك مطواعا لك مخبتا اليك أواها منيبا)[1]. وقال هذا حديث حسن صحيح .

والشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وألا يستعملها فيما يكره ، هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناؤه عليها ، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر ، وكل من تكلم فى الشكر فكلامه اليها يرجع وعلها يدور .

فقيل حده : إنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وقيل : الثناء على المحسن بذكر احسانه ، وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره ، والثناء عليه ، وقيل : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وما ألطف ماقال حمدون القصار : شكر النعمة : ان ترى نفسك طفيليا ، وقال أبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر ، وقيل : الشكر إضافة النعم الى موليها . وقال الجنيد : الشكر : الا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وهذا معنى قول حمدون : أن ترى نفسك فيها طفيليا ، وقال رويم : الشكر : استفراغ الطاقة يفنى فى الخدمة وقال الشبلى : الشكر : رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويحتمل كلامه أمرين : أحدهما ان يغنى برؤية المنعم عن رؤية النعمة ، الثانى ألا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها وهذا أكمل ، والأول أقوى عندهم والكمال ان يشهد النعمة والمنعم ، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلما كان أتم ، كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ، ويعترف بها ، ويثنى عليه بها ، ويحبه عليها ، لا أن يفنى عنها ، ويغيب عن شهودها ، وقيل : الشكر قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة ، وشكر العامة على المطعم والملبس ، وقوة الأبدان ، وشكر الخاصة على التوحيد والايمان وقوة القلوب ، وقال داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك ، وشكرى نعمة علىّ من عندك تستوجب بها شكرا ؟ فقال : الآن شكرتنى ياداود .

وفى أثر اسرائيلى قال موسى : يارب خلقت آدم بيدك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعلت ، فكيف أطاق شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم ان ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرا لى .

وقيل : التلذذ بثنائه على مالم يستوجب من عطائه وقال الجنيد : وقد سأله سرى عن الشكر وهو صبى بعد : الشكر ألا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه ، قال من أين لك هذا ؟ قال : من مجالستك . وقيل : من قصرت يداه عن المكافأة ، فليطل لسانه بالشكر ، والشكر مع المزيد أبدا لقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[2] . فمتى لم تر حالك فى مزيد ، فاستقبل الشكر ، وفى أثر الهى يقول الله : أهل ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيادتى وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، ان تابوا فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليتهم بالمصائب لأطهرهم عن المعايب .

---

(١) اخرجه الترمذى ج٥ ص٢١٤ برقم ٣٦٢١

(٢) ابراهيم آية ٧

وقيل : من كتم النعمة ، فقد كفرها ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها .
قال أبو تمام :

ومن الرزية ان شكرى صامت عما فعلت وان برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أسرها انى اذا لندى الكريم لسارق

وتكلم الناس فى الفرق بين الحمد والشكر ، وأيهما أفضل وفى الحديث : (الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره) والفرق بينهما ان الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته فيه ،

والحمد أعمّ من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب ومعنى هذا ان الشكر ، يكون بالقلب خضوعا واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافا ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الاحسان والنعم ، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان .

إنكار الكافرين البعث

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد** ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ ، ان يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره . من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين** ﴾[1]

والثانية فى سورة التغابن قال تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾[2] والثالثة هذه : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم** ﴾ فقال تعالى : ﴿ **قل بلى وربى لتأتينكم** ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ **عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال مجاهد وقتادة : لا يعزب عنه : لا يغيب عنه ، أى الجميع مندرج تحت علمه ، فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام وان تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت ، وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فانه بكل شيء عليم ، ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة .

---

(١) سورة يونس آية : ٥٣
(٢) سورة التغابن : ٧

بقوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى سعوا فى الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل ، اذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار ، بالذى كانوا قد علموه من كتب الله تعالى فى الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضا ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[3] . يقال ايضا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[4] . ﴿ لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾[5] .

﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

العزيز هو المنيع الجناب ، الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شىء وغلبه ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله جل وعلا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد . أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

وهذا انكار بعد إنكار للبعث بعد الموت فقد قالوا قبل ذلك : ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ فقال لهم المولى ملقنا رسوله الاجابة : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ وهنا قال بعضهم لبعض فى سخرية وتهكم واستهزاء : ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ يقصدون به محمدا ﷺ إمام الانبياء وخاتم الرسل : ﴿ ينبؤكم اذا مزقتم كل ممزق ﴾ وتفرقت أعضاؤكم تحت الثرى كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون . ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآيتنا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة

---

(١) الحشر آية ٢٠
(٢) ص آية ٢٨
(٣) الأعراف آية ٤٣
(٤) يس آية ٥٢
(٥) الروم آية ٥٦

والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾(١) . وكما قال تعالى : ﴿ ويقول الانسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾(٢) . وهنا يقولون : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴾ ثم يكيلون التهم جزافا ، فيقولون على أصدق الناس وأعقلهم ﴿ أفترى على الله كذبا ﴾ وهم الذين من قبل سموه الصادق الأمين ﴿ أم به جنة ﴾ أى أصابه جنون ، وهم الذين يعلمون انه أعقل العقلاء ، وأعظم خلق الله على الإطلاق ، فلم يعرف الكذب الى قلبه سبيلا ، كما لم يعرف الجنون الى عقله طريقا ، ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾(٣) .

ياسيد العقلاء ياخير الورى ... يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا ... وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الإله ولا برى ... بشرا يرى كمحمد بين الورى

قال ابن عباس : والله ما خلق الله ولا برأ ولا ذرأ نسمة أفضل من رسول الله ﷺ ، وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾(٤) .

بلغ العلا بكماله ... كشف الدجى بجماله
عظمت جميع خصاله ... صلوا عليه وآله

قوله تعالى : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ لقد أنكروا البعث بعد الموت ، وجهلوا ان الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، فعاشوا فى أسباب العذاب . وضلوا بذلك ضلالا بعيدا ، ثم يأتى التحذير والوعيد والتهديد لهؤلاء كالصواعق والقواصف والرعود ، التى تنخلع لها الجبال الشم والرواسى الشامخات .

يقول تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أى أعموا وأصبحوا لا يرون أن أرض الله وسماءه ، محيطة بهم ، أينما كانوا وحيثما وجدوا . من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾(٥) . ولا أحد يملك هذا السلطان إلا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

---

(١) السجدة الآيات ١٠ ـ ١٤
(٢) مريم الآيتان ٦٦ ، ٦٧
(٣) القلم الآيات ١ ـ ٦
(٤) الحجر آية ٧٢
(٥) الرحمن آية ٣٣

قال تعالى : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض ﴾(١) . وقال الله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فماهم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾(٢) . قال تعالى : ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾(٣) . وكما أن مشيئتنا صالحة لخسف الأرض ، فإنها صالحة لإسقاط قطع من السماء تمحقهم محقا . ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾(٤) . ثم يقول تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ فالمنيب هو التائب الراجع إلى ربه وهو الذى يعتبر بالآيات ، ويتعظ بها ، ويخاف مقام ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، وهكذا أنكر الكفار البعث بعد الموت ، وكان القرآن لهم بالمرصاد ، كلما ساقوا حجة دحضها ، وكلما أثاروا شبهة سحقها ، وكلما قدموا دليلا هدمه ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٥) .

﴿ البعث حق ﴾

ما هو البعث :

﴿ ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾(٦) .

البعث إحدى قضيتين من قضايا الإسلام ، دارت حولهما العقيدة الراسخة ، التى أوجب الإسلام على أتباعه اعتقادها . .

فقضية الألوهية وقضية البعث ، هما القضيتان اللتان دارت حولهما رحى الإسلام .

فما هو البعث :

اتفقت كلمة علماء العقيدة على أن البعث ، هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة . . قال سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٧) .

وقال الصادق الأمين ﷺ وهو يعلن هذه المبادىء بعدما أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٨) . نادى على قبائل العرب ـ بعدما صعد الصفا وقال

(١) سبأ آية ٩
(٢) سورة النحل الآيات : ٤٥ ـ ٤٧
(٣) سورة الأعراف آية : ٩٩
(٤) سورة الملك الآيتان : ١٦ ، ١٧
(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧
(٦) سورة مريم الآيات : ٦٦ ـ ٦٨
(٧) الحج الآيتان ٦ ، ٧
(٨) الحجر آية ٩٤

لهم : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا)[1] .

صدقت يا سيدى يارسول الله ! فقد أعطاك الله جوامع الكلم ، واختصر لك الكلام اختصارا :

ذكرت قضايا العقيدة بأسلوب بلاغى واضح ، فقد شبهت الموت بالنوم ، ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[2] .

وشبهت البعث باليقظة : ﴿ **ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[3] . ولخصت الحكمة من النشأة الآخرة ، فقلت وقولك الحق : (ولتحاسبن بما تعملون) .

إذن : فليست الدنيا دار جزاء ، وإنما هى دار امتحان وبلاء . . قد ترى فيها المؤمن مضيقا عليه ، بينما ترى الفاجر يرتع ويلعب فى جنباتها ويعربد على ظهرها .

إذن : فالحقيقة الكبرى ، هى الدار الباقية ، قال جل شأنه : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون** ﴾[4] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين** ﴾[5] .

ولقد قال رسول الله (ﷺ) : (إذا رأيت الله ينعم على العبد وهو يعصيه فاعلم أنه مستدرج) ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[6] .

ولخصت الحقيقة الرابعة فبينت وجه العدالة الإلهية حيث قلت ـ وقولك الصدق : (ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا) .

أجل ! ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها ، وكفى بنا حاسبين** ﴾[9] . وقال تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾[10] .

---

(١) أخرجه ابن عساكر ٣٩٩/٦/ مسانيد ٦٠٨/٢ الجامع الكبير .
(٢) الأنعام آية ٦٠
(٣) يس الآيات : ٥١ ـ ٥٣
(٤) الأنبياء آية ٣٥
(٥) آل عمران آية : ١٧٨
(٦) الاعراف الآيتان : ١٨٢ ـ ١٨٣
(٧) النساء اية : ٤٠
(٨) فصلت آية : ٤٦
(٩) الانبياء آية : ٤٧
(١٠) الزلزلة الآيتان : ٧ ـ ٨

تشاد المبانى والقبور دوارس ... ولا يمنع الأقدار باب وحارس
ومهما يكن ، فالله باق ودائم ... ويجنى الفتى - من بعد - ما كان يغرس

يا لله للمسلمين ! ويا لله للناس أجمعين ! ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾[1] .

تملك الناس الهوى والغرور ... وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تزال الحجب بانت لهم ... زخارف الدنيا وعقبى الأمور

وصدقت ياسيدى يارسول الله حين بينت أن فى الآخرة دارا للمتقين وأخرى للفاسقين ، فقلت : (وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا) .

سبحانك ربى ! يا من قلت : ﴿ أفمن كان مؤمنا ، كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار : كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به يكذبون ﴾[2] . ويا من قلت : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟! ﴾[3] .

وقررت هذا الجزاء العادل :

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين ﴾[4] .

القبر باب وكل الناس داخله ... ياليت شعرى ، بعد الموت : ما الدار
دار نعيم إن عملت بما ... يرضى الإله وإن خلفت فالنار
هما محلان ، ما للمرء غيرهما ... فانظر لنفسك : أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا ... وإن هفوا هفوة ، فالرب غفار

---

(١) الأنبياء الآيات : ١ - ٣
(٢) السجدة الآيات : ١٨ - ٢٠
(٣) القلم الآيتان : ٣٥ - ٣٦
(٤) ق الآيتان : ٣١ - ٣٢

تباركت ربنا وتعاليت !! يا من قلت وقولك الحق :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها : سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العاملين ﴾[١] .

أخا الإسلام :

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها ، فلما علموا أنها ليست لحى سكنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[٢] .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيش الآخرة .

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ﴾[٣] .

إلهى : لست للفردوس أهلا ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لى توبة واغفر ذنوبى فإنك غافر الذنب العظيم

فما هو البعث :

هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة .

---

(١) يونس الآيات : ٧ ـ ١٠
(٢) الكهف آية ٣٠
(٣) الصف الآيات : ١٠ ـ ١٢

البعث حق

﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض؟ قل لله : كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ﴾[١] .

أمر الله رسوله (ﷺ) أن يقسم به جل شأنه فى ثلاثة مواضع من كتابه الكريم ، وهذه المواضع تدور حول قضية واحدة ؛ هى قضية البعث :

فقد جاء فى سورة يونس : ﴿ ويستنبئونك أحق هو؟ قل إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين ﴾[٢] .

وجاء فى سورة سبأ : ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة ، قل بلى ، وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٣] .

وجاء فى سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى ، وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ﴾[٤] .

ولكون « البعث » قضية تناولتها عقول الماديين بالانكار ، فقد تناولها الكتاب العزيز من جميع جوانبها تحليلا وتمحيصا ، حتى سمى اليوم الذى سنبعث فيه أسماء تدل على الثبوت والوقوع .

قال جل شأنه فى ذلك :

﴿ الحاقة . ما الحاقة . وماأدراك ما الحاقة ﴾[٥] .

وقال أيضا : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . . خافضة رافعة ﴾[٦] .

ولكونه محقق الوقوع : عبر القرآن عنه بصيغة الواقع فعلا ، فقال سبحانه :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[٧] .

وعبر عنه بالقرب القريب فقال : ﴿ أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ﴾[٨] .

وقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[٩] .

وقد تعددت أسماء هذا اليوم ، ونظرا إلى ضخامة شأنه ، وعلو قدره سماه الله تعالى بالساعة ، فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون . مالبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ﴾[١٠] .

وسماه بيوم البعث فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لاتعلمون ﴾[١١] .

---

(١) الأنعام آية : ١٢
(٢) يونس آية ٥٣
(٣) سبأ آية ٣
(٤) التغابن آية ٧
(٥) الحاقة الآيتان ١ ، ٢
(٦) القمر الآيتان : ١ ، ٢
(٧) الروم الآية : ٥٥
(٨) الواقعة آية ١ ، ٢
(٩) النحل آية ١
(١٠) النجم الآيتان ٥٧ ، ٥٨
(١١) الروم آية : ٥٦

وسماه بيوم الحسرة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون ﴾[١] .

وسماه باليوم الموعود فقال : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود ﴾[٢] .

وسماه بيوم الآزفة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾[٣] .

وسماه بيوم التلاق فقال : ﴿ لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون . لايخفى على الله منهم شىء ﴾[٤] .

وسماه بيوم التناد ، كما جاء فى القرآن الكريم ، حيث يقول جل شأنه :

﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾[٥] .

وسماه بالقارعة فقال تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة ﴾[٦] .

وسماه بالطامة الكبرى فقال : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ماسعى ﴾[٧] .

وسماه بالصاخة فقال : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٨] .

وسماه بيوم الدين فقال : ﴿ وماأدراك مايوم الدين . ثم ماأدراك ما يوم الدين ﴾[٩]

وسماه بيوم القيامة فقال : ﴿ لاأقسم بيوم القيامة ﴾[١٠]

وسماه باليوم الآخر فقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخرة ﴾[١١]

وفخم من شأنه بالصورة التى تليق به ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ يوم يأت لاتكلم نفس إلا بأذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾[١٢]

وأورده فى كتابه العزيز بصيغة التنكير الذى يفيد التهويل والتعظيم ، فقال : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ﴾[١٣] .

وقال : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ﴾[١٤] .

وقال : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ﴾[١٥]

---

(١) مريم آية : ٣٩
(٢) البروج الآيتان : ١ ، ٢
(٣) غافر الآية : ١٨
(٤) غافر الآيتان ١٥ ، ١٦
(٥) غافر الآية : ٣٢
(٦) القارعة الآيات : ١ - ٣
(٧) النازعات الآيتان : ٣٤ ، ٣٥
(٨) عبس الآيات : ٣٣/ ٣٧
(٩) الانفطار الآيتان : ١٧ ، ١٨
(١٠) القيامة آية : ١
(١١) البقرة آية : ١٧٧
(١٢) هود آية : ١٠٥
(١٣) البقرة : آية ٢٨١
(١٤) آل عمران آية ٢٥
(١٥) هود آية ١٠٣

وقال : ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[١] .
وقال : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾[٢] .
وقال : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾[٣] .
وجعل لهذا اليوم مقدمات تنخلع لها القلوب ، وتنفطر منها الأفئدة ، فقال سبحانه : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[٤] .
وفي هذه المقدمات للبعث ، تختل سنن الحياة ونواميسها ، كما قال سبحانه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون . لاتخفى منكم خافية ﴾[٥] .
وقال جل شأنه :
﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ماأحضرت ﴾[٦] .
وقال عز من قائل : ﴿ فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا ، لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[٧] .
وقال عز من قائل : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال . وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾[٨] .
وقال تبارك اسمه : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾[٩] .

البعث حقيقة واقعة

أخي القارىء الكريم : إن قضية البعث ثارت حولها اعتراضات وأفكار من قديم الزمن ، ولذلك اهتمت العقيدة الاسلامية بالتأكيد عليها ، والتركيز على معانيها وأدلتها .

---

(١) المزمل آية ١٧
(٢) الانسان آية ١٠
(٣) النور آية ٣٧
(٤) الحج الآيتان : ١ ، ٢
(٥) الحاقة الآيات : ١٣ - ١٨
(٦) التكوير الآيات : ١ - ١٤
(٧) القيامة الآيات : ٧ - ١٢
(٨) المزمل آية : ١٤
(٩) الانفطار الآيات : ١ - ٥

ونحن فى هذا الباب سنعرض للأدلة عرضا عقليا ، على أن البعث حق نخاطب فيه العقل الرشيد ، بالمنطق السديد ، دون ماتعسف أو تعصب إلا للحق ﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾[١] ، ﴿ الحق أحق أن يتبع ﴾[٢] ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾[٣]

ولكى نثبت أن البعث حق ، فلابد لذلك من مقدمات ثلاث .

المقدمة الأولى : قضية الألوهية .

المقدمة الثانية : القرآن الكريم حق .

المقدمة الثالثة : النبى (ﷺ) حق .

المقدمة الأولى :

قضية الألوهية

لقد أثبتت الحقائق العلمية أن هذا الكون وما يحتويه من أجزاء المخلوقات من أول الذرة إلى المجرة ، ومن أول الخلية إلى الانسان ، لابد أن يكون له مبدع خالق ومدبر حكيم ، وأن كلمة العلماء القدامى والمحدثين ، انعقدت على أن هذه المخلوقات لايمكن بحال ، أن تكون وليدة الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء . ومن قال بذلك فقد ألغى فكره ، وعطل عقله .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾[٤] .

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٥] .

وبعد بيان هذه الأدلة التى تخاطب العقل : تأتى النتيجة مسلما بها لاتحتاج إلى نقاش أو جدال

---

(١) الأنعام آية : ١٠٤
(٢) يونس آية : ٣٥
(٣) يونس آية : ٣٢
(٤) ق الآيات : ٦ - ١١
(٥) الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩

فيقول جل شأنه : ﴿ ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[١] .

إذن : فكل الكائنات بما حوته من إبداع وإحكام وإتقان ونظام تنطق بلسان الحق وتشهد بمنطق الصدق : أن له خالقا لاتدركه الأبصار ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

المقدمة الثانية : -

القرآن الكريم حق

القرآن الكريم : هو ذلك الكتاب العربى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى ، المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتحدى بلفظه المتعبد بتلاوته .

ولكى نوضح أن القرآن الكريم حق ، يجب علينا أن نعلم أنه منقول إلينا بطريق التواتر ، وهو عبارة عن نقل جماعة عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب ، وهو طريق يفيد قطعية الثبوت ، كذلك يجب أن نعلم أن القرآن ليس كلاما عاديا ، بل هو كلام الله جل جلاله ، الذى أعجز الخلق ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، حيث يقول سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٢] .

بل تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث قال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لاإله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[٣] ؟

بل لقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فقال سبحانه ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[٤] .

ولهذا نؤمن بهذا القرآن الكريم ونقول إنه كلام رب العالمين :

إن القرآن أعجز العرب جميعا ببلاغته وفصاحته وعلو طبقته ، وهم أهل البلاغة وأساطين الفصاحة ، ولذلك يلمح قارئه أنه ـ أى القرآن الكريم ـ يصدر كثيرا من سوره بالحروف العربية المقطعة :

فأحيانا بحرف واحد مثل : (صۤ ، نۤ ، قۤ)

وأحيانا بحرفين ، مثل : (حمۤ ، وطس)

وأحيانا بثلاثة ، مثل : (الۤمۤ ، طسۤمۤ)

---

(١) الأنعام الأيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) الاسراء آية : ٨٨

(٣) هود الأيتان : ١٤ ، ١٥

(٤) البقرة الأيتان : ٢٣ ، ٢٤

وأحيانا بأربعة مثل : (المص ، المر)

وأحيانا بخمسة ، مثل (كهيعص ، حم عسق)

وبعد ذكر هذه الحروف يرد ذكر الكتاب ، مثل : ﴿ الم . ذلك الكتاب لاريب فيه ﴾[1] .

ومثل : ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلايكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[2]

ومثل : ﴿ المر . تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾[3] .

ومثل : ﴿ ص . والقرآن ذى الذكر ﴾[4]

ومثل : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾[5] .

إن فى ذكر هذه الحروف العربية المقطعة ، مقترنا بذكر القرآن الكريم والكتاب الحكيم ـ فى الأكثرية الساحقة من السور المفتتحة بتلك الحروف ـ إشارة قوية إلى أن القرآن نزل بتلك الحروف العربية .

فإن كنتم ياأرباب الفصاحة ، وياأساتذة البلاغة : فى ريب أو شك أو التباس فى أنه من عند الله ، فاتوا بكتاب مثله إن كنتم صادقين فأنتم عرب ولسانكم عربى .

وقد ثبت تاريخيا ـ بطريق موثوق به ـ أنهم عجزوا كل العجز ، ولم يقولوا فى هذا المجال شيئا يذكر ، وبذلك ثبت للقرآن أنه حق نزل به جبريل عليه السلام من قبل الحق ، على النبى الحق . صلوات الله وسلامه عليه .

لقد بهرت هذه البلاغة القرآنية عمر بن الخطاب رضى الله عنه جبار الجاهلية ، فانقلب فجأة بعد سماع صدر من سورة « طه » فتمثلت له الآيات كأنها ملائكة حملته على أجنحة النور إلى مافوق قبة الفلك ، فأصبح بعد ماكان جبار الجاهلية : عملاق الاسلام .

قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها   بفضل ربك حصنا من أعاديها

القرآن معجز :

اقرأ ياأخى بقلب مخلص هذه الآيات : ﴿ طه . ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[6]

---

(١) البقرة الآيتان ١ ، ٢

(٢) الأعراف الآيتان ١ ، ٢

(٣) الرعد آية ١

(٤) ص آية ١

(٥) ق آية ١

(٦) طه الآيات : ١ ـ ٨

ثم أعد قراءتها ، واجعل عقلك يعيش فيها ، ويندمج فى أضوائها ، فإن فيها أسرارا لايلحق بها ولا يشق لها غبار .

إنه من الملاحظ أن آيات التحدى فى القرآن نزلت فى مكة ، وقد ظل النبى ﷺ بها ثلاثة عشر عاما ، فما استطاع أحدهم أن يأتى بسورة من مثل هذا القرآن ، بل كل ماقالوه : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[(١)] .

بل كانوا يأتون بما يندى له جبين الحياء خجلا :

كان النضر بن حارث يأتى بالأقاصيص والخرافات ، ليجعل منها مجالا ، يصرف به الناس عن سماع القرآن . . قال سبحانه : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾[(٢)] .

بل لقد انحدروا إلى الدرك الأسفل ، فأتوا بأفعال صبيانية ، ليكون ذلك منهم حاجزا وحجابا عن وصول القرآن إلى الأسماع .

﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوافيه لعلكم تغلبون ﴾[(٣)]

وبلغ الاستهتار ببعضهم أنه ظن أن القرآن صور متحركة ، يمكن تبديلها وتغييرها كأنه أمام خشبة المسرح : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى ﴾[(٤)] .

بلغ لقد بلغ الحمق ببعضهم ، أنهم كادوا يعتدون على الذين يتلون القرآن ، قال سبحانه : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾[(٥)] .

حصل هذا فى الوقت الذى كان البعض يذهب سرا ، ليستمع إلى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ فى الليل .

كان أبو سفيان بن حرب ـ قبل أن يسلم ـ يذهب متخفيا ، ويجلس بجانب بيت الرسول ﷺ ، ويستمع إلى القرآن الكريم منه ، وهو يرتله ، وإذا به يجد أبا جهل قادما ، فيقول له : ياأبا حنظلة : ما الذى جاء بك إلى هنا فى هذا الوقت ؟ فيقول له : ياأبا الحكم جئت لأستمع إلى القرآن من محمد ، فما الذى جاء بك أنت ؟ فيقول أبو جهل : نفس الذى جاء بك ، وإذا برأس من رؤوس الكفر يأتى ـ هو الأخنس بن شريق ـ فيسألانه :

---

(١) الأنفال الآيتان : ٣١ ، ٣٢
(٢) لقمان الآيتان : ٦ ، ٧
(٣) فصلت آية : ٢٦
(٤) يونس آية : ١٥
(٥) الحج آية : ٧٢

ما الذى جاء بك ؟

فيقول نفس الذى جاء بكما . . ويعد أن يستمعوا ويهموا بالانصراف ، يعاهد بعضهم ألا يأتى أحد منهم ، خشية أن يتمكن القرآن من قلوبهم فيخضعوا لمحمد ويسيروا وراء لوائه !

ويظن كل منهم أنه لن يأتى أحد غيره ، فيتسلل أبو سفيان خفية ، ويأتى إلى القرآن مستمعا ، ويتسلل أبو جهل كذلك ، ويأتى الأخنس أيضا ، وكل منهم يظن أن أحدا من رفقائه لن يراه ، ثم يعيدون العهد . كل ذلك وحلاوة القرآن تجذبهم .

لو كان ذلك من كلام أحد من العرب ، فإن هؤلاء عرب يستطيعون أن يقولوا مثله ، ولكنه من كلام خالق الكون رب العالمين .

ويشهد الوليد بن المغيرة لهذا القرآن ، شهادة خالدة بعد أن استمع إليه ، وأدار أسلوبه فى نفسه ، فوجده يتقاطر نورا ورحمة غضا نديا ، لايذبل عوده ، ولا يجف ورقه . . تسرى فيه روح الحياة ، كما يسرى الماء فى العود الأخضر فيقول الوليد :

(لقد سمعت من محمد كلاما ماسمعت مثله فقط ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام البشر ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه) .

لقد اختار الله تعالى البلاغة وجعلها من معجزات القرآن لأن المعجزة أمر خارق للعادة ، يقصد به تحدى القوم ، وإنما يكون التحدى بصورة أقوى ، إذا جاء من جنس مابرع فيه القوم .

فقد كانت معجزة موسى عليه السلام : إبطالا للسحر ، فى عصر برع فيه السحرة .

ومعجزة عيسى عليه السلام : تحدى الطب البشرى ، فى عصر نبغ فيه الأطباء .

وجاء القرآن معجزة بلاغية ، فى عصر برع فيه البلغاء والفصحاء والأدباء ، فضلاً عن أنه اشتمل على جوانب أخرى من الإعجاز ، يتحدى بها العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تنبؤات القرآن العظيم :-

ومن الأدلة القاطعة على أن القرآن حق ؛ أنه اشتمل على تنبؤات فى المستقبل تحققت وصدقت ، كما أخبر عنها ؟ ذلك : لأنه كلام علام الغيوب .

نذكر منها قوله تعالى :

﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده ﴾[١] .

قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) الروم الآيات : ١ - ٣

(أما إنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا ، كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم ، كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : (ألا جعلتها إلى مادون العشر) قال سعيد بن جبير : البضع : مادون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد ذلك .

وهو الذى قاله سعيد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فى بضع سنين ﴾

ولقد حدث ماتنبأ به القرآن الكريم ، وانتصرت الروم على الفرس ، كما أخبر بذلك علام الغيوب .

كذلك من تنبؤات القرآن العظيم أنه أخبر عن أشخاص ؛ بأنهم سيدخلون النار ويموتون على الكفر .

من هؤلاء : الوليد بن المغيرة ، الذى منعه كبره ، وحجبه ظلمه عن الدخول فى الاسلام ، فقد قال الله تبارك وتعالى فى شأنه :

﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾[١] .

وقال جل شأنه فى حقه أيضا : ﴿ سأصليه سقر . وما أدراك ماسقر ؟ . لاتبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾[٢] .

ولقد سمع الوليد هذه الآيات فعلا ، وثبت ماأخبر به القرآن الكريم ، ومات الوليد على غير الاسلام .

ومن هؤلاء : أبو لهب بن عبد المطلب ـ عم الرسول ـ ﷺ ـ فقد أخبر تبارك وتعالى عنه بقوله : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد ﴾[٣] .

وقد سمع أيضا أبو لهب وامرأته هذه الآيات وماتا على الكفر ، وصدقت فيهما أخبار القرآن الكريم .

ومن هؤلاء أيضا : النضر بن الحارث ـ الذى سبق الكلام عنه فى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾[٤] .

وقد سمع النضر هذه الآيات ومات على الكفر : ولو أن أحدا من هؤلاء الذين ذكرناهم ، مات على الاسلام ماصدقت النبوءة ، ولكنه إخبار الله الذى إذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وهو أسرع الحاسبين .

---

(١) المدثر الآيات : ١١ ـ ١٧
(٢) المدثر الآيات : ٢٦ ـ ٣٠
(٣) سورة المسد كلها
(٤) لقمان آية : ٦

ومن جوانب النبوءة فى القرآن الكريم ، أنه أخبر عن هزيمة المشركين فى يوم بدر قبل وقوع الغزوة . . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾(١) .

كما أخبر عن أشخاص ، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فقتلوا يوم بدر ، وفيهم يقول الله سبحانه : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾(٢)

وأخبر أنه ـ جل شأنه ـ سيحفظ هذا الكتاب الكريم ، وتحقق ذلك ، فقد مرت بالاسلام إحن طاحنة ، ومحن قاسية ، فلم تستطع يد آثمة أن تغير أو تبدل فى كتاب الله ، وظل هذا الكتاب الكريم فى حفظ ورعاية وصيانة : ﴿ **إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾(٣) .

كذلك من جوانب إعجاز القرآن ـ غير البلاغة والتنبؤات ـ ما اشتمل عليه من نظم صحيحة وصالحة لكل زمان ومكان ، لو فهمها الخلق وطبقوها تطبيقا سليما ، لمكن الله لهم فى الأرض وبدل خوفهم أمنا .

ومن هذه النظم السياسية التى جمع الله مبادئها فى آيات بينات : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾(٤) وقوله جل شأنه : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾(٥) ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾(٦) .

وغير ذلك من القوانين والمعاهدات الدولية ، التى اشتملت عليها سور كثيرة من القرآن الكريم : كسورتى الأنفال ، والتوبة .

كما اشتمل على نظم إجتماعية ، أفاضت فى ذكرها سور النساء والنور والأحزاب ، كما اشتمل على النظم والقوانين المدأينة ، كما فى آية المداينة : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾(٧) .

كما وضع نظاما للمال والاقتصاد وتدور عليه دواليب الحياة ، وقد أفاضت فى هذا الموضوع سورتا البقرة والنساء .

كما أشتمل على نظم الجهاد والنواحى العسكرية ، كما فى السور : آل عمران والتوبة والأحزاب . . إلى غير ذلك من جميع مايحتاج إليه

العالم فى شتى النظم .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾(٨) .

---

(١) القمر الأيتان : ٤٤ ، ٤٥
(٢) الحجر آية : ٩٥
(٣) الحجر آية : ٩
(٤) النحل آية : ٩٠
(٥) آل عمران ـ : ١٥٩
(٦) الشورى : ٣٨
(٧) البقرة : ٢٨٢
(٨) النحل آية : ٨٩

القرآن الكريم والعلم الحديث :

وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر ، نقطف من كل بستان زهرة وننشق من كل حديقة وردة . . ذلك الجانب هو ماشتمل عليه القرآن العظيم من الحقائق العلمية .

(وسوف نورد نماذج لحقائق علمية مختلفة ، سبق القرآن بها العلم)

الطب الحديث ، وتحريم الخمر فى القرآن :

يقول الطب عن الخمر : إن شربها ينتج عنه تليف فى المعدة ، والكبد ، والأعصاب ، والألياف التى تتكون فى الأنسجة ، تخنق الذرات النافعة فى المعدة والكبد والأعصاب ، فتضعف وظائفها الحيوية ، وهذه الحالة شفاؤها صعب ، ويمتد ضررها إلى الذرية البريئة .

صدقت يارب العزة ، إذ قلت عن الخمر : إنها ﴿ **رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾[1] .

الصحة الغذائية فى القرآن :

وهذه حقيقة علمية أخرى ذكرها العلم مخبرا عن وظائف الرضاعة وأهميتها ، يقول العلم فى هذا الصدد : إن الله لم يخلق الثديين للأنثى عبثا ، بل خلقهما لترضع منهما أطفالها ، فيجب عليها إذن : إرضاع طفلها المدة الكافية ، فإذا رفض الطفل أخذ ثديها ، أو أحست هى بقلة لبنها ، فعليها أن تستشير الطبيب ، ليعرف سبب هاتين الحالتين ، فتعالجه ليرجع الطفل إلى غذائه الطبيعى .

ويقول العلم : إن الأم التى ترضع طفلها يتحسن جسمها ، إذ أن المبيضين يفرزان أثناء الرضاعة مادة تقوى الجسم وتجمل شكله .

المقارنة بين لبن الأم ولبن الحيوان :

تحاول كثيرات من السيدات ، أن يرضعن أطفالهن بألبان البقر وغيرها ، ولكن الأفضل والأصح : هو لبن الأم ، ذلك لأن لبن الحيوان ، قد يكون ملوثا بميكروب الدرن - مثلا - أو تكون الأيدى التى حلبته غير نظيفة ، أو يكون الاناء كذلك ، أو يكون قد خلط بعناصر غريبة ، بالاضافة إلى أن التحليلات ، قد أثبت أن اللبن تتكاثر فيه الميكروبات بسرعة ، فأين هذا من لبن ثدى الأم ، الذى يدخل معدة الطفل معقما نظيفا . ، سبحانك ربى يامن قلت : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[2] .

المقارنة بين لبن الأم والألبان الجافة : -

أما الرضاعة بطريق الألبان الجافة ، فقد اجتهدت بعض المصانع فى تركيب ألبان كلبن الأم ، ولكن سرعان ماعرف أن تعقيم اللبن ، يفقده مافيه من الفيتامينات ، كما اتضح أن فى لبن الأم ، مواد تقى الطفل من أمراض الجهاز الهضمى من قىء وإسهال ، كما تقيه من بعض الأمراض الأخرى ، ولاشىء من هذه الخواص فى اللبن الصناعى .

فمن الذى أثبت لنا هذه الحقائق فى الصحة الغذائية ، منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ؛

---

(١) المائدة آية : ٩٠

(٢) البقرة آية : ٢٣٣

إنه القرآن الكريم الذى يقول : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾(١)

ولماذا التحديد بحولين ؟

إنما حددت مدة الرضاعة بحولين لا أكثر ، لأن الأبحاث الطبية ، تفيد أن الطفل إذا أرضع أكثر من حولين تقل قواه العقلية ، ويتعرض للاصابة بالأنيميا .

فسبحان من يعلم مصالح عباده ويرشدهم إليها !

إعجاز علمى آخر :

قال جل شأنه : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾(٢) .

ماذا يقول العلم فى قوله جل شأنه : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها** ﴾ ثم التعليل لذلك بقوله : ﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ ؟

إن فى ذلك إعجازا علميا . . ذلك لأن الآية الكريمة حددت الشعور بألم الاحراق فى الجلد السطحى للجسم ، فلو احترق الجلد ، ووصل الكى إلى اللحم ، لما كان هناك شعور بالألم ، لأن الأعصاب التى تشعر بالكى : موجودة فى الجلد دون سواه !

إذن : فمن الذى أثبت هذه الحقيقة العلمية ، التى لم يكتشفها الطب إلا منذ قرنين فقط ؛ ومن الذى أخبر أن مراكز الاحساس ، هى فى الجلد دون غيره ؛ إنه كلام العليم الخبير !!

القرآن والطبيعة الجوية :

قال سبحانه : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾(٣) .

نظرة فى هذا النص الكريم تفيد أن إنزال الماء من السماء مبنى ومترتب على إرسال الرياح لواقح :

فما السر فى هذا ؟ وماذا يقول العلم وتنطق الحقيقة به فى هذا الصدد ؛ إن العلم يثبت أن الرياح تقوم بتلقيح السحب بنوى التكاثف أو بمعنى آخر : هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر بسبب إرسالها ، لتتجمع فى صعيد واحد ، إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر .

إن الانسان لم يتوصل إلى هذه الحقيقة ، إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة ، التى يقيس بها عناصر الجو : مثل الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة وسرعة الرياح واتجاهها ، وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة .

يقول العلم بعد ذلك : إن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم « نويات التكاثف » وأهم أنواع هذه النويات - « أو النوى » - هى مساحيق ملح الطعام وكلوريد الكالسيوم ، التى تتطاير من سطح الأرض والبحر من تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أكسيد الكبريت الناتج عن عمليات الاحتراق .

(١) البقرة آية : ٢٣٣
(٢) النساء آية : ٥٦
(٣) سورة الحجر آية : ٢٢

ووظيفة هذه النوى ، تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها ، لتكون نقطا صغيرة من الماء ، أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذى يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها ، فمن الذى أثبت ـ منذ أربعة عشر قرنا ـ هذه الحقيقة العلمية فى الطبيعة الجوية ، وهى أن الرياح تقوم بتلقيح السحب ، فيترتب على ذلك إنزال الماء ؟

إنه كتاب الله ـ عز وجل ـ أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض !

حقيقة تناقص الضغط الجوى والاكسجين مع الارتفاع :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن يرد أن يضله ، يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** ﴾[1] .

إن العلم يقف عند هذه الآية موقف الاكبار والاجلال والإعظام ، مقرا بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر ، إنما هو كلام خالق القوى والقدر .

لماذا يضيق الصدر عندما يصعد الانسان فى طبقات الجو ؟

إن وراء ذلك التعبير سرا علميا وحقيقة ثابتة .

فماذا يقول العلم والعلماء ؛

يقول العلم : إن الصدر عندما يرتفع الانسان فى طبقات الجو يحس بضيق ناشىء عن نقص الضغط الجوى وكميات الأكسچين التى تستقبلها الرئتان ، وهذه الحقيقة ، ليس من السهل تقريرها عمليا ، إلا إذا صعد الانسان فعلا فى الجو .

ثم يقول العلم : إن من عناية الله بسكان هذا الكوكب الأرضى أن جعل له غلافا هوائيا ، يقع تحت طائل قانون الجاذبية فى نفس الوقت ، الذى يخضع فيه لقانون الانتشار ، فهو يتمدد ، ولكن بدرجة لاتسمح له بالإفلات من قبضة الأرض ، والتلاشى فى خضم الفضاء الفسيح ، إلا بعد مئات الأميال من سطح الأرض .

ثم يستطرد العلم قائلا : كلما صعد الانسان قدما فى السماء ؛ صار الهواء قليل الضغط والكثافة . . والعكس صحيح .

وعلة ذلك أنه يستجيب للضغط الواقع عليه ، وبطبيعة الحال : تضغط كل طبقة على كل ماتحتها وعند سطح الأرض تبلغ مقادير هذا الضغط وزن كيلو جرام واحد على السنتيمتر المربع ؛ ومن ثم : فإنه قد ثبت أن الانسان ، إذا ارتفع نحو ستة كيلو مترات : فإن الضغط الجوى ، يعادل نحو نصف قيمته عند سطح الأرض ، بمعنى أن نصف كتلة الغلاف الجوى ، إنما تنحصر بين سطح الأرض وهذا الارتفاع ، ولقد بنى الله أجسامنا ، بحيث تتحمل على سطح الأرض هذا الضغط ، الناجم عن تراكم طبقات الهواء إلى قمة الغلاف الجوى ، وتكفى كميات الأكسچين العالقة فيه لتنقية الدم وبقائنا على قيد الحياة !

وعلى هذا فيستفاد من هذا التقرير العلمى ، أن الانسان كلما ارتفع إلى أعلى تناقص الضغط الجوى والأكسچين ، فيشعر بضيق فى الصدر .

---

(١) الأنعام آية : ١٢٥

وذلك ماأقرته تلك الآية الكريمة : ﴿ يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾[1] .
سبحانك ربى : أنت العليم الحكيم ، وأنت على كل شىء قدير !

القرآن حق :

فالقرآن الكريم فى بلاغته وأسلوبه معجز ، وفى نبوءاته معجز ، وفى حقائقه التى أكدها العلم فى أبحاثه معجز : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[1] .

المقدمة الثالثة :

(النبى ﷺ حق)

كما ثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، وكما ثبت كذلك أن القرآن حق ، وحيث كان ذلك كذلك ، فإن النبى ﷺ الذى أوحى الله إليه هذا القرآن : حق .

لأنه ثبت بطريق التواتر القطعى ، أن النبى محمدا ﷺ كان أميا ، لم يذهب إلى أستاذ ، ولم يتلق العلم على يدى فيلسوف ؛ كما أنه لم يجلس أمام معلم ، إنما تلقى علمه بطريق الوحى من رافع السماء بلا عمد .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾[2] ، ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾[3] ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾[4] .

فمن الذى علم محمدا ﷺ هذه النواحى المعجزة فى القرآن العظيم ، وهو الأمى الذى لم يتلق علمه على يدى بشر ؟ .

من الذى علمه أخبار الأنبياء السابقين وأممهم السالفة ؟

إنه الحق جل جلاله ، الذى ختم له قصص الأنبياء بآيات تفيد أن المصدر الوحيد ، هو الله وحده .

فبعد أن حدثه عن قصة نبى الله نوح عليه السلام ، قال فى نهايتها :

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك : ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾[5]

وبعد ذكر قصة كليم الله موسى عليه السلام يقول له : ﴿ وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾[6] . ويقول له أيضا : ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾[7] ويقول : له كذلك : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾[8] .

---

(١) الفرقان آية : ٦
(٢) النمل آية : ٦
(٣) الشورى آية : ٣
(٤) العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٥) هود آية : ٤٩
(٦) القصص آية : ٤٤
(٧) القصص آية : ٤٥
(٨) القصص آية : ٤٦

وبعد قصة الصديق يوسف عليه السلام يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[١] .

وبعد قصة آل عمران يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾[٢] .

وبعد قصص الأنبياء يقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾[٣] ، ويقول : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك ﴾[٤] .

كل هذا وغيره يدل دلالة قاطعة على أن هذا النبى الأمى إنما أرسله الله بالهدى ودين الحق ، بعد ماأقسم بالنجم على تزكيته فى شتى نواحى شخصه :

زكى عقله : فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾[٥] .

وزكى لسانه ، فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ! ﴾[٦]

وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ! ﴾[٧]

وزكى أستاذه وجليسه ؛ فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[٨]

وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ! ﴾[٩]

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ البصر ، وما طغى ! ﴾[١٠] .

وزكاه كله ، فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ! ﴾[١١] .

صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ورزقنا الله شفاعتك وشرف المرافقة . .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .

فى أى الجامعات تخرج هذا النبى الأمى ؛ وعلى أى الأساتذة تلقى علومه ، إنه تخرج فى جامعة الأنبياء ، التى يقول فيها الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾[١٢].

وتلقى علومه من علام الغيوب الذى يقول .

﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[١٣].

وكان موضوع رسالته : القرآن .

وهو أعظم كتاب ، نزل به أعظم ملك ، على أعظم نبى فى خير ليلة فى أفضل شهر فى أكرم بلد !

قال تعالى فى حق القرآن العظيم : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[١٤].

---

(١) يوسف آية : ١٠٢
(٢) آل عمران : ٤٤
(٣) طه آية : ٩٩
(٤) هود آية : ١٢٠
(٥) النجم آية : ٢
(٦) النجم آية : ٣
(٧) النجم آية : ٤
(٨) النجم آية : ٥
(٩) النجم آية : ١١
(١٠) النجم آية : ١٧
(١١) القلم آية : ٤
(١٢) الأنبياء آية : ٢٥
(١٣) النساء آية : ١١٣
(١٤) الزخرف آية : ٤

وفى حق الملك : ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾[١]

وفى حق النبى ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٢] .

وفى حق الليلة : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾[٣] .

وقال فى حق الشهر الذى نزل فيه القرآن الكريم ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾[٤] .

وقال فى حق البلد الذى بدأ فيه نزول القرآن : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن ﴾[٥] .

من علم محمدا هذه الحقائق الغيبية ؟

إنه ﴿ عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ﴾[٦] .

ومن الذى علمه تلك الحقائق العلمية ، علم الأجنة وحقائق الأرحام ؛

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٧] !!

هل ذهب محمد ﷺ إلى المعامل ، وهل استعمل أنابيب الاختبار ، واستخدم التجربة ، واستعمل الآلات الدقيقة ، التى يستخدمها العلماء فى العصر الحديث .

بل من الذى علم محمدا ﷺ علوم البحر ؛

ذكروا أن المستر « براون » ـ أحد رجال البحرية البريطانية ـ درس القرآن ، فوقف عند قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾[٨] .

قرأ المستر (براون) هذه الآية الكريمه ، وأعمل فكرة فيها ، فوجدها قد اشتملت على حقائق ثابتة فى علوم البحار ، فسأل أحد علماء الهند المسلمين وقال له :

« أركب محمد نبيكم البحر ؛ »

قال العالم : لا

قال : (فمن الذى أخبره بعلوم البحر ؛ أشهد بأن هذا الكلام ليس كلام محمد ، إنما هو وحى من رب محمد) .

---

(١) التكوير آية : ٢٠
(٢) الأنبياء آية : ١٠٧
(٣) القدر الآيات : ١ ـ ٣
(٤) البقرة آية : ١٨٥
(٥) النمل الآيتان : ٩١ ، ٩٢
(٦) الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٧) المؤمنون الآيات : ١٢ ، ١٤
(٨) النور آية : ٤٠

وعندئذ نطق « براون » بالشهادتين ودخل الاسلام ، بسبب بحثه وإعمال فكره .

هذا هو الحق ينطق بلسان الصراحة والقوة ، عندما يتجرد العقل من الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء .

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه :

إن العقل البشرى فى مسيس الحاجة إلى رسالات السماء ، ولا يمكن أن يسلك طريق الحياة معتمدا على ذاته .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ العلامة رشيد رضا :

(إن حكمة الحكماء وعلومهم : آراء بشرية ناقصة ، وظنون لاتبلغ من عالم الغيب ، إلا أنه موجود مجهول ، وهى عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس ، وما كل من يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته ؛ إذ لاسلطان لها على وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الايمان وإسلام الاذعان والتعبد ، لأن النوع البشرى يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى بشريته ، واتفاقه فى علمه وحكمته ، وإنما يدين لمن يعتقد أن له سلطانا غيبيا عليه ، بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته ، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه ؛

ثم يستطرد الأستاذ العلامة فيقول :

وأضرب لهذا مثلا : إنه كان للفيلسوف الرئيس « ابن سينا » خادم متعلم ، فعجب بعلومه وفلسفته ، وكان يعجب منه : كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه ، وهو فى رأيه أعلم منه وأرقى ؟ .

وكان يكاشفه بذلك ، فيعرض عنه « ابن سينا » أو يوبخه ؛ فاتفق أن كانا فى مدينة « أصفهان » فى ليلة شديدة البرد ، كثيرة الثلج ، فأيقظ الرئيس « ابن سينا » خادمه فى وقت السحر ، وطلب منه ماء ليتوضأ به ؛ فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل ، ثم أيقظه الرئيس فى وقت أذان الصبح ، وطلب منه الماء ، فاعتذر بشدة البرد حتى إذا قال المؤذن :

أشهد أن محمدا رسول الله ، قال الرئيس لخادمه : (اسمع ماذا يقول المؤذن ؟ قال : إنه يقول : أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ ، قال الرئيس : الآن قد آن لى أن ابين لك ضلالك القديم ، إنك خادمى ، لا هم لك غير خدمتى ، وإنك أشد الناس إعجابا بى وإجلالا وتعظيما لى ، حتى إنك تفضلنى على رسول الله ﷺ، وتنكر على أن أومن به وأتبعه ، وإنك على هذا كله تخالف أمرى فى أهون خدمة أطلبها منك فى داخل الدار ، معتذرا بشدة البرد ، وإن هذا المؤذن الفارسى يخرج من بيته قبل الفجر ، ويصعد هذه المنارة ، وهى أشد مكان فى البلد بردا ، حتى إذا لاح له الفجر ، أشاد فى أذانه بذكر محمد العربى ، بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته ، إيمانا وإذعانا وتعبدا واحتسابا) ؟

فتأمل هذا وتدبره فى نفسك ، يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس ، وسلطان العلم والفلسفة . « انتهى كلامه » .

من الذى أرشد رسول الله ﷺ ، إلى هذه النظم القويمة وتلك المناهج السليمة : سياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، وأخلاقيا ، وعسكريا ، وعقائديا ؛

إنه الله الذى أقسم له قائلا : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم ﴾[1] .

* البعث حق *

بعد هذا الذى أسلفنا وثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، والقرآن حق ، والنبى ﷺ حق ، نقول إن كل ماجاءنا من الله ويلغه عنه رسوله ﷺ : فهو حق .

﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾[2] ﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾[3] .

ومن القضايا التى سجلها القرآن الكريم فى عديد من المواضع : أن هناك حياة مديدة وخالدة ، وأبدية ، ولا نهائية ، بعد مرحلة الدنيا وانتهائها ، إنها الحياة الآخرة !

لذلك أقسم الله فى عديد من آياته على أن البعث واقع وحق . . ، أقسم بالرياح الذاريات ، والسحب المثقلات ، والسفن الجاريات ، والملائكة المقسمات ، فقال ﴿ والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾[4] .

إذن : فجواب القسم هنا : هو صدق الوعد ووقع الجزاء ، حتى أن الله تعالى سمى البعث : بالنبأ العظيم ، وألقى باللائمة على الذين يختلفون فى شأنه : كيف يقع منهم ذلك ، وآيات الله البينات ناطقة بقدرته على ماهو أعظم منه شأنا وأبعد شأوا ؟

﴿ عم يتساءلون ؟ . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون ؟ . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ﴾[5] .

ثم يعدد آيات قدرته فيقول : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ؟ ! . إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾[6] .

ولما ثبت تقرير هذه المسألة ـ مسألة البعث ـ فى القرآن العظيم وأصبح العلم بها ضروريا ، نجد أن مولانا تبارك وتعالى : يقسم فى بعض المواضع ، على أن هذا الأمر حق ، ولا يذكر جواب القسم ، لأن السياق والسباق واللحاق يدل عليه :

يقول سبحانه : ﴿ ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون : هذا شىء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا ؛ ذلك رجع بعيد ﴾[7] .

فالله سبحانه قد أقسم بالقرآن المجيد ، ولكن أين جواب القسم ؛ إنه من الظهور والوضوح

---

(١) يس الآيات : ١ ـ ٤
(٢) الأحزاب الآيتان : ٤٥ ، ٤٦
(٣) المائدة الآية : ٦٧
(٤) الذاريات الآيات : ١ ـ ٦
(٥) النبأ الآيات : ١ ـ ٥
(٦) النبأ الآيات : ٦ ـ ١٨
(٧) ق الآيات : ١ ـ ٣

بحيث لايحتاج المخاطب إلى ذكره ، لأن السياق يدل عليه : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾[١] ؟ إذن : فليعلم أن جواب القسم تقديره « ليبعثن » .

وإذن : فليكن التقدير هكذا : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ليبعثن

وفى موضوع آخر يقسم الله تبارك وتعالى قائلا : ﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا ﴾[٢] .

على أى شىء يقسم الله بهذه الجماعات من الملائكة : التى تنزع الأرواح وتخرجها ، وتسبح بها ، وتسبق إلى تنفيذ أمر ربها ؟

إن جواب القسم معلوم الثبوت من قوله تعالى :

﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ . أئذا كنا عظاما نخرة ؟! ﴾[٣] .

وإذن : فليكن جواب القسم تقديره : « لتبعثن »

كل هذا دليل على أن البعث حق لامرية فيه ولا جدال بعد ماثبت من القضايا التى قررناها وبيناها أن الله حق والقرآن حق والنبى ﷺ حق .

وإذن : فما حقيقة البعث ؟

البعث بالروح والجسد :

﴿ وعرضوا على ربك صفا : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾[٤] .

أقوالهم فى البعث

ثار جدال حول هذه القضية :

فذهب بعضهم مذهبا باطلا وهم بعض الفلاسفة القدامى ، فقالوا :

إن البعث روحانى فقط ، وغفلوا عن أن قضية البعث ، لايكون العقل فيها هو المرجع فى ثبوت حقيقتها وكيفيتها وشكلها وجوهرها وموضوعها ، وإنما المرجع فى ذلك كله إلى الله وحده لاشريك له .

وقد تضافرت آيات الكتاب الكريم ، على أن البعث الانسانى : إنما هو بالروح والجسد . قال سبحانه وتعالى ـ فى حق المشركين : ﴿ يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾[٥]

---

(١) ق الآية : ١٥
(٢) النازعات الآيات : ١ ـ ٥
(٣) النازعات الآيات : ٦ ـ ١١
(٤) الكهف آية : ٤٨
(٥) القمر الآيات : ٦ ـ ٨

وقال فى حق البشرية جمعاء : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم : إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(١)

وقال أيضا : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾(٣) ، وقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ماكنتم تزعمون ﴾(٥) .

وقال سبحانه : ﴿ فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ : أين المفر ؟ ﴾(٦) . وقال أيضا : ﴿ وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾(٧) .

ففى التعبير بلفظ « الانسان » فى الآية الكريمة ، دليل صريح على أن البعث روحانى وجسمانى ، قال سبحانه : ﴿ ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾(٨) .

يقول العلامة الأستاذ رشيد رضا فى هذا الصدد :

« البعث الانسانى : جسمانى روحانى » كما جاء فى القرآن : مخالفا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء . . إن الانسان فى الحياة الأخرى ، يكون إنسانا كما كان فى الدنيا . إلا أن أصحاب الأنفس الزكية ، والأرواح العالية ، يكونون أكمل أرواحا وأجسادا مما كانوا عليه ، وذلك بتزكية أنفسهم فى الدنيا ؛ وأصحاب الأنفس الخبيثة ، والأرواح السافلة ، يكونون أنقص وأخبث مما كانوا ، وذلك بتدسية أنفسهم فى الدنيا .

ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين ، أن الأديان القديمة ، كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد ، إلا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم ، فيبعثون بها عينها ، ولكن بين القرآن أن كل من على الأرض فان ، وأنها تكون بقيام هباء منبثا . وقال علماء العقائد من أهل السنة : إن بعث الأجساد يكون بعد العدم التام .

(١) الحج الآيتان : ١ ـ ٢
(٢) الأعراف آية : ٣٠
(٣) الأنبياء آية : ١٠٤
(٤) الحج الآيتان : ٦ ، ٧
(٥) الأنعام آية : ٩٤
(٦) القيامة الآيات : ٧ ـ ١٠
(٧) الفجر الآية : ٢٣
(٨) يس الآيتان : ٥١ ، ٥٢

قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾[١] .

ولو كان البعث للأرواح وحدها ، لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق ، المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجسمانية ، ويتحقق حكم الله وأسرار صنعه فيهما معا ؛ : من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى ، والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحانى المجرد ، إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية ، مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصا فى الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها ، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها .

وأصل هذا الافراط ـ أو التفريط ـ غلو الهند فى احتقار الجسد ، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضيات الشاقة ، وتبعهم فيه نساك النصارى ، كما تبعوهم فى عقيدة الصلب والفداء والتثليث .

على أنهم نقلوا أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم فى الفصح ، وقال لهم : إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت ربى) (متى ٢٦ ـ ٢٩) .

وجرى اليهود على عكس ذلك .

وجاء الاسلام بالاعتدال ، فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا فى إنسانيته ، مرجحا لروحانيته على حيوانيته ، متزودا من دنياه لآخرته .

ويؤخذ مما ورد فى الآيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ، أن القوى الروحية ، تكون هى الغالبة والمتصرفة فى الأجساد ، فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة ، وقطع المسافات البعيدة فى المدة القريبة والتخاطب بالكلام ، بين أهل الجنة وأهل النار ، وإن ترقى البشر فى علم الكيمياء ، وخواص الكهرباء والصناعات فى عصرنا ، قد قرب كل هذا من حس الانسان ، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدونها من تخيلات سيدنا محمد ﷺ كما فى قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾[٢] .

وها نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوروبا بالمسرة ، ونسمع خطبهم بالمذياع ، ونراهم ويروننا بآلة التليفزيون أ . هـ وهكذا ينتهى بنا المطاف من هذا البحث ، إلى أن عقيدة المسلم الصحيحة فى قضية البعث ، أن الانسان سيبعث بروحه وجسده يوم القيامة .

قال سبحانه وتعالى فى أهل الجنة : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾[٣] .

---

(١) الواقعة الآيات : ٦٠ ـ ٦٢

(٢) الأعراف آية : ٤٤

(٣) مريم آية : ٨٥

وقال فى أهل النار : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾[١] .

وقال فى أهل الجنة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[٢] .

وقال فى أهل النار : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾[٣] .

فعليك ياأخا الاسلام أن تركز هذا المعنى فى قلبك ، وتعلم أنك ستخرج يوم القيامة من القبر بروحك وجسدك ، فاعتقد هذا لتلقى الله بعقيدة سليمة صحيحة ، تؤيد مانطق به القرآن الكريم ، المنزل على نبيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه .

الجزاء الأخروى

حسى ومعنوى

﴿ يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لايأكله إلا الخاطئون ﴾[٤] .

هذا المشهد القرآنى العظيم الرائع ، يبين لنا حقيقة القضية ، التى ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية البعث : ألا وهى قضية الجزاء فى الآخرة ، والتى ينطق بها الكتاب الكريم حيث يقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان : مالها ؟ يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[٥] .

ثم أن الجزاء فى الآخرة ، مظهر من مظاهر العدالة الالهية ، فقد شاءت حكمة الله العليا ، أن يلهم النفس فجورها وتقواها ، بعد مابين لنا طريق تزكيتها وتدسيتها ، وشاء جل شأنه ان يهدى الانسان السبيل :

إما شاكرا وإما كفورا ، بعد ماجعله سميعا بصيرا ، كما أراد سبحانه أن يهديه النجدين ، بعدما جعل له عينين ولسانا وشفتين .

ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة فى جلاء ووضوح فقال :

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٨ ـ ٣٧

(٢) سورة الزلزلة كاملة

(٣) مريم اية : ٨٦

(٤) القيامة الأيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٥) القيامة الأيتان : ٢٤ ، ٢٥

﴿ إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[١] .

إذن : فالطريق واضحة المعالم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٢] .

فالجزاء : عدالة إلهية : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾[٣] .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[٤] .

والقضية التى نعرض لها فى هذا البحث : تدور حول حقيقة الجزاء والعقيدة ، التى يجب أن يعتقدها المسلم هى : أن الجزاء فى الآخرة حسى ومعنوى .

وفى هذه القضية تعثرت أقلام وزلت أقدام وانفلت خيال بعض الكلقبين ، الذين اتبعوا فى بحثهم هواهم ، ولم يتبعوا هدى الله . فقد ذكروا أن الجزاء الأخروى معنوى فقط ، لا دخل له بالأمور الحسية ، وكانوا فى ذلك بعيدين كل البعد عن المصادر الأساسية ، التى تستقى منها المعلومات اليقينية ألا وهى : (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) وظنوا أن قولهم بمعنوية الجزاء ، يعطيهم سموا فى التفكير ، أو رقة فى الطبع ، وغفلوا عن أن الجانب الحسى فى الجزاء ، له أثره ، وله قيمته ومكانته فى الآخرة ؛ ثوابا كان أو عقابا ، وأن القضية ليست موضع إجتهاد ، أو قول بالرأى بعد مادل على ذلك صدق الأدلة القرآنية كما ظنوا أن القول بمعنوية الجزاء ، أمر يدعو إلى الرأفة بالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وغفلوا عن أن الذى قرر هذا الجزاء : هو الله ، أرحم الراحمين ، الذي يبسط يده بالليل ، ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسىء الليل والذى يقول فى الحديث القدسى الجليل : ﴿ أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى : فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ عنده ذكرته فى ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ﴾[٥]

لما قال إبليس لرب العزة : لأغوينهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، قال الله له : « لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى » إذن : فأى داع يدعو إلى أن نقول بأن الجزاء معنوى فقط ، بعدما تبين لنا فى البحث السابق ، أن البعث روحانى وجسمانى ؛ فإذا كان الروح والجسد متعاونين فى الدنيا على الخير والشر ، فإن منطق العدالة ، يقضى أن يكون الجزاء مطابقا لحالهما ، فهما مرتبطان متعاونان ، فلم يقتصر الجزاء على جانب واحد ، وهو جانب المعنويات ، بعدما تضافرت الأدلة على ثبوت الجانبين فى الجزاء : ثوابا كان أو عقابا ؟ .

---

(١) الليل الآيات : ٤ - ١٠ (٣) القلم آية : ٣٥

(٢) فصلت اية : ٤٦ (٤) ص الآيتان : ٢٧ - ٢٨

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ح ٩ ص ١٤٧ - ١٤٨ من رواية لأبى هريرة (انظر الصفحة التالية)

(٦) أخرجه البخارى « كتاب التوحيد » ج ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ من رواية لأبى هريرة .

وفى المشهد القرآنى الذى صدرنا به هذا البحث يلتقى الجزاء المعنوى بالجزاء الحسى ، بالنسبة لأهل الجنة وأهل النار :

فالجزاء المعنوى لأهل الجنة يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾[١] .

والجزاء الحسى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[٢] .

كما يتمثل الجزاء المعنوى لأهل النار فى قول كل منهم ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ﴾[٣] .

ندامة وخزى وذل وانكسار !

كما يتمثل الجزاء الحسى فى العقوبة فى قوله جل شأنه : ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[٤] .

وهل هناك أوقع على النفس بالنسبة لأهل النار ـ من الجهة المعنوية ـ من قوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾[٥] ومن الجهة الحسية فى قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾[٦] .

والغسلين : هو مايسيل من أجساد أهل النار !

ثم ماذا يقول القائلون بمعنوية الجزاء فى قوله جل شأنه :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾[٧] .

أليست الجنات حسية والأنهار حسية والثمرات حسية والازواج حسية .

وماذا يقولون فى قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٨] .

أليست النار حسية ؟

أليس نضج الجلود حسيا ؟

اليس ذوق العذاب حسيا ؟

إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، وإن اتباع الهدى أقوم سبيلا من غواية الهوى .

إننا كثيرا مانلمح آيات فى القرآن الكريم ، تجمع بين الجزاءين الحسى والمعنوى فى أسلوب رفيع وبلاغة معجزة .

(١) الحاقة آية : ٢١
(٢) الحاقة آية : ٢٤
(٣) الحاقة الآيات : ٢٨
(٤) الحاقة الآية : ٣٠ ـ ٣٢
(٥) الحاقة الآية : ٣٥
(٦) الحاقة الآية : ٣٦
(٧) البقرة الآية : ٢٥
(٨) النساء آية : ٥٦

منها قوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جناتٍ عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾[١] .

وإننا نلمح الجزاء الحسى واضحا فى الجنات والأنهار والمساكن ، ونلمح الجزاء المعنوى جليا فى الخلود ورضوان الله ، ونلمح الخاتمة السعيدة متمثلة فى الفوز العظيم .

كما تمثل الجزاء بالنسبة لجانب العقوبة حسيا ومعنويا فى قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٢] .

إنك ايها القارىء الكريم تلمح بوضوح الجزاء المعنوى متمثلا فى قوله جل شأنه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾

فلفظ (كلما) يفيد التكرار ولفظ : الغم يملأ جنبات النفس أسى ولوعة ، تكاد الكبد تنفطر منها ، والقلوب تنخلع من هولها .

وتلمح العذاب الحسى فى هذه الآية الكريمة متمثلا فى قوله جل شأنه : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾

وتعال معى لترى الجزاء الأخروى متمثلا فى سورة الرحمن ، التى إذا قرأها المؤمن بتدبر وإعمال فكر ، ومر بآيات العذاب فيها : شعر بأن زفير جهنم بين أذنيه ، فإذا مر بآية تبشر بالجنة : بكى شوقا إليها .

أقرأ معى هذه الآيات فى جزاء المجرمين ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[٣] .

أرأيت وسمعت الى هذه الأهوال الجسام ؟

المجرمون لهم علامات تميزهم : فهم سود الوجوه زرق العيون تأخذهم الزبانية أخذا عنيفا من نواصيهم

ومقدم رؤوسهم ومن أقدامهم ليطوفوا بين جهنم وبين ماء حميم بلغت درجة غليانه النهاية القصوى يصهر به مافى بطونهم والجلود ﴿ وإن يستغيثوا : يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[٤] .

صدقت يارسول الله يامن قلت وقولك الحق :

(اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ﴾[٥] .

---

(١) التوبة آية : ٧٢
(٢) الحج آية : ٢٢
(٣) الرحمن الآيات : ٤١ ـ ٤٤
(٤) الكهف آية : ٢٩
(٥) كنز العمال ج ١ ص ٦٠٩ برقم ٢٧٩٤ وحلية ج ٣ ص ١٠٣

ويامن قلت وقولك الصدق : ﴿ حركوا به القلوب وقفوا عند عجائبه ﴾

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى سمع قارئا يقرأ من سورة الطور : ﴿ والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ﴾ حتى إذا بلغ قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾[1] خر عملاق الاسلام مغشيا عليه ، لسماعه تلك الآية ، حتى لقد ذكروا أنه ظل مريضا شهرا كاملا ! تعال معى ياأخا الاسلام ، لنطوف برياض الجنة ، وننعم بوارف ظلها ، ونمتع النفس بروحها وريحانها .

قال سبحانه : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى الاء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[2] .

هنيئا لكم يامن فزتم بهذه الدرجة العليا من درجات الجنان ، يقول ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

« الجنتان : بستانان فى عرض الجنة » وكان لله حكمة أن يعطى المؤمن جنتين .

فقد قال بعض المفسرين : (إن فاكهة الدنيا قد يموت بعض الناس دون أن يأكلها ، فيخلقها له الله يوم القيامة فى جنة وفاكهة الآخرة : فى جنة)

والأفنان : هى الأغصان .

وإذا كانت بطائن الفرش من إستبرق ، وهو ماغلظ من الحرير ، فكيف تكون حال الظهارة .

والمراد بجنى الجنتين : ثمارها وقطوفها الدانية القريبة ، التى تنالها الأيدى دون عناء أو نصب .

وأما قاصرات الطرف : فالمراد بهن نساء الجنة .

والمراد أنهن حابسات العيون على أزواجهن ، لاينظرن إلى غيرهم ، وهؤلاء الأزواج المطهرة ، لم يفض بكارتهن إنس ولا جان ، وقد شبههن بالياقوت والمرجان : جمالا وصفاء ، هل جزاء الاحسان إلا الاحسان .

هذا منطق العدالة الالهية المطلقة .

اللهم إنا نسألك الفردوس يارب العالمين .

وتلك درجة عالية من درجات الجنة .

فتعال معى إلى درجة أخرى ينالها أقوام طبقا لأعمالهم :

قال سبحانه : ﴿ ومن دونهما جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما

---

(١) الطور الآيات : ١ ـ ٨

(٢) الرحمن الآيات : ٤٥ ـ ٦٠

تكذبان . فيهما عينان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما فاكهة ونخل ورمان فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾[1] .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة ، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾

ولعل القارىء إذا استعرض أوصاف الجنتين المتقدمين فى قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ واستعرض الجنتين المذكورتين فى قوله جل شأنه : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ لعله بعد هذا الاستعراض ، يجد أن كلا منهما اشتمل على الفاكهة والثمار ، والاتكاء على الأرائك ، والحور العين ، التى لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان .

ولعله بعد ذلك يسأل فيقول : فأين التفاضل إذن ، وقد اشتمل كل منهما على مااشتمل عليه الآخر ؟

والجواب على ذلك ، يظهر جليا فى ذلك الحديث الذى رواه البخارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (جنتان من فضة : آنيتها ومافيها ، وجنتان من ذهب : آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن)[2] . أخرجه الجماعة وورد فى الحديث أيضا فى قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

(المراد بالورق : الفضة)

وهذه الآيات عامة فى الجن والانس ، إذ مبنى الجزاء على العمل وعلى العمل وحده .

وإذن فالتفاضل ، إنما هو فى المادة التى اشتملت عليها كل من هذه الجنان ، كذلك فى علو درجاتها ، وفى قرب أصحابها من الله تعالى قال سبحانه : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[3] فقد ظهر التفاضل فى معادنها ومواد صنعها ، كما ورد فى الحديث الشريف .

أما معنى قوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ فإنهما شديدتا الخضرة من كثرة الرى ، حتى كأنهما تبدوان فى لون أسود .

أما العينان النضاختان ، فإنهما فوارتان ، تخرجان الماء بصورة بديعة ، ومنظر جميل .

ولعلك إذا قارنت الجنتين السابقتين بهاتين الجنتين :

تجد أن الله وصف الأولين بقوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾

---

(١) الرحمن الآيات : ٦١ - ٧٨

(٢) أخرجه البخارى : ج ٦ ص ١٨١/ أحمد ج ٤ ص ٤١١

(٣) الأنعام اية : ١٣٢

ووصف هاتين بقوله : ﴿ مدهامتان ﴾ والأول أعلى درجة ووصف الأوليين بقوله : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ والجرى أوقع فى النفس وأروع فى صوره .

ووصف الأوليين بقوله تعالى : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾

وأنت خبير بالفرق بين لفظ (كل) وبين الآية الثانية ، وقد وفد من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد : أفى الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها فاكهة ونخل ورمان قالوا : أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا ؟ قال : نعم وأضعاف ذلك قالوا : أفيقضون الحوائج ؟ قال : لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله مافى بطونهم من أذى)[1] .

فسبحانك ربى أعددت لأهل الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ : الحور العين ، والحور : جمع حوراء ، وهى التى صفا بياض عينيها وسوادهما ، والعين : جمع عيناء ، وهى واسعة العينين ، وقد وصف الله الحور فى الآيات الأولى بقوله تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ ووصفهن هنا بأنهن ﴿ مقصورات فى الخيام ﴾ والقاصرة : أفضل من المقصورة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ﴾ الوسائد وهى جمع وسادة وهذا مارآه الحسن البصرى رضى الله عنه .

والمراد بالعبقرى الحسان : هى البسط التى بلغت من الحسن والجمال مبلغ الغرابة والعجب ، وهذا رأى الحسن ايضا

ويحسن أن يكون العبقرى من كل شىء : أعجبه وأغربه وذلك وصف ينطبق على كل مافى الجنة .

وقد وصف الله أصحاب الدرجات الأولى بقوله : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ وليس ثمة أدنى ريب أن الأرائك ، التى يضطجعون عليها ، تكون أروع وأوقع فى النفس ، إذا كانت بطانتها من حرير خالص .

وقد ختم الله تعالى هذه السورة بقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ : فقد عظمت بركته ، وعمت رحمته ، وبلغت حكمته ، وهو الحقيق بالاكرام ، والعظمة والجلال .

وقد تخللت الآيات الكريمة ، آية تخاطب الثقلين من الجن والانس ، وهى قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

والاستفهام هنا يفيد الانكار ، الذى يؤدى معنى النفى : أى ليس هناك آية ولا نعمة من آلاء الله

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٨٢

ونعمه ، يكذب بها ، فقد ظهرت واضحة جلية : فبأى آية وبأى نعمة تكذبان يامعشر الجن والانس ؟ !

وتكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة فى تلك السورة ، التى اشتملت على ثمان وسبعين آية يدل على طبائع النفس البشرية ، التى انطوت على نسيان الجميل وجحود النعمة : ﴿ إن الانسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد ﴾[1]

فيا أخا الاسلام :

بادر بفعل الباقيات الصالحات ، لتكون من المقربين ، أو أصحاب اليمين ، الذين إذا دخلوا الجنة ، نادى مناد من قبل الله تعالى ، فقال ياأهل الجنة : ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبدا ولكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴾[2] . . ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[3] .

لاتركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

ونخلص من هذا البحث وسابقه إلى أن عقيدة المسلم فى البعث :

أنه روحانى وجسمانى ، وعقيدته فى الجزاء أنه حسى ومعنوى ، بهذا نطق صريح الكتاب وصحيح السنة .

من مشاهد القيامة

اعلم ياأخا الاسلام أن الله أعد الجنة لكل طائع ، ولو كان عبدا حبشيا ، وأعد النار لكل عاص ، ولو كان حرا قرشيا .

﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوم ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون . فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾[4]

---

(١) العاديات الآيتين : ٦ - ٧
(٢) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٥١ برقم ٣٢٩٧/ احمد ج ٣ ص ٩٥ ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ برقم ٢٢/ ٢٨٣٧
(٣) الأعراف آية : ٤٣
(٤) المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، تشيب له نواصي الأطفال ، وترتعد له العصبة أولو القوة ، وتخر من هوله الجبال هدا ، إنهم كانوا يتخذون من الناصحين محل سخرية واستهزاء ، يضحكون منهم ويسخرون بهم ، حتى اذًا ماذهبت السكرة وحلت الفكرة ، وذوى غصن الشباب ، وانفض السوق قالوا :

﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

ولكن علام الغيوب لاتنطلى عليه الحيلة ، ولا يخدع بهذه الأضاليل ، فقد قال لهم : ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾

وهل رد إبليس من حظيرة القدس والرحمة ، إلا بسبب الاعجاب بنفسه والاستكبار على غيره ؟ .

واذا كان سر الكبرياء قسامة الوجه ، وفراهة الجسم ، وشدة الأسر ، فأرسلها نظرة خاطفة إلى مااحتواه الجوف .

تعرف أن الانسان يكذب الناس بجمال عنوانه ، ويخدعهم عن خبيث أوضاره وأدرانه .

ثم خبرنى : هل لهذا الحسن بقاء ، وفى كل يوم تتعاور سطوره بالمحو والفناء ؟

وما خطب قوتك التى اتعبت بها ألسنة الفخار ؟ .

أن وعكة من حمى : كفيلة ، ان تعفى على هذا السراب ، وتطوى صفحات ذلك الكتاب .

فلا قوة ولا جمال ولا شباب !

وهل أنا وأنت وهو ، إلا حفنات تراب تمشى فوق التراب !

تعال معى يأخى ، لتسمع هذه الدرر الغوالى ، وتعى بقلبك هذه التوجيهات السامية ، التى وجهها سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه إلى الأمة فى لحظات حياته الأخيرة ، حيث دنا من الرفيق الأعلى :

رووا انه لما اشتد المرض على رسول الله ﷺ جزع المسلمون وأحاطوا بالمسجد ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ متوكئا على العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما وكان عليه الصلاة والسلام معصوب الرأس فجلس فى أسفل درجات المنبر وقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه

(أيها الناس : بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا أنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى .

فأوصيكم بالمهاجرين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لايعجل بعجلة أحد .

وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوأوا فى الدار والايمان من قبلكم ألم يشاطروكم الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنها وليعف عن مسيئها ألا وإنى سابق لكم وأنتم لاحقون بى ،

وإن موعدنا الحوض الا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفكف لسانه إلا فيما ينبغى)

سيدى ابا القاسم يارسول الله .

وأقمت بعدك للعباد شريعة	لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى والحقوق قضاء

لقد جئتنا ياأيها النور ، تحمل النور من مصدر النور ، لنقرأ فيك كتاب العجائب المنشور ، فأنت فينا يارسول الله ولن تزال على وجه الزمان ، آية الآيات مادامت الأرض والسموات ، وستظل فينا تعاليمك السماوية المصونة المرغية ، التى نفديها بالأرواح والآباء والأمهات .

لقد حق فيك قول الله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[1]

وكنت جديرا ، أن يجعل الله منك الأسوة الحسنة ، عندما خاطب الأمة فقال : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[2] .

لقد بنيت بقوة الايمان نفوسا ، وأقمت على نور اليقين قلوبا ، عرفت الطريق إلى الله .

مع العمرين

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم .. إن التشبه بالرجال فلاح

وهذه كلمة عن رجلين أحدهما صحابى ، والأخر تابعى ، وكلاهما من النماذج التى يحتذى بها ، فهما قد حكما المسلمين حكما قام على العدل والحق والزهد والنظافة ، فمن سار على هديهما هدى إلى صراط مستقيم ، وكان ممن يقول الله فيهم :

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[3]

إن الرجلين هما عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز

ومما يسرنى ويسعد قلبى ، أن أذكر هنا وصية لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يقدمها هدية خالصة إلى المؤمنين ، الذين يريدون وجه الله وجواره فى الآخرة .

وقبل أن أكتب هذه الوصية الغالية ، فإننى أذكر نبذة مختصرة عن هذا الخليفة العابد الزاهد ، خامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه وأرضاه :

ـ نسبه رضى الله عنه :

بينما كان الفاروق عمر رضى الله عنه ، يجوب شوارع المدينة ليلا ـ على عادته فى عسسه ـ ينفض

(١) الشورى آية : ٥٢

(٢) الأحزاب آية : ٢١

الليل عن أهل الريبة ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، إذا بصوت يخترق حجب الليل ، فيرعيه الفاروق سمعه ، ليتبين هذا الحوار العجب .

أم تقول لابنتها : دونك يابنتى هذا اللبن ، فامزجيه بالماء ؛

فتجيب الفتاة أمها : أو ماعلمت ياأمى بما كان اليوم من عزمة أمير المؤمنين ؟

فتقول الأم : وما كان من عزمته يابنية ؟

فتجيبها : أنه أمر مناديه ، فنادى ألا يشاب اللبن بالماء .

فتقول الأم : امزجى يابنتى اللبن بالماء ، فإنك بموضع لايراك فيه عمر ولا منادى عمر !

فتقول البنت : والله ياأمى ماكنت أطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا ، وإن استطعت أن أستخفى من عمر ، فكيف أستخفى من رب عمر ؟ !!

سمع أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ذلك الحديث كله ، وكان معه رجل يدعى « أسلم » فقال : ياأسلم : اعلم المكان ، واعرف الموضع ، وما إن تنفس الصبح ، حتى ذهب « أسلم » فى الوجه الذى ابتعثه إليه « عمر » باحثا متقصيا ، ثم عاد فأخبره أنها فتاة تعيش مع أمها ؛ وكلتاهما أيم لا بعل لها .

فما تردد عمر رضى الله عنه أن اختار هذه الفتاة ، التى أعجب بها وبكلامها وبأمانتها وخلقها لابنه (عاصم) ، فولدت لعاصم بنتا هى :

(ليلى بنت عاصم) ، وولدت (ليلى بنت عاصم) : (عمر بن عبد العزيز) الخليفة الزاهد .

ولا عجب بعدما أختار الله له هذه الغصون الطاهرة ، أن ينزع إلى جده ابن الخطاب رضى الله عنه .

فقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه (تخيروا لنطفكم ، فإن العرق دساس)[1] .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أشبه الناس بعمر بن الخطاب حزما ، وعزما ، وعدالة ، وورعا ، ووداعة ، وتواضعا ، وعزوفا عن الدنيا ومافيها من مفاتن ومتاع .

ولقد كان اتفاق كليهما فى الاسم من أعاجيب القدر ، فقد شاءت إرادة الله أن يسمى كل منهما « عمر »

وقد أراد الله أن تأتى الخلافة منقادة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، تجر أذيالها ، وهو عنها راغب وعنها زاهد ، فكان مثالا يحتذى به فى النزاهة والعدل والرحمة والزهد . . رضى الله عنه وأرضاه .

وبعد أن قدمنا هذا الموجز المختصر عن نشأة الخليفة الزاهد ، نأتى إلى وصيته الغالية فنقول : خطب المسلمين عقب توليه الخلافة فقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

(أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإن من عمل لآخرته كفاه الله أمر دينه ، وإن هذه الأمة لم تختلف فى

---

(١) اتحاف المتقين ج ٥ ص ٣٤٨

ربها ، ولا فى نبيها ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفت فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لاأعطى أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدى حقا) ؛

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس جميعا وقال : (ياأيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له .. أطيعونى ماأطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم) .

وهكذا تكون الوصايا النافعة :

تبدأ أولا بتقوى الله ، فإن التقوى هى السلاح الأقوى . هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل !! ثم انظر إلى بعد النظر ، وإشراق القلب ، حيث يؤكد عمر جقيقة من الحقائق الواقعية ، إن هذه الأمة ربها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، لااختلاف على شىء من هذه القضايا الثابتة ، فإذا وقع اختلاف فى صفوفها ، فلن يكون فى شىء من العقائد ، إنما سيكون الاختلاف على الدرهم ، والدينار ، والدنيا .

وقد سبق أن حذر المصطفى - ﷺ - من الدنيا حيث قال :

(إن هذه الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها : فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء)[1] .

وفى حديث آخر : (إن هذا المال خضر وحلو ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع)[2] .

صدقت ياسيدى يارسول الله :

إن الغنى وإن تكلم بـالخطأ	قالوا أصبت ، وصدقوا ماقالا
وإذا الفقير أصاب ، قالوا كلهم	أخطأت ياهذا ، وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المجالس كلها	تكسو الرجال مهابـة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة	وهى السلاح لمن أراد قتالا .

عبقريته رضى الله عنه :

وقد كان عمر بن عبد العزيز رجلا عبقريا عظيما ، إذ أنه طبق ماقاله تطبيقا عمليا ، فقد عمد فى اليوم الأول من خلافته إلى كل مظاهر الملك من مواكب مطهمة ، وسرادقات ضخمة ، وفرش فخمة ، فقال لمولاه « مزاحم » :

« يامزاحم : ضم هذا إلى بيت مال المسلمين » .

ودخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك فقال لها : (إن أردت صحبتى ، فردى مامعك من مال وحلى وجواهر إلى بيت مال المسلمين ، فإنه لهم .. فردته جميعه)

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ج ٢ ص ١٣٢٥ برقم ٤٠٠٠
(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٦ كتاب الرقاق

وفاطمة هذه : هى بنت أمير المؤمنين ، وأخت أمير المؤمنين ، وزوجة لأمير المؤمنين ، ولكن عمر أراد أن يكون معها ، كما قال بعض الحكماء :

ـ وقد حدد موقفه من الأغنياء فقال ـ : (يأكلون ونأكل ، ويلبسون ونلبس ، وعندهم فضل مال ينظرون إليه ، وهم فى القيامة محاسبون عليه ونحن منه براء) .

ذكروا أن هشام بن عبد الملك لما تولى الخلافة بعد أمير المؤمنين عمر ، عرض على أخته فاطمة زوجة عمر ، أن يرد عليها ماوضعه عمر فى بيت مال المسلمين ، من حليها وجواهرها وثيابها ، وقال لها : (قد مات عمر)

فقالت بلسان اليقين . ومنطق الحق المبين : (والله ماكنت لأرضيه وهو حى ، ثم أغضبه وهو ميت)

وأبت أن يرد عليها شىء من ذلك .

ولقد كان لعمر رضى الله عنه غلام اسمه « درهم » يحتطب له ، فسأله عمر يوما عما يقوله الناس ، فقال (درهم) : (وماذا عسى أن يقولوا ؟ الناس كلهم بخير ، وأنا وأنت بشر) .

فقال له عمر : « وكيف ذلك » ؟

قال : (إنى عهدتك قبل الخلافة عطرا ، لباسا ، فاره المركب ، طيب الطعام ، فلما وليت ، رجوت أن أستريح وأتخلص ، فزاد عملى شدة ، وصرت أنت فى بلاء) .

فقال عمر : (فأنت حر . اذهب عنى ودعنى وما أنا فيه) .

* فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام *

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

معانى المفردات

فضلا : أى أمرا عظيما فضلناه به على غيره ، والمراد به النبوة والزبور ، وقيل : ماخصه الله تعالى به على سائر الأنبياء من النعم ، كتسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وحسن الصوت ، وغير ذلك من النعم .

أوبى معه : أى سبحى معه ، ورجعى معه التسبيح قال تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾(١) .

قال القرطبى : فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه ، وأصغتْ إليه الطير ، فكأنها فعلت مافعل .

قال ابن قتيبه ! وأصل التأويب فى السير ، وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا ، فكأنه أراد : أو أبى النهار كله بالتسبيح معه إلى الليل . وقيل المعنى : سيرى معه حيث شاء ، من التأويب وهو السير .

سابغات : أى دروعا واسعات ، فذكر الصفة ، لأنها تدل على الموصوف والسابغات : الدروع الكوامل التى تغطى لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض .

وقدر فى السرد أى فى النسج ، والمراد اجعله على قدر الحاجة ، لاتجعل حلق الدرع صغيرة ، فتنفصم الحلقة ، ولا واسعة فلا تقى صاحبها السهم والرمح .

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود صفائح فكانت ثقالا ، فأمر بأن يجمع بين الخفة والحصانة ، ويقال لصانع الدروع سراد وزراد بإبدال السين بالزاى . والسرد : إتباع الشىء بالشىء من جنسه .

قال القرطبى : وأصل ذلك فى سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف .

عين القطر : قال الزجاج : القطر الصفر وهو النحاس . أذيب لسليمان وكان قبل سليمان لايذوب لأحد .

قال المفسرون : اجرى الله لسليمان عين الصفر ، حتى صنع منها ماأراد من غير نار ، كما ألين لداود الحديد بغير نار ، فبقيت تجرى ثلاثة أيام ولياليهن كمجرى الماء ، وإنما يعمل الناس اليوم مما أعطى سليمان .

قال القرطبى : (وتخصيص الاسالة بثلاثة أيام لايدرى مأخذه ، ولعله وهم من الناقل ، والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون الماء ، دلالة على نبوته .

يزغ : أى يعدل عن أمرنا الذى أمرنا به من طاعة سليمان ، يقال : زاغ أى مال وانصرف .

محاريب : أى قصور عظيمة ، ومساكن حصينة ـ قال القرطبى : المحراب فى اللغة كل موضع مرتفع ، وقيل للذى يصلى فيه محراب ، لأنه يجب أن يرفع ويعظم .

وروى عن أبى عبيدة أنه قال : المحراب أشرف بيوت الدار ، وقيل : هو مايرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾(٢) .

وقيل المراد بالمحاريب : المساجد ، ونقل عن قتادة أنها المساجد والقصور الشامخة ، وسمى القصر بالمحراب ، لأنه يحارب من أجله ، ومما يرجح هذا الرأى ، أن الله تعالى ذكر أنها من عمل الجن ، ولعل عمل القصور الضخمة الشامخة كان مما يستعصى على الناس فى ذلك الزمن ، لجهلهم بفن

---

(١) ص آية : ١٨

(٢) ص آية : ٢١

العمارة ؛ فكانت الجن مسخرة لسليمان لتعمل له تلك الأعمال التى يعجز عنها البشر .

وتماثيل : وهو فى اللغة : الصورة ، ومثل الشىء : صوره حتى كأنه ينظر إليه . قال فى اللسان : ومثل الشىء بالشىء سواه وشبهه به ، وجعله مثله وعلى مثاله ، والتمثال : اسم للشىء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله ، وأصله من مثلت الشىء بالشىء : إذا قدرته على قدره ، ومثال الشىء مايماثله ويحكيه ، ولم يرد فى القرآن هذا الوزن (تفعال) إلا فى لفظين : (تلقاء ، وتبيان) .

وقال القرطبى : « التمثال : كل ماصور على مثل صورة من حيوان ، أو غير حيوان .

وجفان : جمع جفنة ، وهى القصعة الكبيرة

قال أبو عبيدة : كان لعبد الله بن جدعان جفنة يأكل منها القائم والراكب ، وذكر المدائنى أنه وقع فيها صبى فغرق .

كالجواب : جمع جابيه ، وهى الحوض الكبير يجبى فيه الماء . أى يجمع .

قال المفسرون : كان الجن يصنعون لسليمان القصاع كحياض الابل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

راسيات : أى ثوابت ، يقال : رسا الشىء يرسو : إذا ثبت ، والمراد أنها لعظمها لاتنقل ، فهى ثابتة فى أماكنها ، ومنه قيل للجبال : رواسى قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات** ﴾[1] .

دابة الأرض : هى حشرة تسمى (الأرضة) تأكل الخشب وتنخره .

منسأته : المنسأة : العصا ، وهى (مفعلة) من نسأت الدابة : إذا سقتها .

قال الزجاج : وإنما سميت منسأة لأنه ينسأبها : أى يطرد ويزجر .

خر : سقط على الأرض أى سقط ميتا .

العذاب المهين : المراد به التكاليف والأعمال الشاقة التى كلف سليمان عليه السلام بها الجن .

قال المفسرون : كانت الانس تقول : إن الجن يعلمون الغيب ، الذى يكون فى المستقبل ، فوقف سليمان عليه السلام فى محرابه يصلى متوكئا على عصاه ، فمات ومكث على ذلك حولا ، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ، ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان ، فسقط على الأرض فعلموا موته . وعلم الانس أن الجن لاتعلم الغيب ، ولو علموا الغيب لما أقاموا هذه المدة الطويلة فى الأعمال الشاقة .

المناسبة وإجمال المعنى

يخبر المولى تعالى بما أنعم على عبده ورسوله (داود) عليه السلام ، من الفضل المبين ، والجاه العظيم ، حيث جمع له بين (النبوة والملك) والجنود ذوى العدد والعدد ، وما منحه إياه من الصوت

---

(١) المرسلات آية: ٢٧

الرخيم ، الذى كان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات . وإذا قرأ الزبور تقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات ، تكف عن طيرانها ، ثم تردد معه الزبور مع التسبيح والتمجيد ، معجزة له عليه السلام ، وقد آلان الله تعالى له الحديد ، حتى كان بين يديه كالعجين ، يصنع منه الدروع السابغة ، التى تقى الانسان شر الحروب ، كما قال تعالى : ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾[1] .

وكما أنعم الله على (داود) أنعم على ولده (سليمان) عليهما الصلاة والسلام ، فسخر له الريح ، وسخر الجن ، وعلمه لغة الطير ، وأسأل له عين النحاس ، فكانت عينا جارية تسيل بقدرة الله ، وكانت الريح تقطع به المسافات الشاسعة الواسعة ، فى ساعات معدودات ، تحمله مع جنده ، فتنتقل به من بلد إلى بلد ، وتسير به مسيرة شهرين فى أقل من نهار واحد (غدوها شهر ورواحها شهر) أى تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر أخر ، وكأنها (طائرة نفاثة) تحمل ذلك الجيش العرمزم ، وتنتقل به فى ساعات محدودات ، تقطع به مسيرة شهرين ، كما سخر له الجن يعمل بين يديه بأمره وإرادته ، مايعجز عنه البشر من القصور الشاخة ، والتماثيل العجيبة ، والقصاع الضخمة ، التى تشبه الأحواض ، والقدور الراسيات ، التى لاتتحرك لكبرها وضخامتها ، وأمره أن يشكر الله على هذه النعم .

ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه نحو سنة ، وهو ميت ، والجن لاتعلم ذلك ، حتى أكلت الأرضة العصا فكسرت ، وسقط على الأرض ، فعلموا حينئذ موته ، ولو كانوا يعلمون الغيب ، مامكثوا هذه المدة الطويلة مسخرين فى الأعمال الشاقة ، التى كلفهم بها سليمان عليه السلام .

ومناسبة قصة (داود) وولده (سليمان) عليهما السلام لما سبق من الآيات الكريمة هى : أن الكفار لما أنكروا البعث والنشور لاستحالته فى نظرهم ، أخبرهم الله عز وجل بوقوع ماهو مستحيل فى العادة ، مما لايمكنهم إنكاره ، من تأويب الجبال والطير وإلانة الحديد ، حتى كان بين يديه كالشمع ، أو كالعجين ، مع أنه جرم صلب ، وكذلك تسخير الريح لسليمان تحمله مع جنده ، وإسالة النحاس له حتى كان يجرى بقدرة الله كمجرى الماء ، وتسخير الجن تعمل له ماشاء ، وكل هذا أثر من آثار قدرة الله عز وجل ، فلا استحالة إذن ، لأن الله على كل شىء قدير ، وهذه هى وجه المناسبة بين هذه الآيات الكريمة ، والآيات السابقة .

التفسير

لطائف التفسير :

اللطيفة الأولى : خص الله تعالى نبيه (داود) عليه السلام ببعض الخصوصيات فسخر له الجبال

---

(١) الأنبياء آية : ٨٠

والطير تسبح معه ، وألان له الحديد ، وجمع له بين (النبوة والملك) كما جمع ذلك لولده (سليمان) عليه السلام ، وذلك من الفضل الذى أعطيه آل داود .

قال ابن عباس : كانت الطير تسبح مع داود إذا سبح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته ، وبكت لبكائه .

وقال وهب بن منبه : كان يقول للجبال : سبحى ، وللطير ، أجيبى ، ثم يأخذ فى تلاوة الزبور بصوته الحسن ، فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ، ولا يسمعون شيئا أطيب من ذلك .

اللطيفة الثانية : التنكير فى قوله تعالى : ﴿ **فضلا** ﴾ للتفخيم أى فضلا عظيما خصصناه به من بين سائر الأنبياء ، وقوله : ﴿ **منا** ﴾ فيه إشارة إلى أن هذا الفضل هائل ، لأنه صادر من الله تعالى مباشرة ، تكريما لنبيه داود ، كما قال تعالى عن العبد الصالح : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** ﴾[1] .

قال أبو السعود : وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ، فإن ماحقه التقديم إذا أخر ، تبقى النفس مترقبة له ، فإذا ورد يتمكن عندها فضل تمكن .

اللطيفة الثالثة : ذكر سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم ست عشرة مرة ، ولم يجىء ذكره لتوفيه قصة بتمامها ، وإنما هو لتعداد آلاء الله على سليمان ، فمنها ذكاؤه وبصره النافذ فى الحكم والقضاء ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾[2] ومنها تعليمه منطق الطير ﴿ **وورث سليمان داود وقال يأأيها الناس علمنا منطق الطير** ﴾[3] ومنها تسخير الريح له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ ومنها إسالة عين القطر وهو النحاس المذاب ، وفى القرآن إشارة إلى عملية صهر المعادن الصلبة ﴿ **وأسلنا له عين القطر** ﴾ ومنها تسخير الجن يعملون له مايعجز عنه البشر ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص**[4] وقوله ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ وقد أعطاه الله الجاه الكبير ، والسلطان الواسع ، والملك العظيم الذى لم يعطه أحد بعده ﴿ **قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى** ﴾[5] .

وكل هذا من الفضل الذى خص الله تبارك وتعالى به آل داود عله السلام

اللطيفة الرابعة : قال العلامة ابو السعود رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ **ياجبال أوبى معه والطير** ﴾ « فى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المخاطبين المطيعين لأمره تعالى ، المذعنين لحكمه . المشعر بأنه مامن حيوان وجماد وصامت وناطق ، إلا وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته ، من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى ، وكمال كبرياء سلطانه مالايخفى على أولى الألباب » .

---

(١) الكهف آية : ٦٥
(٢) الأنبياء آية : ٧٩
(٣) النمل آية : ١٦
(٤) ص آية : ٣٧
(٥) ص آية : ٣٥

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أى مسيرة شهر ، فهو على حذف مضاف ، والتقدير غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر ، وإنما وجب هذا التقدير ، لأن الغدو والرواح ليسا بالشهر ، وإنما يكونان فيه ، فتنبه له فإنه دقيق .

قال قتادة : (كانت الريح تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فهى تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين)

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ الآية فإن قيل : إن الاجتماع بالجن فيه مفسدة للانسان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطن وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[1] فكيف سخرت الشياطين لسليمان عليه السلام ؟

فالجواب : أن ذلك الاجتماع والتسخير كان بأمر الله عز وجل وتسخيره ، بدليل قوله : ﴿ بإذن ربه ﴾ فلم يكن فيه مفسدة ، وإنما كان فيه مصلحة لسليمان عليه السلام ، ولفظ الرب ينبىء عن التربية والحفظ والرعاية ، فسليمان عليه السلام كان فى حفظ الله ورعايته ، فلذلك لم يصله ضرر من جهتهم .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ فى الآية الكريمة إشارة دقيقة ، إلى أن الجن الذين كانوا مسخرين لسليمان ، لم يكونوا من المؤمنين ، وإنما كانوا من المردة الكافرين ، لأن سليمان لايعذب المؤمنين ، ولايذيقهم أنواع العذاب ، لأن كل رسول يكون رحيما بأتباعه ، ودل على هذا المعنى ايضا قوله تعالى : ﴿ مالبثوا فى العذاب المهين ﴾ لأن المؤمن لايكون فى زمان النبى فى العذاب المهين .

اللطيفة الثامنة

قوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ فيه إشارة إلى أن الشكر الوافر الكامل ، بالقلب واللسان والجوارح لايمكن أن يتحقق ، لأن التوفيق لشكر الله تعالى نعمة من الله ، تستدعى شكرا آخر لاإلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله ، فلا قدرة لأحد عليه و ﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[2] ومع ذلك فإن الشكر بقدر الطاقة قليل فى الناس ، والكفران لنعم الله أكثر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل كانت التماثيل مباحه فى شريعة سليمان عليه السلام ؟ يدل ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ﴾ على حل اتخاذ التماثيل ، وعلى أنها كانت مباحه فى شريعة سليمان عليه السلام ، فالقرآن الكريم صريح فى امتنان الله تعالى على (سليمان) بأن سخر له الجن تعمل له مايشاء من (محاريب ، وتماثيل ، وجفان

---

(١) المؤمنون الأيتان : ٩٧ ، ٩٨

(٢) البقرة آية : ٢٨٦

كالجواب ، وقدور راسيات) وتخصيص هذه الأشياء بالذكر فى معرض الامتنان ، دليل على جوازها ، وإذن من الله تعالى باتخاذها ، وللعلماء فى هذه الآية الكريمة أقوال نجملها فيما يلى :

١ ـ إن التماثيل التى أشار اليها القرآن كانت مباحة فى شريعة سليمان ، وقد نسخت فى الشريعة الاسلامية ، ومن المعلوم أن شريعة ماقبلنا إنما تكون شريعة لنا إذا لم يرد ناسخ ، وقد وجد هذا الناسخ ، فيكون اتخاذ التماثيل محرما فى شريعتنا قطعا .

ب ـ إن التماثيل التى كانت فى عهد نبى الله سليمان عليه السلام ، لم تكن تماثيل لذى روح من إنسان أو طير أو حيوان ، وإنما كانت تماثيل لما لاروح فيه له ، كالأشجار والبحار والمناظر الطبيعية ، فتكون شريعته عليه السلام موافقة لشريعتنا ، كما نبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الحكم الثانى :

ماهو حكم التماثيل والصور فى الشريعة الاسلامية ؟

نعى القرآن الكريم على التماثيل وشنع على من كان يعكف عليها ﴿ **ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟** ﴾[1] وندد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة ﴿ **أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون** ﴾[2]

وفى القرآن الكريم من قصص إبراهيم عليه السلام فى تحطيم الأصنام ، ماهو معروف ، وقد ورد أن رسولنا الأعظم ﷺ ، حطم الأصنام ، التى كانت فى جوف الكعبة ، والتى كانت على الصفا والمروة .

والدين الاسلامى دين التوحيد ، وعدو الشرك ، وليس فى الاسلام ذنب أعظم من الشرك ، ولذلك فقد كانت حملته الشديدة على الوثنية وعبادة الأصنام ، وحرمت الشريعة الاسلامية (التماثيل) لأنها تؤدى إلى ذلك المنكر الفاحش .

والسنة المطهرة جاءت بالنعى على التصوير والمصورين ، والنهى عن اتخاذ الصور والتنفير منها ، ولذلك فإن من المقطوع به أن الاسلام حرم التماثيل والتصاوير تحريما قاطعا جازما .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على التحريم . حتى كادت تبلغ حد التواتر . وسنعرض إلى ذكر بعض هذه النصوص فنقول ومن الله نستمد العون .

الأدلة القاطعة على تحريم التصوير

النص الأول : روى البخارى ومسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)[3]

---

(١) الأنبياء آية : ٥٢
(٢) الصافات الآيتان : ٩٥ ، ٩٦
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب ومسلم فى كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٩٢/٢١٠٧

النص الثانى : روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)[١] .

النص الثالث : روى البخارى ومسلم وأحمد عن أبى زرعه قال : دخلت مع أبى هريرة دار مروان ابن الحكم . فرأى فيها تصاوير وهى تبنى فقال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله عز وجل : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، أو فليخلقوا حبة ، أو فليخلقوا شعيرة)[٢] .

النص الرابع : روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له : إنى أصور هذه الصور فأفتن فيها ، فقال له أدن منى فدنا ، ثم قال : أدن منى فدنا ، حتى وضع يده على رأسه وقال : أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول :

(كل مصور فى النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه فى جهنم)[٣] .

قال ابن عباس : (فإن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ومالا روح فيه)

وفى رواية أخرى منه : سمعته يقول : (من صور صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا)[٤] ثم قال له ابن عباس : إن ابيت إلا أن تصنع ، فعليك بهذه الأشجار ، كل شيء ليس فيه روح)

النص الخامس : روى الشيخان وأصحاب السنن عن عائشة رضى الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها النبى ﷺ قام على الباب فلم يدخل ، قالت : فعرفت فى وجهه الكراهية ، فقلت يارسول الله ، أتوب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت ؟ فقال : مابال هذه النمرقة ؟ قلت اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها فقال : إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، فيقال لهم : أحيوا ماخلقتم ، وقال : إن البيت الذى فيه الصور لاتدخله الملائكة)[٥] .

النص السادس : روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى قال :

قال لى على رضى الله عنه : (ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته)[٦] .

النص السابع : (روى الستة عن عائشة رضى الله عنها قالت :

خرج النبى ﷺ فى غزاة فأخذت نمطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة فى وجهه ،

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس والزينة باب عذاب المصورين يوم القيامة ج ٧ ص ٢١٥ طبع الشعب وأخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٩٦/ ٢١٠٧

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠١/ ٢١١١

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧٠ برقم ٩٩/ ٢١١٠

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب/ مسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠٠/ ٢١١٠

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب/ ومسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٩٦/ ٢١٠٧

(٦) أخرجه أحمد ج ١ ص ٨٧/ ومسلم فى كتاب الجنائز ج ٢ ص ٦٦٦ برقم ٩٣/ ٩٦٩

فجذبه حتى هتكه وقال : (ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين !!
قالت عائشة : فقطعت منه وسادتين وحشوتها ليفا ، فلم يعب ذلك على)[١] .
النص الثامن : روى الشيخان والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت :
لما اشتكى النبى ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها (مارية) وكانت أم سلمة ، وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة ، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع ﷺ رأسه فقال : (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله)[٢]
أقول : هذه النصوص وأمثالها كثير ، تدل دلالة قاطعة على حرمة التصوير . وكل من درس الاسلام علم علم اليقين أن النبى ﷺ حرم التصوير ، واقتناء الصور وبيعها .
وكان يحطم مايجده منها ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، واتفق الأئمة الأربعة على تحريم الصور ، لم يخالف فى ذلك أحد .
ولبعض العلماء استثناء شىء منها . سنذكره فيما بعد . كما نذكر علة التحريم ، ونعرج بعد ذلك على حكم التصوير الشمسى (الفوتوغرافى) وننقل آراء العلماء فيه على ضوء النصوص الكريمة .

« العلة فى تحريم التصوير »

يظهر لنا من النصوص النبوية السابقة ، أن العلة فى تحريم التماثيل والصور ، هى (المضاهاة) والمشابهة لخلق الله تعالى يدل على ذلك :
أ ـ حديث : (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)[٣]
ب ـ وحديث : (إن أصحاب هذه الصور يعذبون : ـ يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)[٤] .
ج ـ وحديث (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . . فليخلقوا حبه ، أو فليخلقوا شعيرة)
فالعلة هى إذن : التشبه بخلق الله ، والمضاهاة لصنعه جل وعلا كما أن الحكمة أيضا فى تحريم التصوير هى : البعد عن مظاهر الوثنية ، وحماية العقيدة من الشرك ، وعبادة الأصنام ، فما دخلت الوثنية إلى الأمم الغابرة إلا عن طريق (الصور والتماثيل) كما دل عليه حديث أم سلمة وأم حبيبة السابق ، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام :
(أولئك كان اذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار خلق الله يوم القيامة) .
وقد روى أن الأصنام التى عبدها قوم نوح (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا) التى ذكرت فى القرآن الكريم فى سورة نوح ـ كانت أسماء لأناس صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم صورا ، تذكيرا بهم وبأعمالهم ، ثم انتهى الحال آخر الأمر إلى عبادتهم .

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧/ ٢١٠٧/ أحمد ج ٦ ص ٢٤٧
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب ٥٤ ج ١ ص ١١٨
(٣) سبق تخريجه ص ٦٧
(٤) سبق تخريجه ص ٦٧

ذكر الثعلبى عن ابن عباس : فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا ﴾[1]

أنه قال : هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن أنصبوا فى مجالسهم ، التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبدت من دون الله .

قال ابو بكر ابن العربى : (والذى أوجب النهى فى شريعتنا ـ والله أعلم ـ ماكانت عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام ، فكانوا يصورون ويعبدون ، فقطع الله الذريعة وحمى الباب)

قال ابن العربى : (وقد شاهدت بثغر الاسكندرية . إذا مات ميت صوروه من خشب فى أحسن صورة ، وأجلسوه فى موضعه من بيته ، وكسوه بزيه ان كان رجلا ، وحليتها ان كانت امرأة واغلقوا عليه الباب ، فإذا أصاب واحدا منهم كرب أو تجدد له مكروه ، فتح الباب عليه ، وجلس عنده يبكى ويناجيه ، حتى يكسر صورة حزنه بأهراق دموعه ، ثم يغلق الباب عليه وينصرف ، وإن تمادى بهم الزمان تعبدوها من جملة الأصنام) (أحكام القرآن لابن العربى ج ٣)

« أنواع الصور »

قسم العلماء الصور إلى قسمين :

١ ـ الصور التى لها ظل وهى المصنوعة من جبس ، أو نحاس ، أو حجر أو غير ذلك وهذه تسمى (التماثيل) .

ب ـ الصور التى ليس لها ظل ، وهى المرسومة على الورق ، أو المنقوشة على الجدار ، أو المصورة على البساط والوسادة ونحوها ، وتسمى (الصور) .

فالتمثال : ماكان له ظل ، والصورة ، مالم يكن لها ظل ، فكل تمثال صورة ، وليس كل صورة تمثالا .

قال فى لسان العرب : « والتمثال : الصورة ، والجمع التماثيل ، وظل كل شىء تمثاله ، والتمثال : اسم للشىء المصنوع شبها بخلق الله من خلق الله . وأصله : من مثلت الشىء بالشىء إذا قدرته على قدره ، ويكون تمثيل الشىء بالشىء تشبيها به ، واسم ذلك الممثل تمثال) . .

وقال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وتماثيل ﴾ جمع تمثال ، وهو كل ماصور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ، ونحاس ، ورخام ، وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا . .

فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟

قلنا : كان ذلك جائزا فى شرعه . ونسخ ذلك بشرعنا .

---

(١) نوح آية : ٢٣

مايحرم من الصور والتماثيل

يحرم من الصور والتماثيل مايأتى :

أولا : التماثيل المجسمة ، إذا كانت لذى روح من إنسان ، أو حيوان ، تحرم بالاجماع للحديث الشريف ، (إن الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ، ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب)[١] .

ثانيا : الصورة المصورة باليد لذى روح حرام بالاتفاق لقوله ﷺ :

(إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)[٢] ولحديث : (من صور صورة فى الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ)[٣] . « رواه أصحاب السنن »

ثالثا : الصورة إذا كانت كاملة الخلق ، بحيث لاينقصها إلا نفخ الروح ، حرام كذلك بالاتفاق لقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث السابق : (أمر أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) .

ولحديث عائشة : (دخل على رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام فيه صورة ، فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله . قالت عائشة : فقطعته فجعلت منه وسادتين : فكان النبى ﷺ يرتفق بهما)[٤]

* معنى : (قرام) ستر رقيق .

فهتكه عليه السلام للستر يدل على التحريم ، وتقطيع عائشة له وجعله وسادتين ، بحيث انفصلت أجزاء الصورة ، ولم تعد صورة كاملة ، تدل على الجواز ، فمن هنا استنبط العلماء ، أن الصورة ، إذا لم تكن كاملة الأجزاء فيها .

رابعا : الصورة إذا كانت بارزة تشعر بالتعظيم ، ومعلقة بحيث يراها الداخل حرام أيضا بلا خلاف ، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : (كان له ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله ﷺ : حولى عنى هذا ، فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا)[٥] . رواه مسلم ولحديث أبى طلحة عن عائشة قالت : (خرج النبى ﷺ فى غزاة فأخذت نمطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة فى وجهه ، فجذبه حتى هتكه وقال : إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين ، قالت : فقطعت منه وسادتين وحشوتهما ليفا ، فلم يعب ذلك على)[٦] . (رواه الستة) .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٥ برقم ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧/٢١٠٦ البخارى ج ٧ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ط الشعب ، ترغيب ج ٤ ص ٧٤ رقم ١٤

(٢) سبق تخريجه ص ٦٧

(٣) أخرجه البخارى ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب ومسلم ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠٠/ ٢١١٠

(٤) أخرجه البخار فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم باب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٩٢/ ٢١٠٦

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٨/ ٢١٠٧ ط الشعب

(٦) أخرجه مسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧/ ٢١٠٧ ط الشعب

« ماىباح من الصور والتماثيل »

ويباح من الصور والتماثيل مايأتى :

أ ـ كل صورة أو تمثال ماليس بذى روح ، كتصوير الجمادات ، والأنهار والأشجار ، والمناظر الطبيعية التى ليست بذات روح ، فلا حرمة فى تصويرها ، لحديث ابن عباس السابق حين سأله الرجل إنى أصور هذه الصور فأفتنى فيها ؟ فأخبره بحديث رسول الله ﷺ ، ثم قال له ابن عباس : (إن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ، وما لاروح له) .

ب ـ كل صورة ليست متصلة الهيئة ، كصورة اليد وحدها مثلا ، أو العين أو القدم ، فإنها لاتحرم ، لأنها ليست كاملة الخلق ، لحديث عائشة :

(فقطعتها فجعلت منها وسادتين فلم يعب ﷺ ذلك على) .

ج ـ ويستثنى من التحريم (لعب البنات) لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ تزوجها وهى بنت سبع سنين وزفت إليه وهى بنت تسع ولعبها معها ، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة) . رواه مسلم .

وروى عنها أنها قالت : (كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معى)

* معنى (ينقمعن) أى يتغيبن من البيت حياء منه ﷺ .

ـ معنى : (يسربهن) أى يرسلهن ويبعثهن .

قال العلماء : وإنما أبيحت لعب البنات للضرورة إلى ذلك ، وحاجة البنات ، حتى يتدربن على تربية أولادهن ، ثم إنه لابقاء لذلك ، ومثله مايصنع من الحلاوة أو العجين لابقاء له ، فرخص فى ذلك والله أعلم .

* أقوال العلماء فى التصوير

قال القاضى ابن العربى : مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء :(إلا ماكان رقما فى ثوب) فخص من جملة الصور ،

ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب المصدر : (أخريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا)[1] .

ثم بهتكه الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ، لقولها فى النمرقة المصورة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها ، فمنع منه وتوعد عليه ، ثم نسخه المنع منه ، فهكذا استقر الأمر فيه .

(١) أخرجه البخارى باب اللباس ج ٧ ص ٢١٦

وقال أبو حيان : (والتصوير حرام فى شريعتنا ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، ولبعض العلماء استثناء فى شىء منها ، وفى حديث (سهل بن حنيف) : لعن الله المصورين)[١]، ولم يستثن عليه السلام ، وحكى أن قوما أجازوه ، قال ابن عطيه : وما أحفظ من أئمة العلم من يجوزوه .

وقال الألوسى : (الحق أن حرمة تصوير الحيوان كاملا لم تكن فى شريعة سليمان عليه السلام ، وإنما هى فى شرعنا ، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل ، أو لاتكون كذلك كصورة الفرس المنقوشة على كاغد ، أو جدار مثلا ، وقد ورد فى شرعنا من تهديد الوعيد على المصورين ماورد ، فلا يلتفت إلى غيره ، ولا يصح الاحتجاج بالآية)

وقال القرطبى : (لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن ، وقال : (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ماخلقتم)[٢] .

وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق يقول : إنى وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين)[٣] .

وفى البخارى : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون)[٤] يدل على المنع من تصوير أى شىء كان .

وقال الامام النووى : إن جواز اتخاذ الصور ، إنما هو إذا كانت لاظل لها ، وهى مع ذلك مما يوطأ ويداس ، أو يمتهن بالاستعمال كالوسائد .

وقال العلامة ابن حجر فى شرحه للبخارى : (حاصل ما فى اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسام حرم بالاجماع) وإن كانت رقما فى ثوب فأربعة أقوال :

الأول : يجوز مطلقا عملا بحديث إلا رقما فى ثوب .

الثانى : المنع مطلقا عملا بالعموم .

الثالث : إن كانت الصورة باقية بالهيئة ، قائمة الشكل حرم ، وإن كانت مقطوعة الرأس ، أو تفرقت الأجزاء جاز ، قال : وهذا هو الأصح .

الرابع : إن كانت مايمتهن جاز وإلا لم يجز ، واستثنى من ذلك لعب البنات .

« حكم التصوير الفوتوغرافى »

يرى بعض المتأخرين من الفقهاء ، أن التصوير الشمسى (الفوتوغرافى) لايدخل فى دائرة

---

(١) أخرجه البخارى فى باب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٩٦/ ٢١٠٧

(٣) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ١٠٣ برقم ٢٧٠٠

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٧٠ كتاب اللباس برقم ٩٨/ ٢١٠٩

التحريم الذى يشمله التصوير باليد المحرم ، وأنه لاتتناوله النصوص النبوية الكريمة ، التى وردت فى تحريم التصوير ، إذ ليس فيه (مضاهاة) أو مشابهة لخلق الله ، وأن حكمه حكم الرقم فى الثوب المستثنى بالنص .

يقول فضيلة الشيخ السايس مانصه :(ولعلك تريد أن تعرف حكم مايسمى بالتصوير الشمسى ، فتقول : يمكنك أن تقول إن حكمها حكم الرقم فى الثوب ، وقد علمت استثناءه نصا ، ولك أن تقول : إن هذا ليس تصويرا . بل حبسا للصورة ، وما مثله إلا كمثل الصورة فى المرآة . لايمكنك أن تقول إن مافى المرآة صورة ، وإن أحدا صورها .

والذى تصنعه آلة التصوير هو صورة لما فى المرآة ، غاية الأمر أن المرآة (الفوتوغرافية) تثبت الظل الذى يقع عليها ، والمرآة ليست كذلك ، ثم توضع الصورة أو الخيال الثابت (العفريتة) فى حمض خاص فيخرج منها عدة صور .

وليس هذا بالحقيقة تصويرا ، فإنه إظهار واستدامة لصور موجودة . وحبس لها عن الزوال ، فإنهم يقولون : إن صور جميع الأشياء موجودة غير أنها قابلة للانتقال بفعل الشمس والضوء ، مالم يمنع من انتقالها مانع ،

والحمض هو ذلك المانع ، ومادام فى الشريعة فسحة بإباحة هذه الصورة كاستثناء الرقم فى الثوب ، فلا معنى لتحريمها ، خصوصا وقد ظهر أن الناس قد يكونون فى أشد الحاجة إليها .

أقول : إن التصوير الشمسى (الفوتوغرافى) لايخرج عن كونه نوعا من أنواع التصوير ، فما يخرج بالآلة يسمى (صورة) . والشخص الذى يحترف هذه الحرفة ، يسمى فى اللغة والعرف (مصورا) فهو وإن كان لايشمله النص الصريح ، لأنه ليس تصويرا باليد ، وليس فيه مضاهاة لخلق الله إلا أنه لايخرج عن كونه ضربا من ضروب التصوير ، فينبغى أن يقتصر فى الاباحة على (حد الضرورة) ، وما يتحقق به من المصلحة ، قد يكون إلى جانبها مفسدة عظيمة ، كما هو حال معظم المجلات اليوم ، التى تنفث سمومها فى شبابنا ، وقد تخصصت للفتنة والاغراء ، حيث تصور فيها المرأة بشكل يندى له الجبين ، بأوضاع وأشكال تفسد الدين والأخلاق .

فالصور العارية ، والمناظر المخزية ، والأشكال المثيرة للفتنة ، التى تظهر بها المجلات الخليعة ، وتملأ معظم صفحاتها بهذه الأنواع من المجون ، مما لايشك عاقل فى حرمته ، مع أنه ليس تصويرا باليد ولكنه فى الضرر والحرمة أشد من التصوير باليد .

ثم إن العلة فى التحريم ، ليست هى (المضاهاة) والمشابهة لخلق الله فحسب ، بل هناك نقطة جوهرية ينبغى التنبه لها وهى أن (الوثنية) مادخلت إلى الأمم السابقة إلا عن طريق (الصور) حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح ، صوروه تخليدا لذكراه ، واقتداء به ، ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوا تلك الصورة من دون الله ، فما يفعله بعض الناس من تعليق الصور الكبيرة المزخرفة فى صدر البيت ، ولو كانت للذكرى ، وليس تصويرا باليد ، مما لاتجيزه الشريعة الغراء ، لأنه قد يجر فى المستقبل إلى تعظيمها وعبادتها ، كما فعل أهل الكتاب بأنبيائهم وصلحائهم .

فإطلاق الاباحة فى التصوير الفوتوغرافى ، وأنه ليس بتصوير ، وإنما هو حبس للظل ، مما لاينبغى أن يقال ، بل يقتصر فيه على حد الضرورة ، كإثبات الشخصية ، وكل مافيه مصلحة دنيوية مما يحتاج الناس إليه والله تعالى أعلم .

الشبه الواردة على تحريم التصوير

يذهب بعض أدعياء العلم ، ممن تأثروا بالثقافة الغربية ، إلى إثارة بعض الشبه على تحريم التصوير ، بقصد التزلف إلى الحضارة الغربية ، والاندماج فيما خيل لهم أنه فن راق ، وذوق سليم ، أو بقصد التقرب إلى المترفين ومسايرتهم على أهوائهم ، لينالوا بعض المناصب .

الشبهة الأولى :

يزعمون أن ماورد من نصوص فى تحريم التصوير ، إنما هو إجراء موقت اقتضته ظروف الدعوة الاسلامية ، لمجابهة الشرك والوثنية ، وأن الغاية هى قطع الطريق على الوثنيّة ، فلما زال الخوف من عبادة الأوثان والأصنام زالت الحاجة إلى تحريم التصوير .

وللرد على هذه الشبهة سنكتفى بنقل كلام فضيلة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى دحض هذه الشبهة ، حيث جاء فى تعليقه على الحديث آ ٧١٦٦/ من المسند مانصه :

(وكان من حجة أولئك ، أن تأولوا النصوص بعلة لم يذكرها الشارع ، ولم يجعلها مناط التحريم ، هى ـ فيما بلغنا ـ أن التحريم ، إنما كان أول الأمر لقرب عهد الفاس بالوثنية ، أما الآن وقد مضى على ذلك دهر طويل ، فقد ذهبت علة التحريم ، ولا يخشى على الناس أن يعودوا لعبادة الأوثان ، وقد نسى هؤلاء مابين أيديهم من مظاهر الوثنية الحقة ، بالتقريب إلى القبور وأصحابها ، واللجوء إليها عند الكروب والشدائد ، وأن الوثنية عادت إلى التغلغل فى القلوب دون أن يشعر بها أصحابها .

وكان من أثر هذه الفتاوى الجاهلة ، أن ملئت بلادنا بمظاهر الوثنية الكاملة ، فنصبت التماثيل ، وملئت بها البلاد ، تكريما لذكرى من نسبت إليه وتعظيما ، ثم يقولون لنا : إنها لم يقصد بها التعظيم . ثم صنعت الدولة ـ وهى تزعم أنها إسلامية فى أمة مسلمة ـ معهدا للفنون الجميلة . . معهدا للفجور الكامل الواضح . يدخله الشبان الماجنون ، من الذكور والاناث ، يقفن عرايا ، ويضطجعن عرايا ، وعلى كل وضع من الأوضاع الفاجرة ، لايسترون شيئا ، ثم يقولون لنا : هذا فن .

الشبهة الثانية : يقولون : إن الأحاديث الدالة على التحريم ، هى أحاديث آحاد ولاتفيد القطع ، وإنه لايمكن ان ننسب الى الاسلام تحريم (فن) من الفنون مالم يكن هناك نص قطعى بالحرمة .

وللرد على هذه الشبهة نقول : (هذا جهل فاضح بأحكام الشريعة الغراء ، فإن كل ماثبت عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو عمل ، يجب الأخذ به سواء كان النقل بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد ، هذا متفق عليه بين العلماء ، ومن المعلوم بالضرورة أن أكثر الأحكام الفقهية الشرعية ، إنما ثبتت بخبر الآحاد ، فلو كانت أخبار الآحاد لاتفيد القطع ـ كما زعموا ـ لضاعت أكثر أحكام الشريعة

وهذا كلام لايصدر عن فقيه عالم ، إنما يصدر عن جاهل بأصول الشريعة الغراء ، وطرق استنباط الأحكام .

ومن المفارقات العجيبة أن الذين يحتجون بأمثال هذه الحجج الواهية ، يأخذون بأحاديث - لاثبات رأيهم - لاتصلح للاحتجاج لنكارتها ، وضعف سندها - وجهل رواتها ، ولكنها لما كانت موافقة لأهوائهم يتمسكون بها ، ويجادلون بشأنها ، شأن أهل الأهواء ، وقد ردَّ الأصوليون وفى مقدمتهم الامام الشافعى رحمه الله على هذه الشبهة ردا شافيا ، وبينوا أن خبر الآحاد يلزم العمل به إذا ثبت ، ولم يزل العلماء المسلمون يعملون بأخبار الآحاد ويحتجون بها ، لأن فى إبطالها إبطالا لأكثر أحكام الشريعة .

ومن جهة ثانية فإن النصوص الواردة فى تحريم التصوير بلغت حد التواتر ، وتناقلها المسلمون جيلا عن جيل فلا مجال للمتشككين ان يدخلوا من هذا الباب ، ونزيدك علما بأن الشعوب الاسلامية لم يوجد فيها تصوير اونحت بقدر كبير ، وأن الفنانين المسلمين انصرفوا عن التصوير ، وصنع التماثيل ، إلى استخدام النقش الهندسى ، والتزيين العربى ، والتشكيل النباتى وغيرها ، وكل ذلك بسبب ما يعلمون من تحريم الاسلام للتصوير . فلو لم يكن فى اعتقادهم محرما لما تركوه وانصرفوا إلى غيره ، ويكفى هذا للرد على أولئك الزاعمين .

الشبهة الثالثة : -

يستشهدون على إباحة التصوير بآيات من القرآن الكريم ، لا يصح الاحتجاج بها لأنها ليست من شريعتنا ، وإنما هى من الشرائع السابقة المنسوخة بشريعة الاسلام ، منها الآية الكريمة التى هى موضوع بحثنا وهى قوله تعالى : ﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور** ﴾..

فإن هذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على حل التصوير ، لانها إخبار عما كان يعمله الجن لسليمان عليه السلام ، وليس فيها ما يدل على ان التماثيل كانت لذى روح ، ومع ذلك فإنها شريعة سابقة ، وقد نص العلماء على ان (شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يرد ناسخ) وقد ورد الناسخ فى الشريعة الاسلامية فلا حجة فيها .

وهذه القاعدة متفق عليها بين علماء المسلمين ، فالسجود بقصد التحية لغير الله تعالى كان جائزا فى شريعة يوسف عليه السلام ، وقد حرمه شرعنا فلا يصح الاحتجاج بما ذكرهُ الله من سجود اخوة يوسف له على إباحة السجود لغير الله ، وشريعتنا ناسخة لما قبلها من الشرائع وقد حرمت التماثيل فلا يصح الاحتجاج بهذه الآية الكريمة والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : الفضل العظيم الذى خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام .
ثانيا : تسبيح الجبال والطير مع النبى (داود) كان معجزة له عليه السلام .
ثالثا : الصناعات والحرف لا تحط من قدر الانبياء ، فداود عليه السلام علمه الله صنع الدروع .
رابعا : سخر الله لسليمان الريح تجرى بأمره ، كما سخر لأبيه الجبال والطير تكريما له عليه السلام .
خامسا : الجن كانت تعمل لسليمان عليه السلام ما يعجز عنه البشر من الأعمال بأمر الله تعالى .
سادسا : صنع التماثيل كان مباحا فى شريعة النبى سليمان عليه السلام ثم نسخ فى الشريعة الاسلامية .
سابعا : منصب (النبوة) أعلى من منصب (الملك) وقد جمع الله لسليمان بين النبوة والملك .
ثامنا : فضل الله عظيم على عباده وخاصة منهم الأنبياء فعليهم ان يشكروا الله على نعمته .
تاسعا : الجن لا تعلم الغيب ولو كانت تعلمه لعرفت موت سليمان عليه السلام وما بقيت فى الأعمال الشاقة .
* خاتمة البحث

حكمة التشريع

جاءت الشريعة الاسلامية الغراء ، والناس فى وثنية غارقة ، قد تدهورت احوالهم ، وانحطت اوضاعهم ، حتى وصلوا إلى درجة عبادة (الأوثان والأصنام) وقد كان حول الكعبة المعظمة ثلاثمائة وستون صنما ـ بعدد أيام السنة ـ كلها آلهة تعبد من دون الله ، فلما فتح عليه الصلاة والسلام مكة حطمها بنفسه فلم يبق لها أثرا وهو يردد قوله تعالى : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾[1] .

وقد دخلت هذه الوثنية إلى العرب ، عن طريق اهل الكتاب ، وبسبب التماتيل والتصاوير ، وانتشرت بينهم انتشار النار فى الهشيم ، حتى غدت الجزيرة العربية مهدا للوثنية ، ومركزا لعبادة الأوثان والاصنام ، فلما جاء الاسلام حرم الصور والتماثيل ، وكل ما يدعو إلى (الوثنية) من قريب أو بعيد ، وحمل حملة شعواء على المصورين ، فمنع من تصوير كل ذى روح . حماية للعقيدة وصيانة للأمة ،

(١) الآية : ٨١ من سورة الاسراء

وتطهيرا للمجتمع من لوثة الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك اقتلع الاسلام الوثنية من جذورها ، وقضى على الشرك فى مهده ، وطهر الجزيرة من كل مظاهر الوثنية والاشراك .

وقد يقول قائل : ان الوثنية قد انقضى زمانها بالتقدم الفكرى عند الانسان ، فلم يعد هناك من يعبد الأصنام والأوثان ، فلم إذن تبقى حرمة التصوير ؟

والجواب : ان العقل البشرى معرض للانتكاس فى كل حين وزمان ، ولا يستبعد ابدا ان يؤدى نصب التماثيل فى الشوارع العامة ، وانتشار الصور فى المحلات والبيوت إلى تعظيمها وعبادتها فى المستقبل ، كما فعل من سبقنا من الأمم حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح صوروه ونصبوا هذه الصور فى أماكن بارزة ليتذكروا سيرته وأعماله ، ثم جاء من بعدهم فعظموها ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوها من دون الله .

وإذا كنا نجد فى هذا العصر بالذات من المتناقضات ما يطير له عقل الانسان فرقا ، حيث طغت الرذائل على الفضائل ، وتبدلت المفاهيم والقيم الاخلاقية ، وأصبحت مظاهر (الهمجية) من التكشف والعرى ، والخلاعة والمجون ، تعتبر فى هذا العصر من مظاهر (الرقى والتقدمية) ، فأى انسان لا يخاف على مستقبل البشرية وهو يرى هذه العجائب والغرائب ، تتمثل لعينيه والصور المضحكة المبكية .

ثم إننا لا نزال نرى فى هذا العصر الذى يسمونه ـ عصر النور ـ من لا يزال يعبد البقر ويتبرك بأرواثها ، فكيف نطمئن على العقلية البشرية من التردى نحو الهاوية ؟ إن الذى يعبد البقر لا يستبعد عليه ان يعبد الصور ؟ لذلك فإن التحريم شريعة الله وسيظل هذا التشريع فوق عقول البشر ؛ لانه شرع الله ودينه الخالد .

قصة سبأ

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

معانى المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان والمراد به هنا القبيلة .

والمسكن : موضع السكن وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب .

جنتان : اى بستانان

فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم

والعَرِم : واحدها عَرِمة وهى الحجارة المركومة كخزان اسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبى النيل وكانت له ثلاثة ابواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع امام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل .

والأكل : الثمر

الخمط : كل شجرة مرة ذات شوك .

الاثل : الطرفاء وهو المعروف فى مصر (بالأتل)

والسدر : شجر النبق .

القرى التى بارك فيها : هى قرى الشام .

قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الآكام وهى أصح القرى .

وقدرنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ومن سار من بعد الظهر وصل الى أخرى حين الغروب فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية و لايخاف من عدو ولا سبع .

آمنين : أى من كل ما يكرهون وظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بطروا النعمة .

والأحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب .

ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق

الصبار : كثير الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى شاق الطاعات .

والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

صدق عليهم ابليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا لانهماكهم فى الشهوات واستفراغ الجهد فى اللذات .

سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة .
حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين اليه أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب موعظة لقريش وتحذيرا لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

وبعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

وبعد أن ذكر جلت قدرته قصص سبأ وما كان من أمرهم فى اتباع الهوى والشيطان أردف ذلك الاخبار بأنهم صدقوا ظن ابليس فيهم وفى امثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لا سلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[1] .

التفسير

قال الامام احمد بسنده عن عبد الرحمن بن دعله قال سمعت ابن عباس يقول ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم (بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والاشعريون وأنمار وحمير واما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان)[2] رواه عن عبد الحسن بن مرسى عن ابن لهيعة به وهذا اسناد حسن .

معلومة تاريخية

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس من جملتهم وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تبارك وتعالى اليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ شذر مذر .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر
(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند عبد الله بن عباس ح ١ ص ٣١٦

قال علماء النسب ـ منهم محمد بن اسحق ـ اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وانما سمى سبأ ، لأنه أول من سبأ فى العرب وكان يقال له الرائش ؛ لانه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه فسمى الرائش والعرب تسمى المال ريشا ورياشا وذكروا انه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه المتقدم .

وقال فى ذلك شعرا :

سيملك بعدنا ملكا عظيما	نبى لا يرخص فى الحرام
ويملك بعده منهم ملوك	يدينون القياد بكل دامى
ويملك بعدهم منا ملوك	يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبى	تقى مخبت خير الأنام
يسمى احمد ياليت أنى	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى	بكل مدجج ولكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه	ومن يلقه يبلغه سلامى

ومعنى قوله ﷺ (فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم اربعة) .

أى بعد ما ارسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من اقام ببلادهم ومنهم من نزح عنها إلى غيرها .

وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الاشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحهن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة : إن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ؟ وهو الذى تغترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه ... انه وكان هذا السد بمارب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب وذكر آخرون ...دهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه .

كما قال تبارك وتعالى ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ﴾

ثم فسرها بقوله ـ عز وجل ـ ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أى من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أى غفور لكم ان استمررتم على التوحيد وقوله تعالى : ﴿ فأعرضوا ﴾ أى عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطن أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٢٢ إلى ٢٦ من سورة النمل

قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ وقد ورد فى تفسير العرم أقوال : قيل المراد به المياه وقيل الوادى وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع .

وذلك غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله ـ عز وجل ـ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته قال وهب بن منبه وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره الجرذ نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء فى أسفل الوادى وضرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراسانى والحسن وقتادة والسدى وهو الأراك وأكلة البرر (وأثل) قال العوفى عن ابن عباس هو الطرفاء وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله اعلم .

وقوله ﴿ وشىء من سدر قليل ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدلِ بها هو السدر قال : ﴿ وشىء من سدر قليل ﴾ فهذا الذى صار أمر تينك الجنتين اليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور ﴾ أى عاقبناهم بكفرهم وللمفسرين فى هذه العبارة أقوال قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور وقال ابن ابى حاتم عن هشام بن صالح التغلبى عن ابن خيره وكان من أصحاب على رضى الله عنه قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة والضيق فى المعيشة والتعسر فى اللذة قيل : وما التعسر فى اللذة قال لا يصادف لذة حلالا إلا جاءه من ينغصه إياها قوله تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

المراد بالقرى التى باركنا فيها إما أن تكون قرى بصنعاء كما قال وهب بن منبه وإما أن تكون قرى الشام كما قال ابو مالك ومجاهد والحسين وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن اسلم وقتادة والضحاك والسدى وابن زيد وغيرهم . ويعنون بذلك أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة وقال العوفى عن ابن عباس القرى التى باركنا فيها بيت المقدس وقال العوفى عنه أيضا هى قرى عربية بين المدينة والشام (قرى ظاهرة) أى بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى .

---

(١) الآيات : ٢٢ إلى ٢٦ من سورة النحل

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن هذا العيش الرغيد والحياة الرخية التى وصفها الله تعالى بقوله ﴿ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ فقد كانت لهم جنتان عن يمين وشمال فيها القطوف الدانية والثمار الناضجة والزروع والأشجار يبيتون ويقيلون بين أنهار جارية وجنات ذات بهجة وحدائق وثمار .

قوله تعالى ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾أى جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون اليه ﴿ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ أى الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا . والأمن نعمة عظمى من نعم الله تعالى على عباده لذا امتن الله بها على قريش فى قوله ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[1] .

وقال جل شأنه مبينا مقدار هذه النعمة فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[2] وقد امتن الله تعالى بتلك النعمة العظمى على المؤمنين فقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[3]وقال فى حق اهل الجنة ﴿ ان المتقين فى مقام أمين ﴾[4] وقال تعالى :﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾[5]

وقال تعالى فى الحديث القدسى : ﴿ يابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع اذا كنت معافا فى بدنك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء)[6] .

قوله تعالى ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وهذا بطر منهم لنعمة الله كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى من وسلوى ومايشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾[7] وقال عز وجل ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾[8] وقال تعالى فى حق هؤلاء ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ أى بكفرهم ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أى جعلناهم حديثا للناس وسمرا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش تقول العرب فى

---

(١) الأيتان ٤ ، ٥ من سورة قريش
(٢) الآية ١١٢ من سورة النحل
(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٤) الآية ٥١ من سورة الدخان
(٥) الآية ٥٥ من سورة الدخان
(٦) الحديث بمعناه فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ ص ٧٤٧ ، ٧٤٨ وفى أحاديث ضعفاء الرجال من كتاب الكامل لابن عدى حـ ص ١٤٥٨
(٧) الآية ٦١ من سورة البقرة
(٨) الآية ٥٨ من سورة القصص .

القوم إذا تفرقوا ايدى سبا وأيادى سبا وتفرقوا شذر مذر وروى ابن ابى حاتم انه كان عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ قال : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ وكانت فيهم كهنة وكانت الشياطين يسترقون السمع فأخبروا الكهنة بشىء من أخبار السماء فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلهم فلم يدر كيف يصنع ؛ لأنه كان له مال كثير من عقار فقال لرجل من بنيه وهو أعزهم أخوالا يابنى إذا كان غدا وامرتك بأمر فلا تفعله فإذا انتهرتك فانتهرنى فإذا لطمتك فالطمنى قال ياأبت لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد قال يابنى قد حدث أمر لابد منه فلم يزل به حتى وافاه على ذلك فلما اصبحوا واجتمع الناس قال يابنى افعل كذا وكذا فأبى فانتهره أبوه فأجابه فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه فوثب على أبيه فلطمه فقال ابنى يلطمنى ؟ على بالشفرة قالوا ما تصنع بالشفرة قال اذبحه قالوا تريد أن تذبح ابنك : الطمه أو اصنع ما بدا لك قال فأبى قال فارسلوا إلى اخواله .

فأعلموهم ذلك فجاء أخواله فقالوا خذ منا مابدالك فأبى إلا أن يذبحه قالوا فلتموتن قبل أن تذبحه قال فإذا كان الحديث هكذا فإنى لا ارى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ابنى فيه اشتروا منى دورى اشتروا منى ارضى فلم يزل حتى باع دوره وارضه وعقاره فلما صار الثمن فى يده واحرزه قال : أى قوم ان العذاب قد أظلكم وزوال أمركم قد دنا فمن اراد منكم دارا جديدا وحمى شديدا وسفرا بعيدا فليلحق بعمان ومن اراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببصرى ومن اراد الراسخات فى الوحل : المطعمات فى المحل المغممات فى القحل فليلحق بيثرب ذات نخل فأطاعه قومه فخرج اهل عمان الى عمان وخرجت غسان الى بصرى وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان الى يثرب ذات النخيل قال فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان هذا مكان صالح لاينبغى به بدلا فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من اصحابهم واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة وتوجه اهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان الى بصرى .

وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم وقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار فى أول السيرة ماكان من أمر عمرو بن عامر الذى كان اول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بارسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثنى به أبو زيد الأنصارى انه راى جرذا يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من ارضهم فعلم أنه لابقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن وكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا اغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا اقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل هو فى ولده وولد ولده وقالت الأسد لانتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجالا ففى ذلك يقول عباس بن

مرداس السلمى - رضى عنه - :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا ∴ بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له قال ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا ونزلت ازد السراة السراة ونزلت ازد عمان ثم ارسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفى ذلك انزل الله عز وجل هذه الآيات .

وقوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أى إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ماارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم .

قال الامام احمد بسنده عن رسول الله ﷺ « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى فى اللقمة ليرفعها الى فى امرأته »[١] وفى الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه « عجبا للمؤمن لايقضى الله تعالى له قضاء الا كان خيرا له إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن اصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[٢]

وقال قتادة ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ قال كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى اذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر .

قوله تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وماكان له عليهم من سلطانه إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره هذه الآية كقوله تعالى اخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا ﴾[٣] وقال ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾[٤] ولما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان اخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع ابليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾

وقال الحسن البصرى لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحا بما أصاب منهما وقال إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ذلك ظنا من

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص - ج ١ ص ١٧٣ وعبد بن حميد والبيهقى والضياء المقدس ، عن سعد بن أبى وقاص

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب المؤمن امره كله خير - ج ٤ ص ٢٢٩٥

(٣) الآية ٦٢ من سورة الاسراء

(٤) الآية ١٧ من سورة الأعراف

إبليس فأنزل الله عز وجل ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ فقال عند ذلك إبليس لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح أعده وأمنيه واخدعه فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أحجب عنه التوبة مالم يغرغر بالموت ولايدعونى إلا أجبته ولايسألنى إلا أعطيته ولايستغفرنى إلا غفرت له رواه جبن ابى حاتم

ولقد حذر الله تعالى عباده من هذا الشيطان الرجيم فقال ﴿ يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[٢] وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ﴾[٣] وقال ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾[٤] قوله تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾[٥] قال ابن عباس رضى الله عنهما - أى من حجة وقال الحسن البصرى والله ماضربهم بعصا ولاأكرههم على شىء وماكان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه

قال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ماأنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب اليم ﴾[٦] وقال جل شأنه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾[٧]

وقد امرنا الله تعالى ان نتبع هداه حتى لانضل ولا نشقى قال سبحانه ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[٨]

واذا كان الشيطان لاسلطان له على المؤمنين كما لاسلطان له على أحد إلا بالغواية والغرور والأمانى الكاذبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾[٩]

إذا كان ذلك كذلك فإنه فتنة يختبر الله عباده بها ليظهر مدلول علم الله القديم فيمن يؤمن

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف
(٢) الآية ٢١ من سورة النور
(٣) الآية ٦ من سورة فاطر
(٤) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ من سورة يس
(٥) الآية ٢١ من سورة سبأ
(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم
(٧) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الحشر
(٨) الآيات ١٢٣ الى ١٢٧ من سورة طه
(٩) الآية ١٢٠ من سورة النساء

بالاخرة وفيمن هو منها فى شك وريب ﴿ وربك على كل شىء حفيظ ﴾ فقد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا والشيطان ابتلاء فعلى المؤمن أن يحذره حتى لايقع فى شراكه وشباكه ومكايده ومصايده .

وقد عقد الأمام ابن الجوزى باباً فى مكايد الشيطان عنونه بقوله :

فى التحذير من فتن إبليس ومكايده .

قال الشيخ ابو الفرج رحمة الله عليه : اعلم أن الآدمى لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ماينفعه ووضع فيه الغضب ليدفع به مايؤذيه وأعطى العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب وخلق الشيطان محرضا له على الاسراف فى اجتلابه واجتنابه فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام وقد بذل عمره ونفسه فى فساد احوال بنى آدم

وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[١] وقال تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾[٣] وقال ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[٤]

وقال تعالى : ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾[٥]

وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٦]

وقال تعالى ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾[٧]

وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم الا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[٨]

وفى القرآن من هذا كثير .

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله : وينبغى أن تعلم أن ابليس الذى شغله التلبيس أول ماالتبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود فأخذ يفاضل بين الأصول فقال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[٩] ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم فقال : ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾[١٠] والمعنى أخبرنى لم كرمته على عزز ذلك الاعتراض ان الذى فعلته ليس بحكمة ثم اتبع ذلك بالكبر فقال ﴿ أنا خير منه ﴾[١١] ثم امتنع عن السجود فأهان نفسه التى اراد تعظيمها باللعنة

---

(١) الأيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة
(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة
(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء
(٤) الآية ٩١ من سورة المائدة
(٥) الآية ١٥ من سورة القصص
(٦) الآية ٦ من سورة فاطر
(٧) الآية ٣٣ من سورة لقمان ، ٥ من سورة فاطر
(٨) الآية ٦٠ من سورة يس
(٩) الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٧٦ من سورة ص
(١٠) الآية ٦٢ من سورة الاسراء
(١١) الآية ٧٦ من سورة ص

والعقاب .

فمتى سول للانسان أمرا فينبغى أن يحذر منه اشد الحذر وليقل له حين امره اياه بالسوء انما تريد بما تأمر به نصحى ببلوغى شهوتى وكيف يتضح صواب النصح للغير لمن لاينصح نفسه ثم كيف اثق بنصيحة عدو فانصرف فما فىَّ لقولك منفذ فلا يبقى الا انه يستعين بالنفس ، لأنه يحث على هواها فليستحضر العقل الى تثبيت الفكر فى عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس ، عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله ﷺ « يأيها الناس إن الله تعالى أمرنى ان اعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا فإنه قال إن كل مال نحلته عبدى فهو له حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ماأحللت لهم . وأمرتهم الايشركوا بى مالم أنزل به سلطانا وان الله تعالى نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . . الحديث »[1]

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء احدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ماصنعت شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت »[2]

وعن جابر بن عبد الله يرفعه قال « إن إبليس قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينهم »[3]

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى الله التقم قلبه »[4]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن الشيطان طاف بأهل مجلس الذكر ليفتنهم فلم يستطع ان يفرق بينهم فأتى حلقة يذكرون الدنيا فأغرى بينهم حتى اقتتلوا فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم فتفرقوا »

وعن قتادة رضى الله عنه قال : « ان لابليس شيطانا يقال له قبقب يجمه أربعين سنه ، فإذا دخل الغلام فى هذا الطريق قال له دونك إنما كنت أجمك لمثل هذا أجلب عليه وأفتنه » .

وعن ثابت البنانى رضى الله عنه قال : بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شىء فقال يحيى : ياإبليس ماهذه المعاليق التى أرى عليك قال : هذه الشهوات التى أصيد بهن ابن آدم قال : فهل لى فيها من شىء قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وثقلناك عن الذكر قال : فهل غير ذلك قال لا والله قال لله على ان لا أملأ بطنى من طعام ابدآ قال إبليس : ولله على الا أنصح مسلما أبدا .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى باب (إن الله) ص ١٦٢ من رواية الطبرانى فى الكبير ، عن عياض بن حماد
(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣١٤
(٣) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣٦٦
(٤) الحديث رواه ابن أبى الدنيا وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أنس بن مالك (الجامع الكبير) وفى حلية الأولياء ص ٦ ص ٣٦٨

وعن الحارث بن قيس رضى الله عنه قال : اذا أتاك الشيطان وانت تصلى فقال انك مراءٍ فزدها طولا وعن النبى ﷺ يقول : « كان راهب فى بنى اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها الراهب فأبى أن يقبلها فما زالوا به حتى قبلها فكانت عنده فأتاه الشيطان فسول له إيقاع الفعل بها فأحبلها ثم أتاه فقال له الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن اتوك فقل ماتت فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى فى قلوبهم انه احبلها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها يسألونه عنها فقال : ماتت فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى ضربتها وخنقتها وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها وأنا الذى أوقعتك فى هذا فأطعنى تنج اسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذى قال عز وجل ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾[1]

وقد روى هذا الحديث على صفة أخرى عن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن عابدا كان فى بنى اسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرا ليس لهم أخت غيرها فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون اختهم ولا من يأمنون عليها ولاعند من يضعونها : قال : فأجمع رأيهم على ان يخلفوها عند عابد بنى اسرائيل وكان ثقة فى أنفسهم فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن اختهم قال فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال أنزلوها فى بيت حذاء صومعتى قال : فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها فمكثت فى جوار ذلك العابد زمانا ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد الى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه فى الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان اعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها قال فلبث على هذه الحالة زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر وحضه عليه وقال : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظم .

لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه فى بيتها فلبث على ذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وحضه عليه فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة قال : فلم يزل به حتى حدثها زمانا يطلع إليها من فوق صومعته قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها قال : فلبثا زمانا يتحدثان ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها فلم يزل به حتى فعل قال فلبثا زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وفيما له عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ من حسن

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير ـ ج ٨ ص ١٠١ ـ فى تفسير سورة الحشر عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... ﴾ وفى تفسير الطبرى ـ ج ٢٨ ص ٣٣

الثواب فيما يصنع بها وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا ذلك حينا ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته قال ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها .

فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبلها فولدت له غلاما فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء اخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع لا آمن أن تفصح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ماصنعت بها ففعل فقال له أتراها تكتم إخوتها ماصنعت بها وقتلت ابنها قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها فلم يزل به حتى ذبحها والقاها فى الحفرة مع ابنها وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما وصعد الى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ماشاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو فجاءوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها وقال : كانت خير امرآة وهذا قبرها فانظروا إليه فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليهافأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفوا الى أهاليهم فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف اراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان وقال لم يصدقكم امر أختكم وانه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاما فذبحه وذبحها معه فزعا منكم وألقاهما فى حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فانكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعا .

وأتى الأوسط فى منامه فقال له مثل ذلك ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجبا فأخبر بعضهم بعضا بما رأى فقال كبيرهم هذا حلم ليس بشىء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم والله لأمضى حتى آتى الى هذا المكان فأنظرا فيه

قال : فانطلقوا جميعا حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل فسألوا عنها العابد فصدق قول ابليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت اطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه قال : فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه قال : ففيه نزلت هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان اذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك ـ إلى قوله ـ جزاء الظالمين ﴾[1]

وعن وهب بن منبه ـ رضى الله عنه ـ قال : كان راهب فى صومعته فى زمن المسيح عليه السلام

---

(١) سورة الحشر الآيتان : ١٦ ، ١٧

فأراده إبليس فلم يقدر عليه فأتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه فأتاه متشبها بالمسيح فناداه : أيها الراهب أشرف على أكلمك قال : انطلق لشأنك فلست ارد مامضى من عمرى فقال : اشرف على فأنا المسيح فقال إن كنت المسيح فما لى اليك حاجة ألست قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة انطلق لشأنك فلا حاجة لى فيك فأنطلق اللعين عنه وتركه .

وعن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله رضى الله عنه عن ابيه قال : لما ركب نوح عليه السلام فى السفينه رأى فيها شيخا لم يعرفه فقال له نوح ماأدخلك قال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك فقال له نوح عليه السلام اخرج ياعدو الله فقال إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنين فأوحى الله تبارك وتعالى الى نوح عليه الصلاة والسلام ـ انه لاحاجة لك إلى الثلاث مره يحدثك

بالاثنتين فقال بهما أهلك الناس وهما لايكذبان : الحسد والحرص فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وبالحرص أبيح لآدم الجنة كلها فأصبت حاجتى منه فأخرج من الجنة قال ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال : ياموسى انت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا من خلق الله تعالى أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى الى ربى ـ عز وجل ـ أن يتوب على ، فدعا موسى ربه فقيل ياموسى قد قضيت حاجتك فلقى موسى إبليس فقال له قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك فاستكبر وغضب وقال : لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ثم قال إبليس : ياموسى ان لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لاأهلك فيهن اذكرنى حين تغضب فأنا وحى فى قلبك وعينى فى عينك واجرى منك مجرى الدم واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجه وأهله حتى يولى وإياك ان تجالس امرأة ليست بذات محرم فانى رسولها اليك ورسولك اليها .

وعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : مابعث الله نبيا الا لم يأمن إبليس ان يهلكه بالنساء وعن الفضيل بن عياض قال حدثنى بعض أشياخنا أن ابليس لعنه الله جاء الى موسى عليه الصلاة والسلام وهو يناجى ربه تعالى فقال له الملك : ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحالة يناجى ربه قال : أرجو منه مارجوت من أبيه آدم وهو فى الجنة

عن عبد الرحمن بن زياد ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما موسى عليه السلام جالس فى بعض مجالسه اذ أقبل إبليس وعليه برنس له يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه وقال له السلام عليك ياموسى : فقال له موسى ـ عليه السلام ـ من أنت : قال أنا إبليس قال فلا حياك الله ماجاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمنزلتك عند الله تعالى ومكانك منه قال : فما الذى رأيته عليك قال : به اختطف قلوب بنى آدم قال : فما الذى اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذرك ثلاثا :

لاتخلون بامرأة لاتحل لك قط فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها .

ولاتعاهد الله عهدا إلا وفيت به فإنه ماعاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء به .

ولاتخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين إخراجها ثم ولى وهو يقول : ياويله ثلاثا علم موسى مايحذر به بنى آدم .

وعن حسن بن صالح قال : سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى ارمى به فلا أخطىء وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى .

قال وهب بن منبه : قال راهب للشيطان وقد بدا له أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم قال الحدة إن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وعن سليمان بن المغيرة عن ثابت رضى الله عنه قال : لما بعث النبى ﷺ جعل ابليس لعنه الله يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى ﷺ فيجيئون إليه بصحفهم ليس فيها شيء فيقول لهم مالكم لاتصيبون منهم شيئا فقالوا : ماصحبنا قوما مثل هؤلاء فقال رويدا بهم فعسى أن تفتح لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم .

وعن ابى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بث جنوده فى الأرض فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق أمرأته قال يوشك أن يتزوج ويقول آخر لم أزل بفلان حتى عق قال يوشك أن يبر .

ويقول آخر لم أزل بفلان حتى زنى قال أنت ويقول آخر لم أزل بفلان حتى شرب الخمر قال أنت قال : ويقول آخر لم أزل بفلان حتى قتل فيقول : أنت أنت وعن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل فقال لأقطعن هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضبا لله فلقيه إبليس فى صورة إنسان فقال : ماتريد ؟ أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال لأقطعنها فقال له الشيطان هل لك فيماهو خير لك لاتقطعها ولك ديناران كل يوم اذا اصبحت عند وسادتك قال فمن أين لى ذلك قال أنا لك فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئا فقام غضبا ليقطعها فتمثل له الشيطان فى صورته وقال ماتريد ؟ قال أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى قال كذبت مالك الى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله قال أتدرى من أنا ؟ أنا الشيطان جئت أول مرة غضبا فلم يكن لى عليك سبيل فخدعتك بالدينارين فتركتها فلما جئت غضبا للدينارين سلطت عليك .

وعن زيد بن مجاهد قال : لابليس خمسة من ولده قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ثم سماهم : فذكر بثر والأعور ومسوط وداسم وزكنبور فأما بثر فهو صاحب المصيبات الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية

وأما الأعور فهو صاحب الزنا الذى يأمر به ويزينه وأما مسوط فهو صاحب الكذب الذى يسمع فيلقى الرجل فيخبره بالخبر فيذهب الرجل إلى القوم فيقول لهم قد رأيت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ماإسمه حدثنى بكذا وكذا وأما داسم فهو الذى يدخل فى الرجل الى أهله يريه العيب فيهم ويغضبه عليهم وأما زكنبور فهو صاحب السوق الذى يركز رايته فى السوق .

وعن مخلد بن الحسين قال : ماندب الله العباد الى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين مايبالى بأيهما ظفر : إما غلو فيه وإما تقصير عنه .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن إبليس موثق فى الأرض السفلى فإذا هو تحرك كان كل شرفى الأرض بين اثنين فصاعدا من تحركه .

وفتن الشيطان ومكايده كثيرة ولكثرة فتن الشيطان وتشبثها بالقلوب عزت السلامة فإن من يدع الى مايحث عليه الطبع كمداد سفينه منحدرة فياسرعة انحدارها ولما ركب الهوى فى هاروت وماروت لم يستمسكا فإذا رأت الملائكة مؤمنا قد مات على الايمان تعجبت من سلامته وعن عبد العزيز بن رفيع قال : إذا عرج بروح المؤمن الى السماء قالت الملائكة سبحان الله الذى نجى هذا العبد من الشيطان ياويحه كيف نجا .

ذكر الإعلام بأن مع كل انسان شيطانا

عن عروة بن الزبير قال : **﴿ ان عائشة زوج النبى ﷺ حدثته أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال : مالك ياعائشة أغرت ؟ فقلت : ومالى لايغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أوقد جاءك شيطانك ؟ قالت : يارسول الله أو معى شيطان ! قال نعم قلت : ومع كل إنسان قال نعم قلت : ومعك يارسول الله ؟ قال نعم ولكن ربى ـ عز وجل ـ أعاننى عليه حتى أسلم ﴾**(١) انفرد به مسلم . ويجىء بلفظ آخر أعاننى عليه فأسلم : عامة الرواة يقولون : فأسلم على مذهب الفعل الماضى إلا سفيان بن عيينة فإنه يقول فأسلم من شره وكان يقول الشيطان لايسلم وقول ابن عيينه حسن وهو يظهر اثر المجاهدة لمخالفة الشيطان إلا أن حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عيينه وهو (مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : وإياك يارسول الله قال : وإياى ولكن الله ـ عز وجل ـ أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق وفى روايه فلا يأمرنى إلا بخير .

بيان أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم

عن صفية بنت حيى زوج النبى قالت كان رسول الله ﷺ معتكفا فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى (أى ليردنى إلى منزلى) وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا فقال النبى ـ ﷺ على رسلكما إنها صفية بنت حيى فقالا : سبحان الله يارسول الله قال : **﴿ إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكم شرا ـ أو قال شيئا ﴾**(٢) .

قال الخطابى : وفى هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ويخطر بالقلوب وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب ويحكى فى

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ ج ٤ ص ٢١٦٨ رقم ٧٠

(٢) الحديث فى رياض الصالحين ص ٦٦٨ رقم ١٨٤٦ متفق عليه

هذا عن الشافعى - رضى الله عنه - انه قال : خاف النبى - ﷺ ان يقع فى قلوبهم شىء من أمر فيكفروا وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليهما لاعلى نفسه .

ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم

قد أمر الله تعالى - بالتعوذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة فقال تعالى ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾[1]

وعند السحر فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾[2] الى آخر السورة .

فإذا أمر بالتحرز من شره فى هذين الأمرين فكيف فى غيرهما

قيل لعبد الرحمن بن حنيش : أدركت النبى - ﷺ قال : نعم قلت كيف صنع رسول الله - ﷺ - ليلة كادته الشياطين ؟ فقال : إن الشياطين تحدرت تلك الليلة على رسول الله - ﷺ - من الأودية والشعاب وفيهم شيطان بيده شعلة نار

يريد أن يحرق بها وجه رسول الله - ﷺ - فهبط جبريل عليه السلام فقال : يامحمد قل : قال : ماأقول ؟ قال :

قل : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ ومن شر ماينزل من السماء ومن شر مايعرج فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن قال : فطفئت نارهم وهزمهم الله تعالى .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى - ﷺ - قال : ﴿ ان الشيطان يأتى احدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول الله - تبارك وتعالى - فيقول : فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ﴾[3]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه يرفعه قال : ﴿ ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾[4] وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين فيقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول هكذا

---

(١) الآية ٩٨ من سورة النحل

(٢) الآية ١ من سورة الفلق

(٣) الحديث رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان ، وابن السنى فى عمل يوم وليلة ، عن عائشة (الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٢٠٢

(٤) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٢ص ١٧٩ رقم ٩٩٣

كان أبي ابراهيم - ﷺ يعوذ اسماعيل واسحاق »[1] أخرجاه فى الصحيحين . والهامة هى واحد الهوام ويقال هى كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون ذلك أخف على اللسان .

قال مطرف : نظرت فإذا ابن آدم ملقى بين يدى الله - عز وجل - وبين إبليس فمن شاء أن يعصمه عصمه وإن تركه ذهب به إبليس .

وحكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ماتصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا قال ؟ أجاهده قال : فإن عاد؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال أجاهده .

قال هذا يطول أرأيت إن مررت بغنم فنجك كلبها أو منعك من العبور ماتصنع ؟ قال أكابده وارده جهدى قال هذا يطول عليك ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك .

وأعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام فمر به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أحساه لم يبرح فالأول مثل المتقي يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر والثانى مثل المخلط لايفارقه الشيطان لمكان تخليطه . نعوذ بالله من الشيطان .

فى معنى التلبيس والغرور

التلبيس إظهار الباطل فى صورة الحق ، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والرديء جيدا سببه وجود شبهه أو جبت ذلك وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر مايمكنه ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم . واعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم وساكنه العقل ، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن والى جانبه ربض فيه الهوى والشياطين تختلف الى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائمة بين أهل الحصن واهل الربض ، والشياطين لاتزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم . فينبغى للحارس ان يعرف جميع ابواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ، وأن لايفتر عن الحراسة لحظة . فإن العدو مايفتر .

قال رجل للحسن البصرى : أينام إبليس ؟ قال : لونام لوجدنا راحة ؟ وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالايمان .

وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل مايمر به ، فأول مايفعل الشيطان فى الربض اكثار الدخان فتسود حيطان الحصن ، وتصدأ المرآة وكمال الفكر يرد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة ، وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعاث وربما اقام لغفلة الحارس ، وربما ركدت الريح الطاردة فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولايدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلته واسرو استخدم واقيم يستنبط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار

---

[1] الحديث أخرجه البخارى - فى الانبياء - ج ٤ ص ١٧٩ ، والترمذى فى الطب حديث ٢٠٦١ وأحمد ج ١ ص ٢٣٦ ، وابن ماجه فى الطب حديث ٣٥٢٥

كالفقيه فى الشر قال بعض السلف : رأيت الشيطان فقال لى قد كنت ألقن الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم .

وربما هجم الشيطان على الذكى الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر اليها فيستأسره ، وأقوى القيد الذى يوثق به الأسرى الجهل ، وأوسطه فى القوة الهوى ، وأضعفه الغفلة ، ومادام درع الايمان على المؤمن ، فإن نبل العدو لايقع فى مقتل .

ويقول الحسن بن صالح ـ رحمه الله ـ يقول : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير يريد به بابا من الشر .

وعن حماد بن شعيب عن الأعمش قال : حدثنا رجل كان يكلم الجن قالوا : ليس علينا اشد ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبا .

نختم هذا البحث بتلك القاعدة النافعة التى ذكرها ابن القيم فى تفسيره للمعوذتين فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ، ويحترز به منه .

وذلك عشرة اسباب . (الحرز الأول)

الحرز الأول : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[1] وفى موضع آخر ﴿ إنه سميع عليم ﴾[2] وقد تقدم : إن السمع المراد به ههنا سمع الاجابة لامجرد السمع العام وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة « هو » الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالألف واللام فى سورة حم لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف ، لاستغناء المقام عنه . فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابله إساءة المسىء بالاحسان إليه . وهذا أمر لايقدر عليه إلا الصابرون ، ولايلقاه الا ذو حظ عظيم . كما قال تعالى . ﴿ ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . ومايلقاها الا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[3] .

والشيطان لايدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ، ويسلط عليه عدوه ، فيدعوه الى بالانتقام ، ويزينه له . فإن عجز عنه دعاه إلى الاعراض عنه والا يسىء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الاحسان الى المسىء الا من خالقه وآثر الله وماعنده على حظه العاجل . فكان المقام مقام تأكيد وتحريض . فقال فيه ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ واما فى سورة الأعراف : فإنه أمره ان يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالاحسان ، بل الاعراض . وهذا سهل على النفوس ، غير مستعص عليها . فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالاحسان فقال ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾

---

(١) الاية ٣٦ من سورة فصلت

(٢) الاية ٢٠٠ من سورة الأعراف

(٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت

وفى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن حرد قال « كنت جالسا مع النبى ﷺ ورجلان يستبان . فأحدهما احمر وجهه وانتفخت اوداجه . فقال النبى - ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه مايجد . لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه مايجد »[1] .

الحرز الثانى :

قراءة المعوذتين فإن لهما تأثيرا عجيبا فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ولهذا قال النبى - ﷺ

﴿ ماتعوز المتعوذون بمثلهما ﴾[2] وقد كان يتعوذ بهما كله ليلة عند النوم ، وأمر (عقبة) أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وقال ﷺ « إن من قرأهما مع سورة الاخلاص ثلاثا حين يمسى ، وثلاثا حين يصبح ، كفته من كل شىء »[3] .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسى . ففى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « وكلنى رسول الله - ﷺ - بحفظ زكاة رمضان فأتى آت ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت إلأ رفعتك الى رسول الله - ﷺ - فذكر الحديث ، الى أن قال - فقال : إذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولايقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى - ﷺ - : صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان ﴾[4]

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة : ففى الصحيح من حديث سهل بن عبد الله عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لاتجعلوا بيوتكم قبورا . وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان »[5]

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة . قد ثبت فى الصحيح من حديث ابى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه)[6] وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى - ﷺ - قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان »[7]

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ج ٤ ص ١٥١

(٢) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤٤ ، وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٤٩ تفسير سورتى المعوذتين وفى كنز ٢ ص ٣١٢ رقم ٤٠٨٩

(٣) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤١ وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٣٩ تفسير سورة الاخلاص وفى كنز العمال - ج ٢ ص ٣١١

(٤) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - فضل البقرة - ج ٦ ص ٢٣٢

(٥) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٣٩ رقم ٢١٢ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٧

(٦) الحديث فى صحيح مسلم - صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٥٥ رقم ٢٥٦ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٤ رقم ٣٠٤٣

(٧) الحديث فى سنن الترمذى - ابواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٥ رقم ٣٠٤٤

الحرز السادس : أول سورة حم المؤمن الى قوله (اليه المصير) مع آية الكرسى .

ففى الترمذى بسنده عن ابى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « من قرأ حم المؤمن الى قوله (اليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » [١] والحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

ففى الصحيحين من حديث ابى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير على من يسره الله عليه »[٢]

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل . ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعرى أن النبى - ﷺ - قال « ان الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، وانه كاد ان يبطىء بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى اسرائيل ان يعملوا بها . فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى أن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب . فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ ، وقعدوا على الشرف . فقال : ان الله امرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم ان تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وأن مثل من اشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدى الى غير سيده . فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته مالم يلتفت : وأمركم بالصيام : فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه

صبره فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها . وان ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

وأمركم ان تذكروا الله . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى اثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبى - ﷺ - وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن ! السمع والطاعة . والجهاد . والهجرة ، والجماعة فإن من

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٩

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء - ج ٤ ص ٢٠٧١ رقم ٢٨

فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ، إلا أن يراجع . ومن أدعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل : يارسول الله وان صلى وصام قال : وإن صلى وصام . فادعو بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله »[١]

(قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى الحارث الأشعرى له صحبه . وله غير هذا الحديث)

فقد أخبر النبى - ﷺ - فى هذا الحديث أن العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس . والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس ، وتجمع وانقبض واذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى اليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة وهذا من أعظم مايتحرز به منه ، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة . فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم . كما فى الترمذى من حديث ابى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ - أنه قال « ألا وان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم الى جمرة عينيه وانتفاخ اوداجه ! فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض »[٢]

وفى أثر أخر « ان الشيطان خلق من نار ، وانما تطفأ النار بالماء » فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار والوضوء يطفئها ، والصلاة اذا وقعت بخشوعها والاقبال فيها على الله أذهبت أثر كله . وهذا أمر تجربته تغنى من إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام والطعام ، ومخالطة الناس : فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه : من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو الى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به .

فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما فى المسند عن النبى - ﷺ - انه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه الى يوم يلقاه »[٣] أو كما قال ﷺ

فالحوادث العظام إنما هى كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لاحسرة ؟ كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر !

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الامثال - ج ٤ ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٣

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الفتن - ج ٣ ص ٣٢٧ رقم ٢٢٨٦

(٣) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى - باب النظرة - ص ٤٥٢
وفى كنز العمال ج ٥ ص ٣٢٩ رقم ١٣٠٧٥ وفى المستدرك للحاكم ح ٤ ص ٣١٤

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رأيت الذى لاكله أنت قادر عليه ، ولاعن بعضه انت صابر

ولى من ابيات :

ياراميا بسهام اللحظ مجتهدا انت القتيل بما ترمى ، فلاتصب
وباعث الطوف يرتاد الشفاء له ترفه ، انه يرتد بالعطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض فهل سمعت ببرء جاء من عطب ؟
ومفنيا نفسه فى إثر أقبحهم وصفا للسطخ حجال فيه مستلب
وواهبا عمره فى مثل ذا سفها لوكنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبائعا طيب عيش ماله خطر بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبنا فاحشا فلو اسـ ـترجعت ذا القعد لم تغبن ولم تخب
وواردا صفو عيش كله كدر أمامك الورد صفوا ليس بالكذب
وحاطب الليل فى الظلماء منتصبا لكل داهية تدنى من العطب
شاب الصبا والتصابى بعد لم يشب وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها والضى فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ورسل ربك قد وافتك فى الطلب
مافى الديار وقد سارت ركائب من تهواه للصب من سكنى ولاأرب
فافرش الخد ذياك التراب ، وقل ماقاله صاحب الأشواق فى الحقب
ماربع مية محفوفا يطوف به عيلان أشهى له من ربعك الحزب
ولا الخدود وان أدمين من ضرج أشهى الى ناظرى من خدك الترب
منازل كان يهواها ويألفها أيام كان منال الوصل من كتب
فكلما جليت تلك الربوع له يهوى إليها هوى الماء فى حيب
أحياله الشوق تذكار العهود بها فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه وماله فى سواها الدهر من رغب
مافى الخيام أخو وجد ريحك إن بثثته بعض شأن الحب ، فأغترب
وأسر فى غمرات الليل مهتديا بنفحة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخى جبن ومعجزة وحارب النفس لاتلقيك فى الحرب
وخذ لنفسك نورا تستضىء به يوم اقتسام الورى بالأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه إلا بنور ينجى العبد فى الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد ابوابا من الشر كلها مداخل للشيطان ، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبي - ﷺ - لمعاذ « وهل يكب الناس على مفاخرهم فى النار الا حصائد السنتهم »[1] وفى الترمذى أن رجلا من الأنصار توفى فقال بعض الصحابة : طوبى له ، فقال النبي - ﷺ - « فما يدريك ؟ فلعله تكلم بما لايعنيه ، أو بخل بمالا ينقصه »[2]

وأكثر المعاصى : إنما يولدها فضول الكلام والنظر وهما اوسع مداخل الشيطان . فإن جارحيتهما لايملان ، ولايسأمان ، بخلاف شهوة البطن ، فإنه اذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الاطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات . وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ماشيء أحوج الى طول سجن من اللسان .

وأما فضول الطعام : فهو داع الى انواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح الى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات . وحسبك بهذين شرا . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام وكم من طاعة حال دونها ؟

فمن وقى شر بطنه وقى شرا عظيما .

والشيطان أعظم مايتحكم من الانسان اذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء فى بعض الآثار ﴿ ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم ﴾ وقال النبي - ﷺ - « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطن »[3]

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا انه يدعو الى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ، ومناه وشهاه ، وهام به فى كل واد . فإن النفس اذا شبعت تحركت وجالت وطافت على ابواب الشهوات . واذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة :

فهى الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة . وكم زرعت من عداوة . وكم غرست فى القلب من حزازات تزيل الجبال الراسيات وهى فى القلوب لا تزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة .

ويجعل الناس فيها اربعة اقسام : متى خلط أحد الاقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل الشر .

أحدها : من مخالطته كالغذاء لايستغنى عنه فى اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم اذا احتاج اليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب اعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وامره ، ومكايد عدوه ، وامراض القلوب وادويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه - فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كل الربح .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - ج ٢ ص ١٣١٤ ، ١٣١٥ رقم ٣٩٧٣

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الزهد - ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ٢٤١٨

(٣) الحديث فى مسند أحمد - ج ٤ ص ١٣٢

القسم الثانى : مَنْ مخالطته كالدواء ، يحتاج اليه عند المرض فمادمت صحيحا فلا حاجه لك فى خلطته ، وهم من لايستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش ، وقيام ماأنت محتاج اليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث : وهم من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وانواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لاتربح عليه فى دين ولادنيا . ومع ذلك فلابد من أن تخسر عليه الدين والدنيا او احدهما .

فهذا اذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهى مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لايحسن ان يتكلم فيفيدك ، ولايحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولايعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل ان تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع اعجابه بكلامه وفرحه به فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن انه مسك يطيب به المجلس . وان سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لايطاق حملها ولاجرها على الأرض . ويذكر عن الشافعى ـ رحمه الله ـ أنه قال : ماجلس ثقيل الا وجدت الجانب الذى هو فيه انزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوما عند شيخنا قدس الله روحه ـ ابن تيمية ـ رجلا من هذا الضرب والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت الى وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع . ثم قال . لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة او كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى الروح ، فعرضية ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد ان يتبلى بواحد من هذا الضرب . وليس له بد من من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وماأكثر هذا الضرب فى الناس لاكثرهم الله . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ـ ﷺ ـ الداعون الى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة ، والمعروف منكرا والمنكر معروفا .

ان جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

وان جردت المتابعة لرسول الله ـ ﷺ ـ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين .

وان وصفت الله بما وصف به نفسه ، وبما وصف به رسوله من غير غلو ولاتقصير قالوا : أنت من المشبهين .

وان أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا : أنت من المفتنين .

وإن اتبعت السنه وتركت ماخالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

وان انقطعت الى الله تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا : انت من الملبسين .

وان تركت ماانت عليه واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم ، التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لاتشتغل بأعتابهم ، ولاباستعتابهم ، ولاتبالى بذمهم ولابغضهم . فإنه عين كما لك كما قال :

وإذا اتتك مذمتى من ناقص .·. فهى الشهادة لى بأنى فاضل

فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التى هى اصل البلاء ، وهى فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، والمخالطة واستعجل ماذكرناه من الاسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان فقد اخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها ابواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ويوشك ان يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء . فعند الممات يحمد القوم التقى . وفى الصباح يحمد القوم السرى والله الموفق لارب غيره ، ولا إله سواه .

مناقشة المشركين وإفحامهم

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

معانى المفردات

مثقال ذرة : وزن ذرة ـ ظهير : معين ، فزع عن قلوبهم : من التفزيع وهو إزالة الفزع والخوف عن قلوبهم ـ أجرمنا : أذنبنا من الجرم وهو الذنب ؛ يفتح : يحكم ، والفتاح الحاكم ، لأنه يفتح طريق الحق ويظهره . كلا : كلمة ردع لهم ، كافة : أى مانعالهم من الكف وهو المنع ، أو جامعا لهم مأخوذ من الكف بمعنى الجمع والتاء للمبالغة والمراد جامعا للناس فى الابلاغ .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر عزت قدرته ماآتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لاحصر لها ، ومافعله بسبأ حين بطرو النعمة وكذبوا الرسل ـ أعقب ذلك بأمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتوهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فأعلموا انهم مبطلون . ثم ذكر سبحانه أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شىء من ذلك ، إذ لاتصرف لهم فى شىء فى السموات والأرض لااستقلالا ولاشركة ، ولاهم معينون للخالق فيها ، ولاتنفع الشفاعة لديه فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم . ثم أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق والرزق وانفراده بالالهية وان يخبروا بإن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد مبطل والأخر محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ماأنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لاتؤاخذون بما نعمل ولانؤاخذ بما تعلمون ، وان يقول لهم : ان ربنا هو الذى يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل هو الله الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل مايفعل وبعد أن أقام سبحانه الأدلة على التوحيد ، وضرب لذلك الأمثال . شرع يذكر الرسالة ويبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن اكثر الناس لايعلمون غن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

التفسير

قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرةفى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ﴾

هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع وحجة دامغه .. تصيح بأعلى صوتها ﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دون الله ﴾ أى معبوداتكم التى اتخذتموها آلهه من دون الله ، أى شىء فيها من خصائص الألوهية ، إن هذه المعبودات باطلة ، انهم لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض اذا لاخالق ولا رزاق إلا الله .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ، ياأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ﴾(١) .

وماأصدق قوله جل شأنه : ﴿ أيشركون مالايخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ام لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ﴾(٢)

وما اعظم قوله تبارك اسم ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا ﴾(٣) .

وماأجل قوله تبارك وتعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطورثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾(٤) .

وأمر الله تعالى نبيه بالحمد على التوحيد فقال : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾(٥) .

قوله تعالى ﴿ ومالهم فيهما من شرك ﴾ أى ليس لهؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله نصيب فى السموات ولا فى الأرض قوله تعالى ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ قال قتادة : من عون يعينه بشىء . فأسألوا انفسكم ايها المعاندون المجادلون بالباطل ﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعم الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وماتعلنون والذين يدعون من

---

(١) الآيات ١٣ الى ١٧ من سورة فاطر
(٢) الآيات ١٩١ الى ١٩٨ من سورة الأعراف
(٣) الآيات ١ الى ٣ من سورة الفرقان
(٤) الآيات ١ الى ٤ من سورة الملك
(٥) الآية ١١١ من سورة الاسراء

دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء ومايشعرون آيان يبعثون ، إلهكم إله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لاجرم أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون إنه لايحب المستكبرين ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ . ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٣] ولهذا ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله - ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء قال « فأسجد لله تعالى فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ، ويفتح على بمحامد لاأحصيها الآن ثم يقال يامحمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع - الحديث »[٤] .

وقوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة وهو أنه تعالى اذا تكلم بالوحى فسمع أهل السماوات كلامه ارعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى ، قاله ابن مسعود - رضى الله عنه - ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ أى زال الفزع عنها قال ابن عباس وابن عمر وابو عبد الرحمن السلمى والشعبى وابراهيم النخعى والضحاك والحسن وقتادة فى قوله - عز وجل - ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ يقول خلى عن قلوبهم ، ﴿ قالوا الحق ﴾ أى أخبروا بما قال من غير زيادة ولانقصان .

وقال آخرون فى معنى قوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعنى المشركين عند الاحتضار ويوم القيامه اذا استيقظوا مما كانوا منه من الغفلة فى الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامه قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

وقال مجاهد (حتى إذا فزع عن قلوبهم) كشف عنها الغطاء يوم القيامه . وقال الحسن (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى مافيها من الشك والتكذيب . ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ قال وهذا فى بنى آدم هذا عند الموت أقروا حين لاينفعهم الاقرار وقد اختار ابن جرير أن الضمير عائد على الملائكة وهذا هو الحق الذى لامرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار . ولنذكر منها طرفا يدل على غيره قال البخارى بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه يقول ان نبى الله - ﷺ - قال) إذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ، ثم يلقيها الآخر الى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر او الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء)[٥] انفرد به البخارى

---

(١) سورة النحل الآيات : ١٧ - ٢٣
(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء
(٤) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان ج ١ وفى صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة البقرة ج ٦ ص ٢١ ، ٢٢ ط
(٥) الحديث فى صحيح البخارى - تفسير سورة الحجر - ج ٦ ص ١٠٠ ط

دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة .

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن النواس بن سمعان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ (اذا اراد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال رعدة . شديدة من خوف الله تبارك وتعالى فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضى به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلما مر بسماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل ، فيقول عليه السلام : قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ماقال جبريل فينتهى جبريل بالوحى الى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض)[1] .

وقد روى ابن ابى حاتم من حديث العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وعن قتادة انهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى الى محمد ـ ﷺ ـ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولاشك ان هذا اولى مادخل فى هذه الآية .

قال الامام ابن القيم فى تفسير قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما شرك وماله منهم من ظهير ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التى دخلوا منها الى الشرك وسدت بها عليهم الباب ابلغ سد واحكمه ؟ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه ، وإلا فلو كان لايرجو منفعة منه فلا يتعلق قلبه به ابدا ، وحينئذ فلابد ان يكون المعبود إما مالكا للأسباب التى ينتفع بها عابده ، أو شريكا لمالكها ، أو ظهيرا أو وزيرا أو معاونا له ، او وجيها ذا حرمة وقدر ، يشفع عنده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت اسباب الشرك وانقطعت مواده .

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة فى السموات والأرض . فقد يقول المشرك : هى شريكة للمالك الحق . فنفى شركها له .

فيقول المشرك : قد تكون ظهيرا أو وزيرا ، أو معاونا . فقال سبحانه ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ .

ولم يبق الا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنه لايشفع أحد عنده الا بإذنه فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه ، كما يكون فى حق المخلوقين . فإن المشفوع عنده يحتاج الى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته ، وإن لم يأذن له منها . وأما من كل ماسواه ففقير اليه بذاته ، فهو الغنى بذاته عن كل ماسواه .

فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه ؟

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٧ من رواية ابن جرير وابن ابى حاتم وابى الشيخ فى العظمة وابن مردويه وفى الاسماء والصفات والطبرانى فى الكبير عن النواس بن سمعان

كلمة فى الشفاعة

تعريفها :

الشفاعة لغة : كمال قال ابن الأثير فى النهاية : قد تكرر ذكر الشفاعة فى الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، وهى السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم ، يقال : شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع ، والمشفع (بكسر الفاء) الذى يقبل الشفاعة ، والمشفع (بفتح الفاء) الذى تقبل شفاعته .

وفى القاموس وتاج العروس : والشفيع صاحب الشفاعة والجمع شفعاء ، وهو الطالب لغيره يتشفع به الى المطلوب .

وفيهما ايضا : وشفعته فيه تشفيعا حين شفع كمنع شفاعة اى قبلت شفاعته .

وفى حديث الحدود : (إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع) (موقف على الزبير بن العوام)

وفى حديث ابن مسعود : (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق)[١] .

أى من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعة من العفو عن فرطاته ، ومن ترك العمل به تم على إساءته وصدق عليه فيما يرفع من مساويه .

فالمشفع : الذى يقبل الشفاعة ، والمشفع (بفتح الفاء) الذى تقبل شفاعته ، ومنه حديث « اشفع تشفع »

والشفاعة فى الشرع موافقة للمعانى اللغوية . فمن الشفعاء من يشفع ابتداء ، ومنهم من يشفع بعد الطلب ، كما سيأتى إن شاء الله بيانه فى الأحاديث .

آيات خاصة بالشفاعة

ورد فى القرآن الكريم آيات تنفى الشفاعة ، وأخرى تثبتها وقد جمع العلماء بينهما ولنذكر الأيات التى تنفيها ثم نتبعها بالآيات التى تثبتها ثم نذكر ماقاله العلماء فى الجمع بينهما :-

الآيات الواردة فى نفى الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى : ﴿ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين امنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾[٣] .

وقال تعالى حاكيا عن بعض الصالحين ﴿ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغنى عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون ﴾[٤] ففى هذه الآيات نفى الشفاعة .

---

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧
(٢) الآية ٤٨ من سورة البقرة
(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة
(٤) الآية ٢٣ من سورة يس

وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباو لهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولاشفيع ، وإن تعدل كل عدل لايؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بماكسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[٣] .

وقال تعالى حاكيا عن أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ، ولاصديق حميم . فلو أن لناكرة فنكون من المؤمنين ﴾[٤] .

وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولاشفيع أفلا تتذكرون ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون ﴾[٦] .

وقال تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مالللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[٧] .

ففى هذه الآيات نفى الشفيع

الآيات فى إثبات الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه ﴾[٨]

وقال تعالى ﴿ مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾[٩]

وقال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[١٠]

ففى هذه الآيات إثبات الشفيع بشروط .

وقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا : لاترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾[١١] .

---

(١) الآية ٥١ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنعام
(٣) الآية ١٨ من سورة يونس
(٤) الآيات ١٠٠ الى ١٠٢ من سورة الشعراء
(٥) الآية ٤ من سورة السجدة
(٦) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر
(٧) الآية ١٨ من سورة غافر
(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٩) الآية ٣ من سورة يونس
(١٠) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء
(١١) الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩ من سور طة

وقال تعالى : ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[١] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ثم قال ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه ﴾ اى من الأصنام والأوثان (الشفاعة) اى لايقدرون على الشفاعة لهم (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) هذا استثناء منقطع أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . أهـ .

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[٢] .

هذه الآيات تدل على الشفاعة المثبتة بشروط .

الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية

يتحصل من هذا أن النفى مقصود به الشفاعة التى تطلب من غير الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ والشفاعة المثبتة لاتقبل الا بشروط .

١ ـ قدرة الشافع على الشفاعة كما قال تعالى فى حق الشافع الذى يطلب منه وهو غير قادر على الشفاعة : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فعلم من هذا أن طلب الشفاعة من الأموات طلب ممن لايملكها قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ﴾ .

وقال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ﴾ .

٢ ـ اسلام المشفوع له : قال تعالى : ﴿ ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع ﴾ والمراد بالظالمين هنا ، الكافرون ، بدليل الأحاديث المتواترة فى الشفاعة لأهل الكبائر وستأتى إن شاء الله فى موضعها .

قال الحافظ البيهقى ـ رحمه الله ـ فالظالمون هاهنا هم الكافرون ، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذهى فى ذكر الكافرين . اهـ .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية : أى ليس للذين ظلموا انفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولاشفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . اهـ .

٣ ـ الأذن للشافع ، كما قال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه ﴾ .

٤ ـ الرضا عن المشفوع له كما قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يشفعون الا لمن ارتضى ﴾ .

---

(١) الآية ٨٦ من سورة الزخرف

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم

الشفاعة العظمى

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال :

(أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذلك ؟ يجمع الناس - الأولين والآخرين - فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولايحتملون ، فيقول الناس : الا ترون ماقد بلغلكم ؟ الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له : أنت ابو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ الا ترى الى ماقد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحا ، فيقولون : يانوح انك انت اول الرسل الى اهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى وعز وجل - قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة ، دعوتها على قومى ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم ، فيقولون ياابراهيم انت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانى قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن ابو حيان فى الحديث نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : ياموسى انت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون الى عيسى فيقولون : ياعيسى انت رسول الله وكلمته الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس من المهد صبيا ، اشفع لنا ، الا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى . إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد - ﷺ - فيأتون محمدا ، فيقولون : يامحمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى - عز وجل - ثم يفتح على من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك سل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأس فأقول : أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يامحمد ادخل من امتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب - ثم قال - والذى نفسى بيده ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير . وكما بين مكة وبصرى)[1] .

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان ج ١ ص ١٨٤ رقم ٣٢٧
وفى مسند أحمد - ج ١ ص ٢٨١

الحديث أخرجه مسلم والترمذى وأحمد وابن خزيمة وابو عوانه وعندهم كلهم الا البخارى وابا عوانه (مابين مكة وهجر).

وأخرج البخارى أيضا بسنده عن أنس أن النبى - ﷺ - قال: يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون ياآدم أما ترى الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا الى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناك ويذكر لهم خطيئة التى أصاب ولكن ائتوا نوحآ فيأتون نوحآ فيقول: لست هاك ويذكر خطيئته التى أصاب ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول:

فيأتون ابراهيم فيقول: لست هناكم ويذكر لهم خطاياه التى اصابها ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه تكليما فيأتون موسى فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصابها ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا محمدا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عبدا غفر له ماتقدم من ذنبه ماتأخر فيأتوننى فأنطلق فأستأذن على ربى فيؤذن لى عليه فإذا رأيت ربى وقعت له ساجدا فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى: ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم اشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم اشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم ارجع فأقول: يارب مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود

فقال النبى - ﷺ -: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه مايزن من الخير ذرة)[١]

شفاعة النبى ﷺ وكونه أول شفيع

روى الامام مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ - (أنا أول الناس يشفع فى الجنة وانا اكثر الأنبياء تبعا)[٢]

عن انس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ - وآله وسلم: (أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة وأنا اول من يقرع باب الجنة)[٣].

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب التوحيد - ج ٩ ص ١٤٩، ١٥٠ ج ١ الشعب
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٠
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣١

وعن انس بن مالك قال : قال النبى - ﷺ - (أنا أول شفيع فى الجنة ولم يصدق بنى ماصدقت وإن من الأنبياء نبيآ مايصدقه من أمته إلا رجل واحد)(١) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - (آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد فيقول : بك أمرت لاأفتح لأحد قبلك)(٢) .

عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - (للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها - قال - ويبقى منبرى لاأجلس عليه ولا أقعد قائم بين يدى الله ربى مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعدى فأقول : يارب أمتى فيقول الله عز وجل - : يامحمد ماتريد أن تصنع بأمتك فيقول : يارب عجل حسابهم فيدعى بهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتى فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النار وحتى أن مالكا خازن النار يقول يامحمد ماتركت للنار لغضب ربك من نقمة)(٣) .

الحديث أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يحتجا بمحمد بن ثابت البنانى وهو فى مسند الحديث وهو قليل الحديث يجمع حديثه والحديث غريب فى أخبار الشفاعة فتعقبه الذهبى فقال : ضعفه غير واحد والحديث منكر .

روى ابن خزيمة بسنده عن سلمان الفارسى قال : (يأتون النبى ﷺ فيقولون : يانبى الله آنت الذى فتح الله بك وختم وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فاشفع لنا إلى ربك فيقول : نعم أنا صاحبكم فيخرج بحوش النار حتى ينتهى إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة فى الباب من ذهب فيقرع الباب فيقال : من هذا فيقال : محمد قال : فيفتح له قال : فيجىء حتى يقوم بين يدى الله فيستأذن فى السجود فيؤذن له قال : فيفتح الله له من الثناء والتحميد والتمجيد مالم يفتحه لأحد من الخلائق فينادى : يامحمد ارفع رأسك وسل تعطه وادع تجب قال : فيرفع رأسه فيقول : رب أمتى أمتى ثم يستأذن فى السجود فيؤذن له فيفتح له من الثناء والتحميد والتمجيد مالم يفتح لأحد من الخلائق فينادى : يامحمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع وادع تجب قال : يفعل ذلك مرتين أو ثلاثا فيشفع لمن كان فى قلبه حبة من حنطة أو مثقال شعيرة أو مثقال حبة من خردل من إيمان .

قال سلمان : فذلك المقام المحمود)

وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إنى لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمته يوم القيامة ولافخر وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولافخر سآتى باب الجنة فيفتحون لى فأسجد لله تعالى فيقول : ارفع رأسك يامحمد وتكلم يسمع لك وقل يقبل منك واشفع تشفع فأرفع فأقول : أمتى يارب فيقول : اذهب إلى أمتك فمن وجدت فى قلبه مثقال حبة من شعير من إيمان فأدخله الجنة فأقبل بمن وجدت فى قلبه ذلك فأدخلهم الجنة وآتى الجبار وأسجد له فيقول : ارفع رأسك يامحمد وتكلم يسمع منك وقل يقبل قولك واشفع تشفع فأقول : أمتى أمتى فيقول : اذهب إلى أمتك

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٢
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٣
(٣) الحديث فى المستدرك للحاكم - ج ١ - كتاب الايمان ص ٦٥

فمن وجدت فى قلبه مثقال نصف حبة من شعير من الايمان فأدخله الجنة ، فأذهب فمن وجدت فى قلبه مثقال ذلك فأدخله الجنة قال : فآتى الجبار فأسجد له فيقول : ارفع رأسك يامحمد وتكلم يسمع منك واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : أمتى أمتى أى رب فيقول : إذهب فمن وجدت فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأدخله الجنة فأذهب فمن وجدت فى قلبه مثقال ذلك فأدخلهم الجنة وفرغ من الحساب حساب الناس . .

وتمام الحديث كما فى مسند الإمام أحمد ج ٣ : وأدخل من بقى من أمتى النار من أهل النار فيقول أهل النار ماأغنى عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لاتشركون به شيئا فيقول الجبار عز وجل : فبعزتى لأعتقهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون فى نهر الحياة فينبثون فيه كما تنبت الحبة فى غثاء السيل ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل)[١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع وأنا بيدى لواء الحمد يوم القيامة ولافخر وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولافخر وأول شخص يدخل علىَّ الجنة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومثلها فى هذه الأمة مثل مريم فى بنى اسرائيل)[٢] .

الشفاعة لأهل الكبائر

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة أنه قال : قيل يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ (لقد ظننت ياأبا هريرة الا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه)[٣].

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : سألت رسول الله ﷺ : ماذا رد إليك ربك فى الشفاعة فقال : (والذى نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتى لما رأيت من حرصك على العلم والذى نفس محمد بيده مايهمنى من انقصافهم على أبواب الجنة أهم عندى من تمام شفاعتى وشفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه)[٤] .

---

(١) الحديث فى مسند أحمد ـ مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) الحديث بمعناه فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٠

وفى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٣٩ حديث بلفظ : « أول شخص يدخل الجنة فاطمة بنت محمد ، ومثلها فى هذه الأمة مثل مريم فى بنى إسرائيل »

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ـ كتاب العلم ـ ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ط الشعب

(٤) الحديث فى مسند أحمد ـ مسند أبى هريرة ج ٢ ص ٣٠٧

هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التى ليس فيها التصريح بالشفاعة لأهل الكبائر فمن قال لا إله إلا الله يشمل أهل الكبائر وغيرهم ممن لايشرك بالله شيئا .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن دارة مولى عثمان قال : (بين أنا بالبقيع مع أبى هريرة إذ سمعناه يقول : أنا أعلم الناس بشفاعة محمد - ﷺ - قال : فتداك الناس عليه فقالوا : إيه يرحمك الله ؟ قال : يقول : اللهم اغفر لكل عبد مسلم لقيك مؤمن بى لايشرك بك) .

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : (لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة)[١] .

وروى ابن ماجه بسنده عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - (خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين)[٢]

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى أن النبى - ﷺ - كان يحرسه أصحابه فقمت ذات ليلة فلم أره فى منامه فأخذنى ماقدم وماحدث فذهبت أنظر فإذا أنا بمعاذ قد لقى مثل الذى لقيت فسمعنا صوتا مثل هزيز الرحا فوقفا على مكانهما فجاء النبى - ﷺ - من قبل الصوت فقال : (هل تدرون أين كنت ؟ وفيم كنت ؟ أتانى آت من ربى - عز وجل - فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فقالا : يارسول الله ادع الله أن يجعلنا فى شفاعتك فقال أنتم ومن مات لايشرك بالله شيئا فى شفاعتى)[٣]

شفاعته ﷺ وعلى آله وسلم
لأناس قد أمر بهم إلى النار

روى الحافظ بن أبى الدنيا بسنده عن عبد الله بن الحارث أن النبى - ﷺ - قال : (أمر بقوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار قال : فيقولون : يامحمد ننشدك الشفاعة قال : فآمر الملائكة أن يقفوا بهم قال : فأنطلق واستأذن على الرب - عز وجل - فيأذن لى فأسجد وأقول : يارب قوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار قال : فيقول لى : انطلق فأخرج منهم قال : فانطلق وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج ثم ينادى الباقون يامحمد ننشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لى فأسجد فيقال لى : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأثنى على الله بثناء لم يثن به عليه أحد ، وأقوم : ثم قوم من أمتى قد أمر بهم الى النار فيقول انطلق فأخرج منهم قال : فأقول يارب أخرج منهم من قال : لا إله إلا الله ومن كان فى قلبه حبة من إيمان قال : فيقول : لى يامحمد ليست تلك لك . . تلك لى قال فأنطلق وأخرج من

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب الدعوات - ج ٨ ص ٨٢ ط الشعب
(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - ج ٢ ص ١٤٤١ رقم ٤٣١١
(٣) الحديث فى مسند أحمد - حديث ابى موسى - ج ٤ ص ٤٠٤

شاء الله أن أخرج قال : ويبقى قوم فيدخلون النار فيعيرهم أهل النار فيقولون : انتم كنتم تعبدون الله ولاتشركون به ادخلكم النار قال : فيحزنون لذلك قال : فيبعث الله ملكا بكف من ماء فينضح بها فى النار ويغبطهم أهل النار ثم يخرجون ويدخلون الجنة فيقال : انطلقوا فتضيفوا الناس . فلو أنهم جميعهم نزلوا برجل واحد كان لهم عنده سعة ويسمون المحررين) .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا يقتضى تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها ويكون معنى قوله (أخرج) أى انقذ بدليل قوله بعد ذلك (ويبقى قوم فيدخلون النار) والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ا . هـ

وروى الحافظ أبو نعيم فى الحلية : حدثنا محمد بن المظفر بن موسى الحافظ حدثنا أبو حفص أحمد ابن محمد بن عمر بن حفص الأوصابى حدثنا ابن حمير حدثنا الثورى حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال : (أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى الدنيا)[1]

شفاعته ﷺ
لأناس يدخلون الجنة بغير حساب

روى الترمذى بسنده عن محمد بن زياد الألهانى قال : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ : يقول (وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لاحساب عليهم ولاعذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربى)[2]

شفاعته ﷺ فى رفع
درجات بعض من يدخل الجنة فوق
ماكان يقتضيه عمله

روى البخارى بسنده عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : لما فرغ النبى ـ ﷺ ـ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أو طاس فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه قال أبو موسى : وبعثنى مع أبى عامر فرمى أبو عامر فى ركبته فانتهيت إليه فقلت : ياعم من رماك فأشار إلى أبى موسى فقال ذاك قاتلى الذى رمانى فقصدت له فلحقته فلما رآنى ولى فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحى ألا تثبت فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ثم قلت لأبى عامر : قتل الله صاحبك قال : فانزع ذا السهم فنزعته فنزا منه الماء قال : يابن أخى أقرىء النبى ـ ﷺ ـ السلام وقل له : استغفر لى واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيرا ثم مات فرجعت فدخلت على النبى ـ ﷺ ـ فى بيته على

---

(١) الحديث فى حلية الأولياء ج ٤ ص ١٠٨
(٢) الحديث فى سنن الترمذى ـ باب ماجاء فى الشفاعة ـ ج ٤ ص ٤٥ رقم ٢٥٥٤

سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال : قل له استغفر لي فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر ورأيت بياض إبطيه ثم قال : (اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس فقلت : ولي فاستغفر فقال : اللهم اغفر لعبد الله ابن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما)[1]

قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لابي موسى .

وروى الإمام مسلم - رحمه الله - بسنده عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله - ﷺ - على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال (إن الروح اذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال (لاتدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال :) اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه)[2]

في الشفاعة في خروج الموحدين من النار

قال البخاري - رحمه الله - بسنده عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال (هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟

قالوا : لا يارسول الله

قال : (فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟

قالوا : لا

قال : (فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمه فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول :

أنا ربكم فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه

فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولايتكلم يومئذ أحد إلا الرسل

وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟

قالوا نعم قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجوهم ويعرفوهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار .

---

(١) الحديث في صحيح البخاري - باب غزاة أوطاس - ج ٥ ص ١٩٧ ط الشعب

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧

فكل ابن آدم تأكله النار إلا أُثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا ـ أى احترقوا ـ فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار .

فيقول يارب اصرف وجهى عن النار قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها
فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك ؟

فيقول : لا وعزتك
فيعطى الله مايشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار
فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ماشاء الله أن يسكت ثم قال :
يارب قدمنى عند باب الجنة

فيقول الله له : أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألاتسأل غير الذى كنت تسأل ؟ فيقول : يارب لااكون أشقى خلقك فيقول : فما عسيت أن أعطيت ذلك ألاتسأل غيره ؟
فيقول لا وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ماشاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة .

فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها ومابها من النضرة والسرور فيسكت ماشاء الله أن يسكت
فيقول : يارب أدخلنى الجنة
فيقول الله :
ويحك ياابن آدم ماأعذرك أليس قد أُعطيت العهود والميثاق ألاتسأل غير الذى أعطيت ؟
فيقول : يارب لاتجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله ـ عز وجل ـ منه
ثم يأذن له فى دخول الجنة
فيقول : تمن فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيته قال الله ـ عز وجل ـ
من كذا وكذا أقبل

يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله ـ تعالى ـ : لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد لأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ إن رسول الله ـ ﷺ ـ

قال : قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله
قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ـ ﷺ ـ إلا قوله
لك ذلك ومثله معه
قال أبو سعيد إنى سمعته يقول :
ذلك لك وعشرة أمثاله
قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ كما فى موارد الظمآن بسنده عن صالح بن أبى ظريف ، قال : قلت لأبى

سعيد الخدرى : أسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يقول فى هذه الآية : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ؟ فقال : نعم ، سمعته يقول : (يخرج الله أناسا من المؤمنين من النار بعد مايأخذ نقمته منهم ، قال : لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال المشركون : أليس كنتم تزعمون فى الدنيا أنكم أولياؤه ؟ فمالكم معنا فى النار ؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة فتشفع لهم الملائكة والنبيون حتى يخرجوا بإذن الله ، فلما أخرجوا قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج من النار ، فذلك قول الله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) قال : فيسمون الجهنمين من أجل سواد فى وجوههم ، فيقولون : ربنا أذهب عنا هذا الاسم ، فيغتسلون فى نهر الجنة ، فيذهب ذلك منهم)[1]

فى طلب الشفاعة من المخلوق فيما يقدر عليه

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : شكا الناس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قحوط المطر (احتباسه) فأمر بمنبر فوضع له بالمصلى ووعد الناس يوما يخرجون فيه ، فخرج حين بدا حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال (إنكم شكوتم جدب دياركم وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل مايريد : اللهم لاإله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، وأجعل ماأنزلت علينا قوة وبلاغا إلى حين) ثم رفع يديه فلم يزل (يدعو) حتى رئى بياض إبطيه ثم حول إلى الناس ظهره وقلب رداءه وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله تعالى سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى الكن (البيت) ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال « **أشهد أن الله على كل شىء قدير . وأنى عبد الله ورسوله** » [٢] (رواه الحاكم وصححه وابو داود وقال حديث غريب واسناده جيد) .

وأخرج الامام أحمد رحمه الله بسنده عن أنس قال : سألت النبى ـ ﷺ ـ أن يشفع لى يوم القيامة ، قال : قال (أنا فاعل بهم) قلت : (يارسول الله فأين اطلبك ؟ قال (اطلبنى أول ماتطلبنى على الصراط ، قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فأنا عند الميزان قال : قلت : فإن لم ألقك عند الميزان . قال : (فأنا عند الحوض ، لاأخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة)[٣] (أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب) .

---

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٩ ص ٢٦٢
(٢) الحديث فى المستدرك للحاكم ج ١ ص ٣٢٨ ، وفى سنن أبى داود ـ كتاب الصلاة ـ ج ١ ص ٦٩٢ رقم ١١٧٣
(٣) الحديث فى مسند أحمد ـ مسند أنس بن مالك ـ ج ٣ ص ١٧٨

فى شفاعة المؤمنين

أخرج الترمذى بسنده عن أبى سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن من أمتى من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة)[١] (وقال هذا حديث حسن) .

فى شفاعة الأولاد لآبائهم

قال الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول : يارب أنى لى هذه ؟ فيقال : باستغفار ولدك لك)[٢] (الحديث رجاله رجال الصحيح)

وأخرج مسلم بسنده عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : أنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله - ﷺ - بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : قال : نعم (صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال : أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده - كما آخذ أنا بصنفه ثوبك هذا ، فلا يتناهى - أو قال : فلا ينتهى - حتى يدخله الله وأباه الجنة)[٣]

وقال الأمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله وإياهم بفضل رحمته الجنة ، وقال : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، قال : فيقولون : حتى يجىء أبوانا ، قال ثلاث مرات ، فيقولون مثل ذلك ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم)[٤]

وقال الأمام أحمد بسنده عن معادية بن قرة عن أبيه قال : إن رجلا كان يأتى النبى - ﷺ - ومعه ابن له ، فقال له النبى - ﷺ - (أتحبه ؟) فقال : يارسول الله أحبك الله كما أحبه ، ففقده النبى - ﷺ - فقال : (مافعل ابن فلان ؟ قالوا : يارسول الله مات : فقال النبى - ﷺ - لأبيه : (أما تحب ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك) .

فقال الرجل يارسول الله أله خاصةً ، أو لكلنا ؟ قال (بل لكلكم)[٥]

فى أسباب الشفاعة

شفاعة القرآن :

قال الترمذى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى (تبارك الذى بيده الملك)[٦] . هذا حديث حسن .

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٦ رقم ٢٥٥٦
(٢) الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٥٠٩
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٩ رقم ١٥٤
(٤) الحديث فى مسند أحمد - مسند ابى هريرة - ج ٢ ص ٥١٠
(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث قرة المزنى - ج ٥ ص ٣٥
(٦) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٨ رقم ٣٠٥٣

وأخرج ابن حبان بسنده عن جابر عن النبى - ﷺ - قال (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار)(١) الحديث حسن .

وقال مسلم - رحمه الله - بسنده عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غياتيان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولايستطيعها ا لبطلة)(٢).

من أسباب الشفاعة سكنى المدينة والموت بها

قال الامام مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : **« لايصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا »**(٣)

وأخرج ابن حيان بسنده كما فى موارد الظمآن عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عنبه عن الصحيتة امرأة من بنى ليث سمعها تحدث صفية بنت أبى عبيد أنها سمعت رسول الله ﷺ - يقول (من اسطاع منكم ألا يموت إلا بالمدينة فليمت بها فإنه من يمت بها يشفع له أو يشهد له)(٤) .

(الحديث على شرط مسلم)

وقال الترمذى بسنده عن ابن عمر قال : قال النبى - ﷺ - (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها)(٥) . (هذا حديث حسن صحيح)

الصلاة على النبى ﷺ
وطلب الوسيلة له .

قال مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى - ﷺ - يقول (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا

---

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - ج ١ ص ٥٥٣ رقم ٢٥٢
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الحج - ج ٢ ص ١٠٠٤ رقم ٤٨٢
(٤) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ج ٦ ص ٢١
(٥) الحديث فى سنن الترمذى - باب جاء فى فضل المدينة - ج ٥ ص ٣٧٧ رقم ٤٠٠٩

الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة)(١) .

وأخرج البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة)(٢) .

شفاعة المصلين على الميت الموحد

أخرج مسلم بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى - ﷺ - (مامن ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له ، إلا شفعوا فيه)(٣) .

وأخرج مسلم أيضا بسنده عن كريب مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان ، فقال : ياكريب انظر مااجتمع له من الناس ، قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : نعم ، قال أخرجوه ، فإنى سمعت رسول الله - ﷺ يقول : (مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لايشركون بالله شيئا إلا شفعهم فيه)(٤) .

أعمال متنوعة من أسباب الشفاعة

أخرج الإمام أحمد بسنده عن زياد بن أبى زياد مولى بن مخزوم عن خادم النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - رجل أو أمرأة قال : كان النبى - ﷺ - مما يقول للخادم : (ألك حاجة) قال (حتى كان ذات يوم فقال : يارسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة ، قال (ومن دلك على هذا ؟ قال ربى ، قال : (أما لا فأعنى بكثرة السجود)(٥) .

المسلم الذى لاتقبل شفاعته

أخرج مسلم بسنده عن أم الدرداء عن أبى الدرداء سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إن اللعانين لايكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)(٦) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٢٨٨ رقم ١١
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب التفسير - سورة بنى إسرائيل - ج ٦ ص ١٠٨
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٤ رقم ٥٨
(٤) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٥ رقم ٥٩
(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث خادم النبى - ﷺ - ج ٣ ص ٥٠٠
(٦) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٠٦ رقم ٨٦

الشفاعات الدنيوية

الشفاعات الدنيوية منها ماهو مشروع ، ومنها ماليس بمشروع قال الله سبحانه ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾[١] .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ : أى من يسعى فى أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** ﴾

أى يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ - أنه قال : (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء)[٢]

وقد جاءت السنة المطهرة ببيان مايحل من الشفاعة ومايحرم .

أخرج البخارى بسنده عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه - ﷺ - ماشاء) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له . مغيث ، كأنى أنظر اليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال النبى - ﷺ - لعباس : ياعباس : (ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثا ؟ فقال النبى - ﷺ - (لو راجعته قالت : يارسول الله تأمرنى ؟ قال : إنما أشفع (قالت لاحاجة لى فيه)[٣] .

مالاتحل الشفاعة فيه

قال البخارى - رحمه الله - حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة - رضى الله - عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله - ﷺ -؟ ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله - ﷺ - ، فكلمه أسامة فقال رسول الله - ﷺ - : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) (من كتاب الشفاعة لأبى عبد الرحمن مقبل بن هادى الوادعى) .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة النساء

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ١٤٥

(٣) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب الطلاق - ج ٧ ص ٦٢ ط الشعب

لايملك الرزق إلا الله

قوله تعالى ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو أياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين . قل لاتسئلون عما أجرمنا ولانسئل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم . قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم** ﴾ .

يقول تعالى مقررا تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالالهية ايضا فكما كانوا يعترفون بأنهم لايرزقهم من السماء والأرض أى بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض** ﴾ وفى سورة يونس ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض . . الآية** ﴾[1] .

قال الامام ابن القيم : فإن قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى فى سورة يونس ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض . . الآية** ﴾ وبين قوله فى سورة سبأ ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله** ﴾

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها ، وألطفها فرقا ، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع ، فإن الآيات التى فى سورة يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم . ومدبر أمورهم وغيرها ، ومخرج الحى من الميت والميت من الحى . فلما كانوا مقرين بهذا كله حين الاحتجاج به عليهم : أن فاعل هذا هو الله الذى لا إله غيره ، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لايملكون شيئا من هذا ، ولايستطيعون فعل شىء منه ولهذا قال بعد أن ذكر من شأنه تعالى (فسيقولون الله) أى لابد أنهم يقرون بذلك (ولايجحدونه . فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به . والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التى يشاهدونها بالحق ، ولم يكونوا مقرين ولاعالمين بنزول الرزق من سماء الى سماء حتى تنتهى اليهم ، ولم يصل علمهم الى هذا . فأفرد لفظ السماء هنا ، فإنهم لايمكنهم إنكار مجىء الرزق منها ، لاسيما والرزق ههنا هو المطر فمجيئهمن السماء التى هى السحاب ، فإنه يسمى سماء لعلوه .

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب فى السماء بقوله ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾[2] والسحاب إنما هو مبسوط فى حيز العلو ، لافى نفس الفلك وهذا معلوم بالحس ، فلا يلتفت إلى غيره .

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء ، لأنهم لايقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح .

فلابد من الوحى الذى به الحياة الحقيقية الأبدية . وهو أولى باسم الرزق من المطر الذى به الحياة الفانية المنقضية . فما ينزل من فوق ذلك من الوحى والرحمة والألطاف والمواد الربانية ، والتنزلات

---

(١) الآية ٣١ من سورة يونس
(٢) الآية ٤٨ من سورة الروم

الألهية ، ومابه قوام العالم العلوى والسفلى من أعظم أنواع الرزق ، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به ، فخوطبوا بماهو أقرب الأشياء إليهم ، بحيث لايمكنهم انكاره أما الآية التى فى سبأ : فلم تنتظم ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال (قل : من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله) ولم يقل : سيقولون الله . فأمر تعالى نبيه - ﷺ - أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذى ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع . وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها فى واحدة من الاثنية . إذ يقربه كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر .

وقوله تعالى ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد - ﷺ - للمشركين والله مانحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد وقال عكرمة معناها : أنا نحن لعلى هدى وإنكم لفى ضلال مبين .

والمعنى أ أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ، ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجاحد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع - لعلى الهدى أو فى الضلال البين الذى لاشك فيه .

وهذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب فى محاورتها لارخاء العنان للمخاطب حتى اذا سمعه الموافق أو المخالف قال لمن خوطب به لقد أنصفك صاحبك .

ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله - ﷺ - قبل أن يسلم

أتهجوه ولست له بكفء . . فشركما لخيركما الفداء .

وفى ذكر هذا بعد ماتقدم من الحجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تميز المهتدى من الضال والإيحاء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأسند الأجرام إلى انفسهم والعمل للمخاطبين فقال : ﴿ **قل لاتسألون عما أجرمنا ولانسأل عما تعملون** ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين .

أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الأثام وارتكبنا من الذنوب ونحن لانسأل عما تعملون من عمل - خيرا كان أو شرا ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ **فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء تعملون** ﴾(١)

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** ﴾ أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامه يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهناك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية .

---

(١) سورة يونس آية : ٤١

كما قال سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الأخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾[١] .

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيتا لهم فقال : ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أى قل لهم : ماالذى غواكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم ، وعظيم خطئهم بقوله :

﴿ كلا . بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى ليس الأمر كما وصفتم فلا نظير له تعالى ولاند ، بل هو الله الواحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياتيه الأولى والأخرة .

قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن عكرمة ، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضل محمدا ـ ﷺ ـ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال ـ رضى الله عنه ـ إن الله تعالى قال ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾[٢] وقال للنبى ـ ﷺ ـ ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والانس . وهذا الذى قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[٣] .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (بعثت إلى الأسود والأحمر)[٤] قال مجاهد يعنى الجن والإنس وقال غيره يعنى العرب والعجم والكل صحيح . وقال محمد بن كعب فى قوله تعالى . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ يعنى إلى الناس عامة وقال قتادة فى هذه الآية أرسل الله تعالى محمدا ـ ﷺ ـ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل . والآية الكريمة نص صريح فى عموم رسالته ـ ﷺ ـ ونحوها قوله تعالى ﴿ قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾[٥] وقوله جل شأنه ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٦] وقوله تبارك اسمه ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٧] وقوله جل شأنه ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

---

(١) الآيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ من سورة الروم

(٢) سورة ابراهيم آية : ٤

(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ١ ص ١١٩ كتاب الصلاة باب قول النبى جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا . الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٣ ـ ٥٢١ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ كتاب المساجد رقم ٣ ـ ٥٢١ أنظر مسند احمد جـ ١ ص ٢٥٠ مسند ابن عباس .

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

(٦) سورة الفرقان آية ١

(٧) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾(١) قوله تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله جل شأنه . ﴿ ولكن اكثر الناس لا يؤمنون ﴾(٢) وقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾(٣) وقوله ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾(٤) وقوله ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾(٥) .

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فأنت المبشر للطائعين بالجنة ، المنذر للعصاة من عذاب النار .

صلت عليك ملائكة الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزودا ... بحمى الإله وراية القرآن

صلى الله عليك يا علم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ هذا سؤال تهكم وإنكار واستعجال ونحوه قوله تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾(٦) وقوله جل شأنه ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾(٧) ولقد جاء الجواب حاسما وقاطعا بقوله تعالى ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ وذلك مثل قوله تعالى ﴿ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾(٨) وقوله جل جلاله ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾(٩) فياله من يوم ما أطوله ، وجبار ما أعد له ، وخطب ما أهوله . ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ﴾(١٠) وإذا كان تأخيره محالا عند مجيئه فكذلك تقديمه ، وإذا كان ذلك كذلك فإن المبعوثين لا يستقدمون ولا يستأخرون . ﴿ .... ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾(١١) ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾(١٢) ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾(١٣) .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٨ .
(٢) سورة هود نهاية الآية ١٧ .
(٣) سورة يوسف آية ١٠٣
(٤) سورة الأنعام آية ١١٦ .
(٥) سورة الزخرف آية ٧٨ .
(٦) سورة الأعراف : الآيتان ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٧) سورة الشورى : آية ١٨ .
(٨) سورة النبأ آية : ٣٩
(٩) سورة هود الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥
(١٠) النبأ آية : ٤٠
(١١) سورة الكهف : جزء الآية ٩٩ .
(١٢) النبأ آية : ١٨
(١٣) الكهف آية : ٤٧ ، ٤٨

وقوله تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت الا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[1] .

الظالمون فى ساحة الحساب

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

معانى المفردات :

موقوفون : محبوسون وممنوعون ، استضعفوا : هم المستضعفون (استكبروا) هم المستكبرون من الرؤساء والمقدمين ، مكر الليل والنهار : المكر : الاحتيال والخديعة والمراد مكركم بالليل والنهار ، اندادا : جمع ند وهو النظير والشبيه والمثل . (واسروا الندامة) أى أظهورها ، الأغلال : جمع غل وهو طوق من حديد يوضع فى العنق فلا يفلت صاحبه :

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه الأصول الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا ـ ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين

---

(١) سورة يس الآيات : ٥١ ـ ٥٤

الضالين ومضليهم من الكفار ، وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب ، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الاهانة بوضع الأغلال فى الأعناق ، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيء الأعمال وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه** ﴾ هذا إصرار منهم على الكفر والعناد والجحود مهما جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر فقد كفروا بكل ما أنزل الله من كتب ، كفروا بالقرآن الكريم ، كما كفروا بما تقدمه من الكتب التى نزلت على الأنبياء ، فيأتى بعد ذلك تهديد ووعيد من الله ، وبيان لحال هؤلاء فى ساحة الحساب ، وما يترد من حديث بين الضعفاء والمستكبرين . يصوره الكتاب العزيز تصويرا تنخلع له القلوب وتنفطر لهوله الأفئدة .

قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول** ﴾ ، أى يتردد الحديث بينهم ، ﴿ **يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين** ﴾ فيلقون بالتبعة على المستكبرين أى لولا أنتم صددتمونا عن طريق الله وآياته ورسوله لكنا مؤمنين بما أنزل الله ولكنا من الناجين اليوم من عذاب الله ، فماذا يقول المستكبرون لهم ؟ ﴿ **قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين** ﴾ وهذا منطق ابليس مع الغاوين .

قال تعالى : ﴿ **وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[1] .

ومن ثم فقد رمى المستكبرون المستضعفين بالاجرام فقالوا لهم ﴿ **بل كنتم مجرمين** ﴾ فماذا قال لهم المستضعفون ﴿ **وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا** ﴾ أى أن مكركم بنا بالليل والنهار وتدبيركم لنا المكايد وأمركم إيانا ان نكفر بالله ونشرك به اندادا ، هو الذى أضلنا عن سواء السبيل ولكن جاء القول الفصل عندما فصل الواحد القهار بينهم ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ـ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[2] .

---

(١) سورة ابراهيم الآيتان : ٢١ ـ ٢٢

(٢) سورة الأعراف آية ٣٨ ، ٣٩ .

وقال تعالى ايضا : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين ، لهم من جهنم مهاد ومن خوفهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[١] .

و قال تعالى أيضا ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ قال ابن ابى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب)[٥] .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إن جهنم . لماسبق أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب)[٣]

وروى ايضا بسنده عن الحسن بن يحيى الخشنى قال ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة الا اسم صاحبها عليها مكتوب قال فحدثته ابا سليمان الدارانى رحمة الله عليه فبكى ثم قال ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد فى رجليه والغل فى يديه والسلسلة فى عنقه ثم أدخل النار وأدخل الحضار؟ اللهم سلم)[٤] .

الرد على أهل الباطل :

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى

---

(١) سورة الأعراف الأيتان : ٤٠ ـ ٤١ (٢) سورة غافر الآيات : ٤٧ ـ ٥٠

(٣) الحديث فى حلية الأولياء ج ٤ ص ٣٦٣ فى ترجمة عبدالله بن أبى الهذيل ، وقال لم يرده مرفوعا مفصلا .

(٤) الحديث فى حلية الأولياء ج ٨ ص ٣١٨ فى ترجمة الحسين بن يحيى الحسنى .

يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

معانى المفردات : (مترفوها) : أغنياؤها وقادتها ، (يبسط الرزق) : يوسعه .

(زلفى) : زلفى وزلفة كقربى وقربة فى الوزن والمعنى .

(جزاء الضعف) : أى الجزاء المضاعف : (معاجزين) : مغالبين .

(يقدر له) : يقتر ويضيق ، (يخلفه) : يجعل له خلفا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قول المشركين لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد ان طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ (١) سلاه على ما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه له وعدواتهم إياه بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فهو ليس بدعا من بينهم ، فما من نبى بعث فى قومه إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال : ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾(٢) ثم ذكر محجتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الايمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله اياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره ، كما يكون للبر يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ، ثم ذكر أن المتقين يتمتعون اذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف وأوعد الممسكين بالإتلاف .

قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ يقول تعالى مسليا نبيه - ﷺ - وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال فى قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ ... **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾(٣) ، وقال الكبراء من قوم صالح ﴿ **للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا** إنا بما أرسل به مؤمنون - **قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾(٤) .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٦ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .
(٣) سورة الشعراء آية ١١١ .
(٤) سورة الأعراف جزء من الآية ٧٥ ، ٧٦ .

وقال عز وجل : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾[١] وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ وقال جل وعلا ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾[٢] وقال جل وعلا ههنا ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير ﴾ اى نبى ورسول ، ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم فى الشر ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أى لا نؤمن به ولا نتبعه قال ابن ابى حاتم بسنده عن عاصم عن أبى رزين قال كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر فلما بعث النبى - ﷺ - كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه اراذل الناس ومساكينهم قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلنى عليه وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب قال فأتى النبى - ﷺ - فقال : إلام تدعو؟ قال (« أدعو إلى كذا وكذا) قال أشهد أنك رسول الله . قال - ﷺ - (وما حملك على ذلك قال إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فنزلت هذه الآية ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل إليه النبى - ﷺ - إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت)[٣] وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل .

قوله تعالى ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن المترفين المكذبين أنهم قالوا نحن أكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين أى افتخروا بكثرة الأموال والاولاد واعتقدوا ان ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ثم يعذبهم فى الآخرة وهيهات لهم ذلك قال الله تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[٤] وقال تبارك وتعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[٥] وقال عز من قائل ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا - إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾[٦] وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئا بل سلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة .

---

(١) سورة الانعام آية ٥٣ .
(٢) سورة الاسراء آية ١٦ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٤٠ تفسير سورة سبأ .
(٤) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .
(٥) سورة التوبة آية ٥٥ .
(٦) سورة المدثر الآيات من ١١ : ١٧ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾ اى ليست هذه دليلا على محبتنا لكم . قال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال (إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[١] .

وقوله تعالى ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ أى إنما يقربكم عندنا زلفى الايمان والعمل الصالح ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ اى تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ﴿ وهم فى الغرفات آمنون ﴾ أى فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (ان فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها) فقال أعرابى لمن هى ؟ قال - ﷺ - (لمن طيب الكلام ، واطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام)[٢] قوله تعالى ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ﴾ اى يسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ أى جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها يحسبهم ، وقوله تعالى ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أى بحسب ماله فى ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدا وله فى ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره . كما قال تعالى ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[٣] أى كما هم متفاوتون فى الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غنى موسع عليه فكذلك هم فى الآخرة هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات وهذا فى الغمرات فى أسفل الدركات ، وأطيب الناس فى الدنيا كما قال - ﷺ - (قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه)[٤] رواه مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وقوله تعالى ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أى مهما انفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم فى الدينا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت فى الحديث (يقول الله تعالى : (انفق انفق عليك)[٥] وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما (اللهم أعط ممسكا تلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا)[٦] وقال رسول الله - ﷺ - (انفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا)[٧] وقال إن أبى حاتم بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٢٨٥ مسند أبى هريرة .
(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠٩ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .
(٣) سورة الاسراء الآية ٢١ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ، ص ٧٣٠ كتاب الزكاة باب فى الكفاف والقناعة رقم ١٢٥ - ١٠٥٤ .
- وانظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٦ أبواب الزهد رقم ٢٤٥٢ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٤١ تفسير سورة سبأ .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب فى المنفق والممسك رقم ٥٧ - ١٠١٠ .
(٧) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .

الله - ﷺ - : (ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده حذار الانفاق » ثم تلا هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[١] وروى (شرار الناس يبايعون كل مضطر إلا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكا الى هلاكه)[٢] وقال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم .

بعض مواقف الكفار فى الدنيا والآخرة

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۖ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .
(٢) انظر المرجع السابق .

وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

معانى المفردات

(يصدكم) : يمنعكم ، (إفك) : كذب ، (مفترى) : مختلق لا أساس له ، (يدرسونها) : يقرءونها ، (معشار) : المعشار والعشر سواء ، وقيل المعشار عشر العشر اى واحد فى المائة ، وقيل هو عشر العشير والعشير عشر العشر أى واحد فى الألف ، (نكير) : المراد فكيف كان عقابى وعذابى ، (مثنى وفرادى) : المراد وحدانا وجماعات ، (من جنة) : من جنون ، (يقذف بالحق) : المراد يبين الحجة ويرمى بها الباطل ، (فزعوا) : الفزع الخوف والاضطراب ، (فلا فوت) : أى فلا هروب ولا نجاة ، (التناوش التناول بسهولة ويسر ، (ويقذفون) ' يرمون ، (بأشياعهم) : جمع شيع الذى هو جمع شعية وهى الجماعة المتشعية لمذهب أو رجل .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن حال النبى ﷺ مع قومه ليس بدعا من الرسل ، فحاله معهم كحال الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، فكلهم كذبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله ، ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لا صلة لها بمحبة الله ولا سخطه ـ أردف ذلك ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة لمعبوداتهم أمامهم . هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الجن والشياطين بوسوستهم لهم ، ثم بين أنهم فى ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم ، ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ، ثم أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب وهو صدهم عن دعوة الرسول ﷺ بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفترى وإنه سحر واضح لا شك فيه ، وقد كان فيما حل بالامم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه ، وأوصاهم أن يشمروا عن ساعد الجد طلبا للحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكرون ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة ، وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم فى دعوته ، فهو لا يطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شىء ، ثم أبان لهم أن الحق قد وضح ، وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور

الحق ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[١] وبعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم اصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول ، وأنى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك فى مكنتهم فى دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا من جزاء ما كانوا فيه من شك مريب فى الحياة الأولى ، وتلك سنة الله فى أشباههم من قبل .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ .

هذا مشهد من مشاهد القيامة يحشر الله فيه الذين عبدوا من دونه اولياء ثم يسأل الملائكة المكرمين أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون وهذا سؤال تقريع يراد به افحام المشركين كما فى قوله تبارك وتعالى : لعيسى ابن مريم : ﴿ **أأنت قلت للناس أتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾[٢] وكما برىء عيسى من هؤلاء كذلك تبرأ الملائكة منهم حيث يقولون لرب العزة ﴿ **سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن** ﴾ أى شياطين الجن كما فى قوله تعالى ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾[٣] وكما جاء فى قوله تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول** أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ماكان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من **أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا** ﴾[٤] .

وكما قال تعالى ﴿ **قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾[٥] .

وهكذا أظهرت الملائكة براءتهم من عبادة هؤلاء وأقرت أنهم كانوا يعبدون الشياطين اكثرهم بهم مؤمنون لذلك يقول تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون لو كان**

---

(١) سورة الرعد جزء من الآية ١٧ .
(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٦ ، ١١٧
(٣) سورة الأعراف جزء من الآية ٣٠ .
(٤) سورة الفرقان الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٥) سورة الاسراء الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾[١] ثم استثنى الله الملائكة والصالحين من عباده مثل المسيح والعُزير فقال : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذين كنتم توعدون ﴾[٢] ثم يأتى اليوم الفصل فى حق هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيقول تعالى ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ لانكم قد جئتم إلينا لا حول لكم ولا قوة فأنتم ومن استنصرتم بهم لا تملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٣] .

ثم يأمر بالظالمين الى النار قال تعالى ﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ام انتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٤] .

قوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ﴾ لقد اقتضى منطق العدالة الالهية أن يحكم الله على هؤلاء بالعذاب جزاء ما قدمت أيديهم ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا الشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[٥] وفى هذا المشهد إخبار من الله تعالى أن الكفار يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله - ﷺ - ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ قال تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أى ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد - ﷺ - ، وقد كانوا يودون ذلك ، ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أى من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ وقد يطلق المعشار ويراد العشر اى ما يساوى واحدا فى المائة أو ما يساوى واحدا فى الألف .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، أى من القوة فى الدنيا وكذلك قال قتادة والسدى وابن زيد كما قال تعالى : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم

---

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٩٨ - ١٠٠
(٢) سورة الانبياء الآيات : ١٠١ - ١٠٣
(٣) سورة الانعام اية : ٩٤
(٤) سورة الطور الايات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦
(٥) سورة الصافات الايات : ٣٥ - ٣٩

سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [١] أى وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال **﴿ فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ﴾** اى فكيف كان عقابى ونكالى وانتصارى لرسلى .

قوله تعالى **﴿ قل إنما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾** .

قال مجاهد ومحمد بن كعب والسدى وقتادة وغيرهم فى معنى هذه الآية قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين انك مجنون **﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾** أى إنما آمركم بواحدة وهى **﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾** أى تقوموا قياما خالصا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا هل بمحمد من جنون ، فينصح بعضكم بعضا **﴿ ثم تتفكروا ﴾** اى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ـ ﷺ ـ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك ، ولهذا قال تعالى : **﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾** .

قوله تعالى **﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾** قال البخارى بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، أنه قال : صعد النبى ـ ﷺ ـ الصفا ذات يوم فقال (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ فقال (أرأيتم لو أخبرتكم إن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى) قالوا بلى ؟ قال ـ ﷺ ـ (فإنى نذيركم بين يدى عذاب شديد) فقال أبو لهب تبا لك ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله عز وجل **﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾**[٢] وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : (أيها الناس تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال ـ ﷺ ـ (إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل ان ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم)[٣] ثلاث مرات وبهذا الاسناد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى)[٤] تفرد به الامام أحمد فى مسنده .

قال الشيخ المراغى فى تفسير هذه الآية : أى قل لهم : إنى أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا بل اتئدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه ، وجدوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين ، لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل ، وتكونون قد انصفتم الحقيقة وأمطتم الحجب التى غشت أبصاركم ورانت على قلوبكم فلم تجعل للحق منفذا . وإنما طلب اليهم التفكر وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا لأن فى الازدحام تهويش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف وفيما يشاهد كل يوم من

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٦ .
(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٧٣٧ تفسير سورة (تبت يدا أبى لهب) باب ٢
(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .
(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .

الاضطراب وتبلبل الأفكار فى الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة ما يؤيد صدق هذا ، ثم أبان لهم ان نتيجة الفكر ستؤدى بهم الى ان يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم لا يتصدى لا دعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لا يبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، وإما نبى مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه ، وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى فوجب عليكم ان تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم ايماء الى أنه معروف لهم مشهور لديهم فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنبل وكرم الخلال مما لم يتهيأ لأحد من أترابه ولداته .

قوله تعالى ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد . قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب** ﴾ هذا أمر من الله تعالى لرسوله أن يقول للقوم : يا قوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الله ولا اسألكم على تبليغ الرسالة والنصح والأمر بالتوحيد جعلا أو مكافأة ، إنما رسالة ربى فالأجر لكم ان اتبعتم أمرى ، فلكم سعادة الدنيا والآخرة ، وانا لا أبتغى إلا ثواب الله وقد كان ذلك على لسان الأنبياء السابقين قال تعالى على لسان نوح ﴿ **ويا قوم لا اسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون** ﴾ [1] وقال على لسان هود ﴿ **يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون** ﴾[2] وقال على لسان صالح ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[3] كذلك قال على لسان لوط وشعيب فى سورة الشعراء وفى سورة سبأ يقول لرسوله ومصطفاه ﴿ **إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾ أى هو العالم بما تكنه الصدور الرقيب الذى لا يغيب . ﴿ **قل إن ربى يقذف بالحق** ﴾ والقذف هو الرمى بشدة أى يقذف الباطل بالحق فإذا هو زاهق قال تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾[4] وقال ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾[5] فهو علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ولابد لهذا الدين ان ينتصر له دعوة الحق ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ اى لا يستطيع الباطل ان يبدىء شيئا أو يعيده إذ لا حياة فيه ، فقد اضمحل وزال وذهب ادراج الرياح .

الله اكبر إن دين محمد — وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده — طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

---

(١) سورة هود آية ٢٩ .
(٢) سورة هود آية ٥١ .
(٣) سورة الشعراء آية ١٤٥ .
(٤) سورة الأنبياء آية ١٨ .
(٥) سورة الاسراء آية ٨١ .

إن اهل الباطل لو اجتمعوا ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على انفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

فكم زالت رياض من رباها ... وكم بادت نخيل فى الروابى
ولكن نخلة الاسلام تنمو ... على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الاسلام باق ... ببقاء الشمس والسبع الشداد

قوله تعالى ﴿ **قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى** ﴾ أى الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ لما سئل عن تلك المسألة فى المفوضة أقول فيها برأيى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه .

وقوله تعالى ﴿ **إنه سميع قريب** ﴾ اى سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى ههنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين « انكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا »[1] .

قوله تعالى ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد . وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب** ﴾ ولو ترى يا محمد إذ فزعوا من شدة أهوال يوم القيامة ، ومما سيلقونه من شدائد تجعل الولدان شيبا فلا فوت لهم ولا مهرب ولا ملجأ ﴿ **يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾[2] ﴿ **وأخذوا من مكان قريب** ﴾ قبل أن يمعنوا فى الهروب الذى ظنوا أنهم يستطيعونه . ولأئمة التفسير فى هذا النص أقوال : قال الحسن البصرى حين خرجوا من قبورهم وقال مجاهد وعطية العوفى وقتادة من تحت أقدامهم وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ والضحاك يعنى عذابهم فى الدنيا وقال عبدالرحمن بن زيد يعنى قتلهم يوم بدر والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة الكبرى وإن كان ما ذكر متصل بذلك .

قوله تعالى ﴿ **وقالوا آمنا به** ﴾ اى إذا كان يوم القيامة قال الكافرون آمنا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا كما فى قوله تعالى ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون** ﴾[3] ولهذا قال تعالى ﴿ **وأنى لهم التناوش من مكان بعيد** ﴾ اى وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم الى الدار الآخرة لا سبيل لهم

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر ـ رقم ٤٤ ـ ٢٧٠٤ .
(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢
(٣) سورة السجدة آية ١٢ .

إلى قبول الايمان كما لا سبيل الى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد قال مجاهد ﴿ **وأنى لهم التناوش** ﴾ قال التناول لذلك . وقال الزهرى : التناوش تناولهم الايمان وهم فى الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى أما أنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال وتعاطوا الايمان من مكان بعيد وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة .

وقوله تعالى ﴿ **وقد كفروا به من قبل** ﴾ أى كيف يتأتى لهم ذلك وكيف يخادعون أنفسهم بما قالوا وهم الذين كفروا فى الدنيا بكل ما آمنوا به فى الآخرة بعدما بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . قوله تعالى ﴿ **ويقذفون بالغيب من مكان بعيد** ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ **ويقذفون بالغيب** ﴾ قال بالظن ، فتارة يقولون عن الرسول ـ ﷺ ـ انه شاعر ، وتارة يقولون انه ساحر ، وأخرى يقولون أنه كاهن ، إلى غير ذلك من الأباطيل التى قالوها رجما بالغيب ويحسبون انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين** ﴾[1] لقد كذبوا بالبعث والنشور والمعاد ﴿ **إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين** ﴾[2] قال قتادة ومجاهد يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا ناروقوله تعالى ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ لأئمة التفسير فى النص أقوال .

قال الحسن البصرى والضحاك وغيرهما يعنى الايمان وقال السدى ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ وهى التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقال مجاهد ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن انس ـ رضى الله عنهم ـ وهو قول البخارى وجماعة والصحيح انه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة فمنعوا منه .

قوله تعالى ﴿ **كما فعل بأشياعهم من قبل** ﴾ أى كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا ان لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ **إنهم كانوا فى شك مريب** ﴾ أى كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة إياكم والشك والريبة فان من مات على شك بعث عليه ومن مات على يقين بعث عليه .

---

(١) سورة المجادلة الأيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة الجاثية جزء من آخر الآية ٣٢
(٣) سورة غافر الأيتان ٨٤ ، ٨٥ .

سورة فاطر

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية اجماعا ، عدد آياتها خمس وأربعون عند الأكثرين ، وعند الشاميين ست وأربعون ، وكلماتها سبعمائة وسبعون ، وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وثلاث وثلاثون .

معظم مقصود السورة :

بيان تخليق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتركيز النعمة ، والتحذير من الجن وعداوتهم ، وتسلية الرسول ، وإنشاء السحاب وإثارته وحوالة العزة إلى الله ، وصعود كلمة الشهادة ، وتحويل الانسان من حال إلى حال ، وذكر عجائب البحر ، واستخراج الحلية منه ، وتخليق الليل والنهار ، وعجز الاصنام عن الربوبية ، وصفة الخلائق بالفقر والفاقة ، واحتياج الخلق فى القيامة ، وإقامة البرهان والحجة ، وفضل القرآن ، وشرف التلاوة ، وأصناف الخلق فى ميراث القرآن ، ودخول الجنة من أهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، وأن عاقبة الكفر الخسران ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض عن تخلخل الأركان ، وأن العقوبة عاقبة المكر ، والإخبار بأنه لو عدل ربنا فى الخلق لم يسلم من عذابه أحد من الأنس والجان .

المتشابهات :

قوله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح ﴾[١] بلفظ الماضى ، موافقة لأول السورة ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل ﴾ لأنهما للماضى لا غير وقد سبق قوله ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾[٢] بتقديم (فيه) موافقة لتقدم ﴿ ومن كل تأكلون ﴾[٢] وقد سبق قوله : ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب ﴾[٣] بزيادة الباءات قد سبق .

قوله : ﴿ مختلفا ألوانها ﴾ وبعده ﴿ ألوانها ﴾ ثم (ألوانه) لأن الأول يعود إلى ثمرات والثانى يعود إلى الجبال وقيل حمر والثالث يعود إلى بعض الدال عليه (من) لأنه ذكر (من) ولم يفسره كما فسره فى قوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ فاختص الثالث بالتذكير .

قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ بالتصريح وبزيادة اللام وفى الشورى ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ لأن الآية المتقدمة فى هذه السورة لم يكن فيها ذكر الله مصرح باسمه سبحانه وتعالى وفى الشورى متصل بقوله ﴿ ولو بسط الله ﴾ فخص بالكناية ودخل اللام فى الخبر موافقة لقوله ﴿ إن ربنا

---

(١) سورة فاطر آية ٩ .
(٢) سورة فاطر من آية ١٢ .
(٣) سورة فاطر آية ٢٥ .

لغفور شكور ﴾ وقوله ﴿ جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ على الأصل قد سبق ﴿ أو لم يسيروا فى ﴾ سبق ﴿ على ظهرها ﴾ سبق .

قوله : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾[1] كرر ، وقال فى الفتح : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ وقال فى سبحان ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ التبديل تغيير الشيء عما كان عليه قبل مع بقاء مادة الأصل ، كقوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴾[2] وكذلك ﴿ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾[3] .

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر ، وسنة الله لا تبدل ولا تحول فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لما وصف الكفار بوصفين وذكر لهم عرضين وهو قوله ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾[4] وقوله : ﴿ استكبارا فى الأرض ومكر السيء ﴾ .

وقيل : هما بدلان من قوله : ﴿ نفورا ﴾ فكما ثنى الأول والثانى ثنى الثالث ليكون الكلام كله على غرار واحد وقال فى الفتح ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فاقتصر على مرة واحدة لما لم يكن (التكرار موجبا) .

وخص سورة سبحان بقوله : ﴿ تحويلا ﴾ لأن قريشا قالوا لرسول الله - ﷺ - : (لو كنت نبيا لذهبت إلى الشام فانها أرض المبعث والمحشر فهم النبى - ﷺ - بالذهاب إليها فهيأ اسباب الرحيل والتحويل فنزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآيات ، وهى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾[5] وختم الآيات بقوله ﴿ تحويلا ﴾ تطبيقا للمعنى .

مناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقتها هلاك المشركين وانزالهم منازل العذاب لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[6] .

قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .
(٢) سورة النساء من الآية ٥٦ .
(٣) سورة ابراهيم من الآية ٤٨ .
(٤) سورة فاطر من الآية ٣٩ .
(٥) سورة الاسراء آية ٧٦ .
(٦) سورة الأنعام آية ٤٥ .

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

(فاطر) : أصل الفطر الشق ، وقد شق العدم بإخراج السماء والأرض منه والمراد خلقهما ابتداء ، (أولى أجنحة) : أصحاب أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع) : والمراد اثنين اثنين فعدل عن هذا التركيب إلى قوله مثنى ، وكذا ثلاث ورباع ، وهذا أسلوب معروف فى اللغة العربية . (ما يفتح) : المراد ما يرسل من رحمة ، (تؤفكون) : هذا اللفظ إن أخذ . الإفك بمعنى الصرف كان معناه : كيف تصرفون عن الايمان إلى الكفر ، وان قلنا مأخوذ من الإفك بمعنى الكذب كان المعنى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله ، (تغرنكم) : تلهينكم ، (الغرور) : الشيطان ، (حزبه) : أصحابه المتحزبين له المجتمعين حوله ، (سوء عمله) : المراد عمله السيء ، (حسنا) : صوابا ، (فلا تذهب نفسك) : فلا تتعاط أسباب ذهاب النفس أى هلاكها ، (حسرات) : جمع حسرة وهى هم النفس على فوات أمر بمعنى التلهف الشديد على الشيء الغائب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

لأئمة التفسير فى قوله تعالى فاطر السموات والأرض أقوال : قال سفيان بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أى بدأتها وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - أيضا : ﴿ فاطر السموات

والأرض ﴾ اى بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض .

وقد حمد الله ذاته فهو خالق السموات والأرض ومبدعها على غير نظام سابق ، كما حمد ذاته لانه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، كما حمد ذاته فى أول سورة الانعام لأنه الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، كما حمد ذاته فى أول سورة الكهف على نعمة إنزال الكتاب الذى لم يجعل له عوجا ، كما حمد ذاته لانه مالك السموات والأرض فى سورة سبأ ﴿ **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير** ﴾ .

وهنا يحمد ذاته لأنه فاطر السموات والأرض ، وجاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ﴿ **إن الله على شىء قدير** ﴾ .

والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض فاللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك خاصمت وبك حاكمت وعليك توكلت وإليك أنبت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى ولا إله إلا أنت) .

ولك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، أحمدك على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعد قدرتك ،فياالله عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك ، وعاملنا بإحسانك لا بميزانك واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وبالاجابة جدير قوله تعالى : ﴿ **جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ .

﴿ **جاعل الملائكة رسلا** ﴾ أى بينه وبين أنبيائه ، ﴿ **أولى أجنحة** ﴾ أى يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعا ﴿ **مثنى وثلاث ورباع** ﴾ أى منهم من له أكثر من ذلك . كما جاء فى الحديث أن رسول الله - ﷺ - (رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ﴾[1] ولهذا قال جل وعلا ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، وقال الزهرى وابن جريج فى قوله تعالى ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ يعنى حسن الصوت .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود .

بحث فى الملائكة

الصفات الخلقية وما يتعلق بها

فى مادة الخلق

قال رسول الله - ﷺ - فى الحديث الذى ترويه السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنها - . (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم)[1] رواه مسلم .

فبين - ﷺ - أن المادة التى خلقوا منها هى النور .

متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أب البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل فى الأرض خليفة ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾[2] والمراد بالخليفة آدم - عليه السلام - وأمرهم بالسجود له حين خلقه . ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[3] .

عظيم خلقهم

قال الله تعالى فى ملائكة النار : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[4] .

عظم خلق جبريل (أمين الوحى)

روى الأمام احمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان من الدروالياقيت)[5] قال ابن كثير فى هذا الحديث : إسناده جيد .

وقال سبحانه فى وصف أمين الوحى جبريل : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم** أمين ﴾[6] والمراد بالرسول الكريم هنا جبريل ، وذى العرش : رب العزة سبحانه وتعالى .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠ - ٢٩٩٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ . (٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) سورة التحريم اية ٦ .

(٥) الحديث فى مسند أحمد جـ ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود . انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) سورة التكوير الأيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

عظم خلق حملة العرش

روى أبو داود عن جابر عن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (أذن لى أن أحدث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام)(١) .

ورواه ابن ابى حاتم وقال (تخفق الطير) قال محقق المصابيح إسناده صحيح . وذكره الألبانى فى سلسلة الاحاديث الصحيحة .

للملائكة أجنحة :

كما أخبرنا سبحانه ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك قال تعالى ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ وقد سبق ذكر الحديث التى يخبر فيها الرسول ـ ﷺ ـ أن لجبريل ستمائة جناح .

جمالهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى فى جبريل : ﴿ **علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى** ﴾(٢) قال ابن عباس ذو مرة : ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن ، وقيل ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر .

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك قال تعالى فى قصة يوسف ﴿ **فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم** ﴾(٣) .

تفاوتهم فى الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة فى الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان وبعضهم له ثلاثة وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوته معلومة . ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾(٤) سورة الصافات .

وقال فى جبريل ﴿ **إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين** ﴾(٥) أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله . وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع : أن جبريل جاء النبى ـ ﷺ ـ فقال (ما تعدون من شهد بدرا فيكم ؟ قلت . خيارنا ، قال . وكذلك من شهد بدرا من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة)(٦) .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود جـ ٥ ص ٩٦ كتاب السنة رقم ٤٧٢٧ .
(٢) سورة النجم الأيتان ٥ ، ٦ .
(٣) سورة يوسف آية ٣١ .
(٤) سورة الصافات آية ١٦٤ .
(٥) سورة التكوير الأيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٦) الحديث فى مسند احمد جـ ٣ ص ٤٦٥ مسند رافع بين خديج . انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٠٣ باب قصة غزوة بدر باب شهود الملائكة بدرا .

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

ولقد ضل فى هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث ، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم واكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

قال تعالى وهو يحكى هذه الخرافة ويناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ﴾[1] سورة الصافات وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[2] سورة الزخرف .

لا يأكلون ولا يشربون

فقد أخبر سبحانه أن الملائكة جاءوا إبراهيم فى صورة بشر فقدم لهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه فأوجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم فزال خوفه واستغرابه . قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾[3] سورة الذاريات . وفى آية أخرى قال سبحانه ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾[4] سورة هود .

لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى فى وصف ملائكته : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [5] سورة الانبياء .

ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفى الآية الأخرى : ﴿ ... فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾[6] تقول العرب : سئم الشىء : أى مله .

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١٤٩ - ١٥٦ .
(٢) سورة الزخرف آية ١٩ .
(٣) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ - ٢٨ .
(٤) سورة هود الآية رقم ٧٠ .
(٥) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٠ .
(٦) سورة فصلت آية : ٣٨ .

منازلهم :

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾[١] .

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطت بهم ، ووكلت إليهم ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[٢] ويكثر نزولهم فى مناسبات خاصة كليلة القدر ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾[٣] .

عددهم :

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم الا الذى خلقهم ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾[٤] سورة المدثر .

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله - ﷺ - فى البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : (فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[٥] رواه البخارى ومسلم .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك)[٦] فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك .

وإذا تأملت النصوص الواردة فى الملائكة التى تقوم على الإنسان علمت مدى كثرتهم - فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكى لهدايته وإرشاده .

اسماؤهم :

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل واليك الآيات والأحاديث النبوية التى ورد فيها أسماء بعض الملائكة .

---

(١) سورة الشورى آية ٥ .
(٢) سورة مريم آية رقم ٦٤ .
(٣) سورة القدر آية رقم ٣ ، ٤ .
(٤) سورة المدثر جزء من الآية ٣١ .
(٥) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٩ كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله رقم ٢٦٤ ١٦٤ .
- انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٤ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فى شدة حر جهنم رقم ٢٩ - ٢٨٤٢ .

١ ، ٢ جبريل وميكائيل : قال تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾(١) .

٣ ـ اسرافيل

ومن الملائكة اسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل وميكائيل واسرافيل هم الذين يذكرهم الرسول ـ ﷺ ـ فى دعائه كلما استيقظ من الليل (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) (٢) .

٤ ـ مالك

ومنهم مالك خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾(٣) .

٥ ـ رضوان :

قال ابن كثير : (وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحا به فى بعض الأحاديث) .

٦ ، ٧ ـ منكر ونكير

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول ـ ﷺ ـ منكر ونكير ، وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر .

٨ ، ٩ هاروت وماورت :

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماورت) قال تعالى ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾(٤) .

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس فى فترة من الفترات ، وقد نسجت حولهما فى كتب التفسير أساطير كثيرة لم يثبت شيء منها فى الكتاب والسنة ، فيكتفى فى معرفة أمرهما . بما دلت عليه الآية .

عزرائيل

جاء فى بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ولا يوجد فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم (قاله ابن كثير فى البداية والنهاية) .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد استدلالا بقوله تعالى ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾(٥) وما ذكروه غير

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه . رقم ٢٠٠ ـ ٧٧٠ .

(٣) سورة الزخرف آية ٧٧ .

(٤) سورة البقرة من الآية ١٠٢ .

(٥) سورة ق الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنهما اسمان للملكين .

هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[١] قال ابن كثير هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا فى حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت . وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخرا بالديمومة والبقاء ، ويقول سبحانه لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾[٢] .

ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه** ﴾[٣] وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا مالا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخُلُقية

الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ **بأيدى سفرة . كرام بررة** ﴾[٤] أى القرآن بأيدى سفرة : أى الملائكة لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم) . وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله ـ تعالى ـ وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم ، وقد وصفهم بأنهم ﴿ **كرام بررة** ﴾ أى خلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

روى الامام أحمد بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأه . هو عليه شاق له أجران)[٥] .

استحياء الملائكة

من أخلاق الملائكة التى أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ بها : الحياء ففى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة أن الرسول ـ ﷺ ـ كان مضجعا فى بيتها كاشفا عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث . ثم أستأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، فتحدث

---

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .
(٢) سورة غافر من الآية ١٦ .
(٣) سورة القصص من الآية ٨٨ .
(٤) سورة عبس آية ١٥ ، ١٦ .
(٥) الحديث فى مسند احمد جـ ٦ ص ٤٨ مسند عائشة (رضى الله عنها) .

ثم استأذن عثمان فجلس الرسول - ﷺ - وسوى عليه ثيابه ، فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل ابو بكر فلم تهتش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك - فقال : (ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة)[١] .

قدراتهم

قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا** ﴾[٢] .

وابراهيم - عليه السلام - جاءته الملائكة فى صورة بشر ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

وجاءوا إلى لوط فى صورة شباب حسان الوجوه ، يقول ابن كثير : تبدى لهم الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وقد كان جبريل يأتى الرسول - ﷺ - فى صفات متعددة ، فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، (صحابى كان جميل الصورة) وتارة فى صورة أعرابى . وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتى كذلك ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد اخبرنى عن الاسلام ، وفى الحديث أنه سأله عن الايمان والاحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول ﷺ فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم [٣] .

ورأت عائشة الرسول - ﷺ - واضعا يده على معرفة فرس دحية الكلبى يكلمه فلما سألته عن ذلك قال - ﷺ - (ذاك جبريل وهو يقرئك السلام)[٤] أخرجه أحمد فى مسنده وابن سعد فى الطبقات بإسناد حسن .

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا ، (أنه لما هاجر تائبا جاءه الموت فى منتصف الطريق إلى الأرض التى هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكموا فيه ملكا جاءهم فى صورة آدمى يقول عليه الصلاة والسلام (فجاءهم ملك فى

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٦٦ كتاب فضائل عثمان بن عفان رضى الله عنه رقم ٣٦ - ٢٠٤١ .
(٢) سورة مريم الآيات ١٦ - ١٩ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام رقم ١ - ٨ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رضى الله عنها رقم ٩٠ - ٢٤٤٧ .
- انظر مسند احمد جـ ٦ ص ١٤٦ مسند عائشة (رضى الله عنها) .

صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له)[١] ولابد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك فى صورة آدمى والقصة فى صحيح مسلم باب التوبة .

عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هى سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٩) ألف ميل فى الثانية الواحدة . أما سرعة الملائكة فهى فوق ذلك ، وهى سرعة لا تقاس بمقاييس البشر ، كان السائل يأتى إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة - سبحانه وتعالى - واليوم لو وجدت المراكب التى تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة فى آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

علمهم

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ولكن ليس عندهم القدرة التى أعطيت للانسان فى التعرف على الاشياء ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾[٢] فالانسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشاف سنن الكون والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى ولكن الذى علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الانسان ومن العلم الذى أعطوه علم الكتابة ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون** ﴾[٣] .

اختصام الملأ الأعلى :

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ففى سنن الترمذى ومسند أحمد عن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : (أتانى الليلة ربى - تبارك وتعالى - فى أحسن صورة فقال : يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديى فعلمت ما فى السموات وما فى الارض فقال : يا محمد هل تدرى فيم يختص الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم فى الكفارات والدرجات)

والكفارات : المكث فى المساجد بعد الصلوات والمشى على الاقدام إلى الجماعات واسباغ الوضوء فى المكاره .

قال : صدقت يا محمد ! ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإن تغفر لى وترحمنى وتتوب على وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٤٦ - ٢٧٦٦ .
(٢) سورة البقرة الأيتان ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة الانفطار اية ١٠ ، ١١ ، ١٢

والدرجات : إفشاء السلام واطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام)[(١)] .

قال ابن كثير فى هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ومن جعله يقظة فقد غلط وهو فى السنن من طرق وهذا الحديث رواه الترمذى من حديث جهضم بن عبد الله اليمامى وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن فى قوله : ﴿ **ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى الى إلا أنما أنا نذير مبين** ﴾[(٢)] .

فإن الاختصام المذكور فى الحديث قد فسره الرسول - ﷺ - والاختصام المذكور فى القرآن فسرته الآيات بعده ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . .** ﴾[(٣)] **الآيات** .

فالاختصام المذكور فى القرآن كان فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

منظمون فى كل شئونهم :

الملائكة منظمون فى عبادتهم وقد حثنا الرسول - ﷺ - على الاقتداء بهم فى ذلك فقال : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) ؟ قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال : (يكملون الصف الأول فالاول يتراصون فى الصف)[(٤)] وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) .

وفى يوم القيامة يأتون صفوفا منتظمة ﴿ **وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ ويقفون صفوفا بين يدى الله تعالى ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾[(٥)] والروح جبريل .

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر فى صحيح مسلم ومسند أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى - ﷺ - قال : (آتى باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)[(٦)] .

---

(١) الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٣٦٨ مسند ابن عباس .
(٢) سورة ص الآيتان ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) سورة ص الآيتان ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .
(٤) الحديث فى مسند احمد جـ ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .
(٥) سورة النبأ آية ٣٨ .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١٨٨ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . رقم ٣٣٣ - ١٩٧ . - انظر مسند احمد جـ ٣ ص ١٣٦ مسند انس بن مالك .

عبادة الملائكة

نظرة فى طبيعة الملائكة :

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ليس لديهم القدرة على العصيان ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[1] فتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة جبلة لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم . ولعل هذا هو السبب الذى دعا فريقا من العلماء الى القول بأن الملائكة ليسوا بمكلفين وأنهم ليسوا بداخلين فى الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسوا بمكلفين بنفس التكاليف التى كلف بها أبناء آدم أما القول بعدم تكليفهم مطلقا فهو قول مردود فهم مأمورون بالعبادة والطاعة . ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[2] وفى الآية إنهم يخافون ربهم والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾[3].

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله ، ولكنهم عباد مكرمون قال تعالى ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾[4] .

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط لايستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون وعلى احتمال ان بعضهم تعدى طوره فإن الله يعذبه جزاء تمرده ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدى ربهم مقترحين ولا يعترضون على أمر من أوامره بل هم عاملون بأمره مسارعون مجيبون ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول - ﷺ - لجبريل (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟) قال : فنزلت : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** ﴾[5] .

---

(١) سورة التحريم آخر الآية ٦ .
(٢) سورة النحل آية ٥٠ .
(٣) سورة الأنبياء آخر آية ٢٨ .
(٤) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .
(٥) انظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٧٧ رقم ٥١٦٧ . انظر مسند احمد جـ ١ ص ٢٣٤ مسند ابن عباس .

نماذج من عبادتهم :

الملائكة عباد الله مكلفون بطاعته وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة وسنورد هنا بعض العبادات التى حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .

التسبيح :

الملائكة يذكرون الله تعالى وأعظم ذكرهم التسبيح يسبحه تعالى حملة عرشه ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم** ﴾(١) . كما يسبحه عموم الملائكة : ﴿ **والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾(٢) وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا فى الليل ولا فى النهار ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾(٣) ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون فى الحقيقة . وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ **وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون** ﴾(٤) وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر . عن أبى ذر قال : سئل رسول الله - ﷺ - : أى الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده)(٥) .

صلاتهم :

عن رسول الله - ﷺ - قال (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف)(٦) وفى القرآن عن الملائكة ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾(٧) وهم يقومون ويركعون ويسجدون ففى مشكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال : (بينما رسول الله - ﷺ - فى أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع قالوا : ما نسمع من شيء قال : إنى لأسمع أطيط السماء وما تلام ان تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)(٨) .

حجهم :

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون إليها هذه الكعبة هى التى أسماها الله تعالى : البيت المعمور وأقسم به فى سورة الطور ﴿ **والبيت المعمور** ﴾(٩) .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ فى حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون الفا لا

---

(١) سورة غافر آية ٧ .
(٢) سورة الشورى جزء من الآية ٥ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٢٠ .
(٤) سورة الصافات الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله . رقم ٨٤ - ٢٧٣١ .
(٦) الحديث فى مسند احمد جـ ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .
(٧) سورة الصافات آية ١٦٥ .
(٨) الحديث فى سنن ابن ماجة - ٢ ص ١٤٠٢ كتاب الزهد رقم ٤١٩٠ .
(٩) سورة الطور آية ٤ .

يعودون إليه آخر ما عليهم)[١] يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ولهذا وجد ابراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسندا ظهره الى البيت المعمور لأنه بانى الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل) وذكر ابن كثير ان البيت المعمور بحيال الكعبة أى فوقها لو وقع لو قع عليها وذكر أن فى كل سماء بيتا يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة وهذا الذى ذكره ابن كثير من ان البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة أن رجلا قال لعلى رضى الله عنه ما البيت المعمور ؟ قال (بيت فى السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة من فوقها حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض يصلى فيه كل يوم سبعون الفا من الملائكة ولا يعودون فيه **أبدا** ﴾[٢] .

قال فيه الشيخ ناصر الدين الألبانى (الأحاديث الصحيحة) ورجاله ثقات غير خالد بن عرعرة وهو مستور ثم ذكر أن له شاهدا مرسلا صحيحا عن الرسول ـ ﷺ ـ عن رواية قتادة قال : ذكر لنا أن النبى ـ ﷺ ـ قال يوما لأصحابه (هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : فإنه مسجد فى السماء تحته الكعبة لوخر لخر عليهم)[٣] .

ثم قال المحقق (الألبانى) وجملة القول ان هذه الزيادة (حيال الكعبة) ثابتة بمجموع طرقها .

خوفهم من الله وخشيتهم له :

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة كان تعظيمهم له وخشيتهم له عظيمة قال الله فيهم : **﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾**[٤] .

يبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة وقال رعدة شديدة خوفا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ـ عليه السلام ـ فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد)[٥] وفى معجم الطبرانى الاوسط بإسناد حسن عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (مررت ليلة أسرى بى بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالى من خشية الله تعالى)[٦] والحلس : كساء يبسط فى أرض البيت) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الايمان باب الاسراء والمعراج رقم ٢٥٩ ـ ١٦٢ .
(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٩ ، ١٠ تفسير سورة الطور .
(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ١٠ تفسير سورة الطور قوله تعالى **﴿ والبيت المعمور ﴾** .
(٤) سورة الأنبياء آخر آية ٢٨ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير ـ سورة سبأ جـ ٣ ص ٥٣٧ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥ تفسير سورة الاسراء .

الملائكة والإنسان

الملائكة وآدم

سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك لأنهم علموا أنه سيقع من بنى آدم إفساد وسفك دماء وعصيان وكفر فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكما لا يعلمونها ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾[١] .

سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم حين يتم خلقه وتنفخ فيه الروح ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[٢] وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾[٣] .

توجيه الملائكة لآدم :

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فذهب فقال السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله) قال (فزادوه ورحمة الله)[٤] متفق عليه .

غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفى آدم لم يعرف أولاده كيف يفعلون به فأعلمتهم الملائكة .

ففى مستدرك الحاكم ومعجم الطبرانى الأوسط بإسناد صحيح عن ابىّ ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ (لما توفى آدم غسلته الملائكة بالماء وترا وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم فى ولده)[٥]

وقد ثبت فى صحاح الأحاديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبى عامر الذى استشهد فى معركة أحد فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه بعد مقتل حنظلة (إن صاحبكم تغسله الملائكة ، يعنى حنظلة) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (لذلك غسلته الملائكة)[٦] رواه الحاكم .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٢) سورة ص الأيتان ٧٠ ، ٧١ .
(٣) سورة ص آية ٧٢ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٣ ـ ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفتها باب يدخل الجنة اقوام رقم ٢٨ ـ ٢٨٤١ .
(٥) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ص ٥٤٥ كتاب التاريخ باب ذكر آدم عليه السلام .
(٦) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة جـ ٣ ص ٢٠٤ باب ذكر مناقب حنظلة ابن عبد الله .

الملائكة وبنو آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة فهم يقومون عليه عند خلقه ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ويأتونه بالوحى من الله ويراقبون أعماله وتصرفاته وينزعون روحه إذا جاء أجله وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل .

دورهم فى تكوين الإنسان

روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك)[١] .

وفى صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد)[٢] .

وفى الصحيحين أيضا عن أنس بن مالك عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكا فيقول : (أى رب : نطفة : اى رب : علقة ، اى رب : مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه)[٣] .

حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[٤] .

وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه ـ خلوا عنه .

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه وقال رجل لعلى ابن أبى طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال (اى على) : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه إن الأجل جنة حصينة) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٧ كتاب القدر . باب كيفية الخلق الأدمى رقم ٣ ـ ٢٦٤٥ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية خلق الأدمى رقم ١ ـ ٢٦٤٣ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٨ كتاب القدر باب كيفية خلق ابن آدم رقم ٥ ـ ٢٦٤٦ .
(٤) سورة الرعد الأيتان ١٠ ، ١١

والمعقبات المذكورة فى آية الرعد هى المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[١] فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتى أجله المقدر له .

يبلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه)[٢] .

قال ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[٣] وقد يأت بالوحى غير جبريل - وهذا قليل - كما فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبى - ﷺ - سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك أنزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[٤] .

وفى التاريخ لابن عساكر بإسناد صحيح عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال (أتانى ملك فسلم على نزل من السماء لم ينزل قبلها فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)[٥] وفى المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أبى بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : (أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يمينى ، وميكائيل عن يسارى فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت زدنى ، فقال اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت : زدنى كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف كلها شاف كاف)[٦] .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبى :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولا أو نبيا فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم كما أرسله إلى أم اسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها ورأى الصحابة جبريل فى صورة أعرابى ، وأرسل الله ملكا إلى ذلك الرجل الذى زار أخا له فى الله يبشره بأن الله يحبه لحبه لأخيه وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

كيف كان يأتى الوحى الرسول - ﷺ - :

سأل الحارث بن هشام - رضى الله عنه - الرسول - ﷺ - فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

---

(١) سورة الانعام آية ٦١ .
(٢) سورة البقرة آية ٩٧ .
(٣) سورة الشعراء الأيتان ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٢٥٤ - ٨٠٦ .
(٥) الحديث فى تهذيب تاريخ دمشق الكبير جـ ٤ ص ٩٨ مسند حذيفة بن اليمان
(٦) الحديث فى مسند أحمد جـ ٥ ص ١٢٢ مسند أنس بن مالك عن أبى بن كعب .

فقال الرسول - ﷺ - : (أحيانا يأتينى مثل صلصة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قاله وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول)[١] .

فجبريل كان يأتى الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو فى حالته الملكية وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية الى البشرية وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : (بينما أنا امشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى) والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء وهاتان المرتان مذكورتان فى سورة النجم : **﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ﴾** [٢] .

لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى من الله تعالى فقد كان يأتيه فى كل عام فى رمضان فى كل ليلة من لياليه فيدارسه القرآن) والحديث صحيح أورده البخارى فى صحيحه[٣] .

إمامته للرسول

وقد أم جبريل الرسول - ﷺ - كى يعلمه الصلاة كما يريدها الله تعالى :

ففى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : (نزل جبريل فأمنى فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس مرات)[٤] .

وعن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : (أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد صلى بى الظهر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشيء مثليه وصل بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصل بى العشاء الى ثلث الليل ، وصل بى الفجر فأسفر ثم التفت إلى وقال : يامحمد هذا وقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين)[٥] رواه

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٦ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة والحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨١٦ ، ١٨١٧ كتاب الفضائل باب عرق النبى رقم ٨٧- ٢٣٣٣ .
(٢) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٦٠٤ تفسير سورة النجم .
(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
(٥) الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٣٣٣ مسند ابن عباس .
انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ١٩٣ كتاب الصلاة باب أوقات الصلاة .

الامام أحمد ولم يعلمه كيفية الصلاة عمليا وأوقاتها فحسب بل علمه الوضوء ففى مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة ان الرسول - ﷺ - قال (أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى فعلمنى الوضوء والصلاة فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه)[١] .

رقيته للرسول ﷺ

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال قال رسول الله - ﷺ - (أتانى جبريل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم قال : بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر كل ذى نفس وعين حاسد . . بسم الله أرقيك والله يشفيك)[٢] .

أعمال أخرى

ومن ذلك انه حارب مع الرسول - ﷺ - فى بدر والخندق وصحب الرسول - ﷺ - فى الاسراء وغير ذلك .

تحريك بواعث الخير فى نفوس العباد :

وكل الله بكل انسان قرينا من الملائكة وقرينا من الجن ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة) قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير)[٣] ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله قيضه الله له ليهديه ويرشده وقرين الانسان من الملائكة وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه ، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾[٤] .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذا الحديث : هكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما جميعا .

ويقول رسول الله - ﷺ - (إذا آوى الانسان الى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك : اختم بخير ويقول الشيطان : اختم بشر ، فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه (يعنى النوم) طرد الملك الشيطان

(١) الحديث فى المستدرك للحاكم جـ ٣ ص ٢١٧ كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب زيد الحب بن حارثة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٧١٨ كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى رقم ٣٩ - ٢١٨٥ .
- الحديث فى مسند احمد جـ ٢ ص ٥٨ مسند أبى سعيد الخدرى انظر سنن الترمذى جـ ٢ ص ٢٢٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٩ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٧ ، ٢١٦٨ كتاب صفات المنافقين واحكامهم رقم ٦٩ - ٢٨١٤ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٢ ص ٢٨٨ كتاب التفسير- تفسير سورة البقرة رقم ٤٠٧٣ .

وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ! ويقول الشيطان افتح بشر ! فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعدما أماتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض ان تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله يمسك السماء أن تقع على الارض الا بإذنه طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه)[1] ذكره الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر .

هذه الأحاديث توجهنا الى الاكثار من الأعمال الخيرة التى تصلح نفوسنا وتقرب الملائكة منا ففى قرب الملائكة منا خير عظيم فقد كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله - ﷺ - أجود بالخير من الريح المرسلة)

حفظ اعمال ابن آدم

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون** ﴾[2] وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين لا يفارقانه يحصيان عليه أعماله وأقواله ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[3] ومعنى قعيد أى مترصد ورقيب عتيد : اى مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت .

والظاهر أن الملائكة الوكلة بالانسان ، تكتب كل ما يصدر عن الانسان من أفعال وأقوال لا يتركون شيئا لقوله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾ ولذلك فإن الانسان يجد كتابه قد حوى كل شىء صدر منه ولذلك فإن الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين ﴿ **يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا** ﴾[4] وفى مسند الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : **قال رسول الله** - ﷺ - : (**إن الرجل ليتكلم** بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن إن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث)[5] .

وذكر ابن كثير فى تفسيره عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ﴿ **عن اليمن وعن الشمال قعيد** ﴾ ثم قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ

---

(١) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ١ ص ٥٤٨ كتاب الدعاء . باب الذكر عند الاضطجاع والدعاء عند اليقظة .

(٢) سورة الانفطار الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة ق الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٤) سورة الكهف آية ٤٩ .

(٥) الحديث فى مسند احمد جـ ٣ ص ٤٦٩ مسند باب بن الحارث الحزنى .

السيئات ، فاعمل ما شئت أقلل أو اكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[1] .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت . . شربت ذهبت . . جئت رأيت . . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر والقى سائره) وذلك قوله تعالى ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه فبلغه عن طاوس انه قال : يكتب الملك كل شىء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله .

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات :

فى معجم الطبرانى الكبير بإسناد حسن عن أبى أمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء فإن ندم واستغفر الله منها القاها والا كتبت واحدة)[2] .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى ﴿ يعلمون **ما تفعلون** ﴾ فالآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة .

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه بقول الرسول ـ ﷺ ـ : (قال الله عز وجل : إذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا)[3] وفى الحديث الآخر المتفق عليه أيضا (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة[وهو أبصر به] فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها فاكتبوها له حسنة . إنما تركها من جرائى)[4] .

شبهة :

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الانسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[5] فالجواب : إن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى فهو وإن خفى عن البشر فلا يعلم أحدهم ما فى ضمير أخيه فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما فى الصدور وهو الارادة والقصد أما بقية الأمور كالاعتقادات فلا دليل على كونها تعلمها .

---

(١) سورة الاسراء الأيتان ١٣ ، ١٤ .

(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ ٨ ص ٢١٨ رقم ٧٧٦٥ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ٢٠٣ ـ ١٢٨ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت . وإذا هم بسيئة لم تكتب رقم ٢٠٥ ـ ١٢٩ .

(٥) سورة غافر آية ١٩ .

دعوة العباد إلى فعل الخير :

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا)[1] .

وذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رواية أخرى عن أبى الدرداء وفيها (وما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا غربت شمسه الا وبجنبتها ملكان يناديان)[2] فذكر مثل حديث أبى هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم :

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ففى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - انه سمع النبى - ﷺ - يقول : (إن ثلاثة من بنى اسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى أراد الله ان يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الابل أو قال البقر فأعطى ناقة عشراء (أى حامل) فقال : بارك الله لك فيها فأتى الأقرع : فقال اى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال : فأى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك قال أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا فأنتج هذا وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى .

فقال : الحقوق كثيرة فقال : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر .

فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله عز وجل

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب الممسك والمنفق رقم ٥٧ - ١٠١٠ .
(٢) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٦ ، ٧٧ باب الترغيب فى الانفاق فى وجوه الخير .. الخ

فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك)[١] .

الملائكة تنزع روح الانسان :

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم قال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾[٢] والذين يقبضون الارواح اكثر من ملك ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[٣] وينزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعا شديدا عنيفا بلا رفق ولا هوادة ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾[٤] وقال ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٥] وقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾[٦] أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رفيقا .

تبشيرهم المؤمنين عند النزع :

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن فإن الملائكة تتنزل عليه تبشره وتثبته ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾[٧] وهى تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾[٨] .

موسى يفقأ عين ملك الموت :

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها قال : (فرجع الملك إلى الله فقال : إنك أرسلتنى الى عبد لك لا يريد الموت وقد فقأ عينى قال : (فرد الله إليه عينه وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة (وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة) قال : ثم مه ؟ قال ثم تموت قال فالآن من قريب)[٩] .

---

(١) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٦ ص ٥٠٠ باب (٥١) باب حديث ابرص أوعمى وأقرع فى بنى اسرائيل .
ـ انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ ، ٢٢٧٧ كتاب الزهد والرقائق رقم ١٠ ـ ٢٩٦٤ .
(٢) سورة السجدة آية ١١ .
(٣) سورة الأنعام آية ٦١ .
(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .
(٥) سورة الأنفال آية ٥٠ .
(٦) سورة محمد آية ٢٧ .
(٧) سورة فصلت الآية ٣٠ ، ٣١ .
(٨) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .
(٩) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٤٣ كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام رقم ١٥٨ ـ ٢٣٧٢ .

وملك الموت إنما جاء موسى فى صورة انسان كما فى رواية صحيحة فى المسند وهذا الذى فعله موسى لأن الأنبياء يخيرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية لأن عقولهم لا تستسيغها وقد نسوا أن أول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك فى مطلع سورة البقرة فإذا صح الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿ **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾[1] .

سؤالهم العبد فى القبر وما يكون منهم فى المحشر والجنة والنار :

فهناك منكر ونكير اللذان يسألان العبد فى قبره عن ربه ورسوله ودينه ، ومنهم ملائكة ينعمون العباد فى قبورهم ، وآخرون يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين فى يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل فى الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار فى النار . وسلامهم على المؤمنين .

محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض)[2] .

تسديد المؤمن :

روى الترمذى وابن ماجه أن الرسول - ﷺ - قال : (من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسدده)[3] .

صلاتهم على المؤمنين

قال تعالى ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾[5] والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبى العالية وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة ولا منافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم .

نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

معلم الناس الخير !

روى الطبرانى والترمذى بإسناد صحيح عن أبى أمامة أن الرسول - ﷺ - قال : (ان الله

(١) سورة آل عمران اية ٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٧٣ ، ١٧٤ كتاب التوحيد . الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب اذا أحب الله عبدا رقم ١٥٧ - ٢٦٣٧ .

(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ٧٧٤ كتاب الأحكام باب ذكر القضاة رقم ٣٢٠٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

وملائكته ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير)[١]
(صحيح الجامع)

الذين يؤمون المساجد للصلاة :

فى صحيح مسلم (أن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صل عليه ، واللهم ارحمه ، ما لم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه)[٢] .

الذين يصلون فى الصف الأول :

فى سنن أبى دواد وابن ماجة وسنن الأمام احمد عن البراء - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول)[٣] .

الذين يمكثون فى مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود فى سننه والنسائى بإسناد صحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : (الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ، ما لم يحدث ، أو يقم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه)[٤] .

الذين يسدون الفرج بين الصفوف

فى سنن ابن ماجة وسند احمد ومستدرك الحاكم باسناد حسن عن عائشة أن الرسول - ﷺ - قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة)[٥]
(صحيح الجامع) .

الذين يتسحرون

وفى صحيح ابن حبان ومعجم الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين)[٦] (صحيح الجامع) .

الذين يصلون على النبى

روى أحمد فى سنده ، والضياء فى المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله - ﷺ -

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ١٥٤ أبواب العلم رقم ٢٨٢٦ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٤٥٩ كتاب المساجد ومواقع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة رقم ٢٧٢ - ٦٤٩ .
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٧ كتاب إقامة الصلاة . انظر مسند احمد جـ ٤ ص ٢٦٩ مسند النعمان بن بشير .
(٤) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٢ ص ٤٣ كتاب الصلاة باب الترغيب فى الجلوس فى المسجد وانتظار الصلاة .
(٥) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٥ كتاب إقامة الصلاة .
(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان جـ ٥ ص ١٩٤ رقم ٣٤٥٨ .

قال : (ما من عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى عليَّ فليقلّ العبد من ذلك أو يكثر)[١] (صحيح الجامع) .

الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان فى صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله - ﷺ - قال : (ما من امرىء مسلم يعود مسلما إلا ابتعث الله سبعين الف ملك يصلون عليه فى أى ساعات النهار كان ، حتى يمسى ، وأى ساعات الليل كان ، حتى يصبح)[٢] (صحيح الجامع) .

التأمين على دعاء المؤمنين

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الاجابة . ففى سنن ابن ماجة عن أبى الدرداء عن النبى - ﷺ - قال . (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب عند رأسه ملك يؤمن على دعائه . كلما دعا له بخير قال : آمين ولك بمثله)[٣] ولما كان الدعاء المؤمن عليه حريا بالاجابة فإنه لا ينبغى للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر .

ففى صحيح مسلم عن ام سلمة قالت : (لاتدعو على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة **يؤمنون على ما تقولون**)[٤] .

استغفارهم للمؤمنين:

قال تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾[٥] .

قال سبحانه ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٦] .

شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم:

ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (إن الله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى - تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .... الحديث)[٧] .

---

(١) الحديث فى مسند احمد جـ ٣ ص ٤٤٥ مسند عامر بن ربيعة عن أبيه .
(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان جـ ٤ ص ٢٦٨ باب ذكر استغفار الملائكة لعائد المريض . رقم ٢٩٤٧ .
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ٩٦٦ رقم ٢٨٩٥ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر رقم ٧ - ٩٢٠ .
(٥) سورة الشورى آية ٥ .
(٦) سورة غافر الأيتان ٧ ، ٩ .
(٧) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٩ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل مجالس الذكر رقم ٢٥ - ٢٦٨٩ .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(١) .

وفى مسند الامام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعا (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)(٢) أى تتواضع له .

فالأعمال الصالحة تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد فى حالة عالية من السمو الروحى لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ومصافحتهم كما فى الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ (لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة)(٣) (صحيح الجامع) .

تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يؤمون الجمع الأول فالأول ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الامام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر)(٤) .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع الزرقى قال (كنا يوما نصلى وراء النبى ـ ﷺ ـ فلما رفع رأسه من الركعة ، قال (سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف : قال من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها)(٥) فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين اللذين يسجلان صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لكونهم بضعة وثلاثين ملكا .

تعاقب الملائكة فينا

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ويشهدون الجمع والجماعات يتعاقبون فينا فطائفة تأتى ، وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٣٨ ـ ٢٦٩٩ .
(٢) الحديث فى مسند احمد جـ ٤ ص ٢٦٩ مسند صفوان بن عسال .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر رقم ١٢ ، ١٣ ـ ٢٧٥٠ .
(٤) انظر مسند احمد جـ ٣ ص ٨١ مسند ابى سعيد الخدرى .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ١٤٩ ـ ٦٠٠ .

فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، فيقول كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)[١] .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾[٢] وقرآن الفجر أى صلاة الفجر كما قال المفسرون .

تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يُقرأ القرآن ، فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن أسيد ابن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده (الجرن) إذ جالت (وثبت) فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت ان تطأ يحيى (ابنه) فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأس فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال ، فغدوت على رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل اقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اقرأ يا ابن حفير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (اقرأ يا ابن حضير) قال فقرأت ، ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اقرأ يا ابن حضير) قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها امثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستر منهم)[٣] (رواه البخارى ومسلم) .

يبلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام)[٤] .

تبشيرهم المؤمنين

فقد حملوا البشرى إلى ابراهيم بأنه سيرزق بذرية صاحة قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾[٥] .

وبشرت زكريا ﴿ فنادته الملائكة وهم قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى ﴾[٦] .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٧٤ كتاب التوحيد .
الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما . رقم ٢١٠ ـ ٦٣٢ .
(٢) سورة الاسراء آية ٧٨ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . رقم ٢٤٢ ـ ٧٩٦ .
(٤) الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٤٥٢ مسند عبد الله بن مسعود .
(٥) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ ـ ٢٨ .
(٦) سورة آل عمران آية ٣٩ .

وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين ، بل قد تبشر المؤمنين ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال (زار رجل أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته (طريق) ملكا ، فلما أتى عليه ، قال أين تريد ؟ قال : أريد أخالى فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله عز وجل قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[١] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (أتانى جبريل ، فقال ، يا رسول الله أهذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيها ولا نصب)[٢] .

الملائكة والرؤيا فى المنام :

روى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما قال : (كان الرجل فى حياة النبى - ﷺ - إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله - ﷺ - فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله - ﷺ - ، وكنت غلاما شابا ، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله - ﷺ - فرأيت فى النوم كأن ملكين اخذانى فذهبا بى إلى النار . فإذا هى مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، قال فلقينا ملك آخر فقال لى : لا ترع) (أى لا تخف)[٣] .

يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم فى حروبهم

قال تعالى ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾[٤] وقال تعالى ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾[٥] .

وروى البخارى بسنده أن رسول الله - ﷺ - قال فى يوم بدر (هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب)[٦] وقد بين سبحانه الحكمة والغاية من هذا الاعداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال أعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾[٧] وقال

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة باب فضل الحب فى الله . رقم ٣٨ - ٢٥٦٧ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٨٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ٧١ - ٢٤٣٢ .

(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ٣٠ باب فضائل اصحاب النبى - ﷺ - باب مناقب عبد الله بن عمر .

(٤) سورة الأنفال آية ٩ .

(٥) سورة آل عمران الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٠٣ كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدر . وكذلك غزوة أحد ص ١٢٠ جـ ٥ أيضا .

(٧) سورة الأنفال آية ١٢ .

تعالى ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[١] (آل عمران) وقد حاربت الملائكة فى مواقع أخرى ، ففى غزوة الخندق أرسل الله ملائكته . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾[٢] والجنود التى لم يروها هى الملائكة وبين فى الصحاح وفى غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - يغتسل ، فقال للرسول - ﷺ - وعلى ثنايا جبريل النقع (الغبار) (أوضعتم سلاحكم ، فإنا لم نضع سلاحنا بعد ، فقال إلى أين فأشار إلى بنى قريظة)[٣] .

حمايتهم للرسول ﷺ

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قال : فقيل نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه فى التراب ، قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليطأ على رقبته . قال فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه ، قال فقيل له مالك ، فقال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - (لو دنا منى لا ختطفته الملائكة عضوا عضوا)[٤] .

حمايتهم ونصرهم لصالحى العباد وتفريج كربهم

ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب المجابين فى الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبى - ﷺ - من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجرا يتجر بمال له.ولغيره يضرب به فى الآفاق وكان ناسكا ورعا فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح فقال له ضع ما معك فإنى قاتلك قال فما تريد من دمى ؟ فشأنك والمال قال أما مالك فلى ولست أريد الا دمك قال أما إذا أبيت فذرنى اصلى أربع ركعات فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد ، اسألك بعزك الذى لا يرام وبملكك الذى لا يضام وبنورك الذى ملأ أركان عرشك ان تكفينى شر هذا اللص ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى - ثلاث مرات - فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال قم فقال من أنت بأبى أنت وأمى ، فقد أغاثنى الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى دعاء مكروب فسألت الله

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٩ .
(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٤٢ كتاب المغازى باب مرجع النبى - ﷺ - من الأحزاب ومخرجه الى بنى قريظة .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٥٤ كتاب صفات المنافقين واحكامهم باب قوله إن الانسان ليطغى . رقم ٣٨ - ٢٧٩٧ .

أن يولينى قتله قال الحسن فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب)[١] .

شهود الملائكة لجنازة الصالحين

قال الرسول ـ ﷺ ـ فى سعد بن معاذ (هذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه) رواه النسائى عن ابن عمر بإسناد صحيح[٢] .

اظلالها للشهيد بأجنحتها

فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما قتل أبى جعلت اكشف الثوب عن وجهه وابكى ، وينهوننى ، والنبى ـ ﷺ ـ لا ينهانى فجعلت عمتى فاطمة تبكى ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : (تبكين أو لا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه)[٣] .

حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال)[٤] وفيه أيضا ليس من بلد الا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق)[٥] .

نزول النبى عيسى بصحبة ملكين :

(ينزل النبى عيسى بن مريم فى آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (المهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس وزعفران) واضعا كفيه على أجنحة ملكين) (رواه مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه)[٦] .

---

(١) ابن ابى الدنيا كتاب المجانين فى الدعاء .
(٢) الحديث فى سنن النسائى فى جـ ٢ ص ٨٢ كتاب الجنائز باب ضمة القبر .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٩١ باب فى الجنائز .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٣ باب حرم المدينة . باب لا يدخل المدينة الدجال ص ٢٨ .
(٥) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٣ ص ٢٨ باب حرم المدينة .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة بمعناه جـ ٤ ص ٢٢٢١ رقم ٢٨٩٧ .
ـ الحديث فى سنن الترمذى بمعناه جـ ٣ ص ٣٤٤ ابواب القدر باب ما جاء فى نزول عيسى ابن مريم .

واجب المؤمن تجاه الملائكة

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذى يعبد الله ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسىء اليهم ويؤذيهم .

البعد عن الذنوب والمعاصى

أعظم ما يؤذى الملائكة الذنوب والمعاصى والكفر والشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه ، ويتجنب كل ما يغضبه .

ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التى يعصى فيها الله تعالى أو التى يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه ، كالأنصاب والتماثيل والصور ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران .

روى البزار باسناد صحيح عن بريدة ـ رضى الله عنه ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران والمتضمخ بالزعفران ، والجنب)[١] .

وقال ابن كثير فى البداية ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ـ ﷺ ـ انه قال : (لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب) وفى رواية (لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس)[٢] (البداية والنهاية) .

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم

ثبت فى الأحاديث الصحيحة إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة ، والأقذار والأوساخ روى البخارى ومسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من أكل الثوم والبصل والكرات فلا يقترب من مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)[٣] .

وقد بلغ الأمر بالرسول ـ ﷺ ـ أن آمر بالذى جاء إلى المسجد ورائحة الثوم أو البصل تنبغث منه ـ أن يخرج إلى البقيع (وهذا ثابت فى صحيح مسلم)[٤] .

النهى عن البصق عن اليمين فى الصلاة

عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق عن أمامه فإنه إنما

---

(١) الحديق فى زوائد البزار جـ ٣ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ رقم ٢٩٢٩ وقال البزار : لا نعلمه يروى عن بريدة الا من هذا الوجه ولا نعلم رواه عن يوسف الا عبد الله .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٧ ص ٢١٥ باب التصاوير .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٩٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا ونحوه رقم ٧٤ ـ ٥٦٤ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٩٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها . رقم ٧٨ ـ ٥٦٧ .

يناجى الله مادام فى مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا ، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها)[١] .

موقف الملائكة من الكفار والفساق

وضحنا فيما سبق موقف الملائكة من المؤمنين وقد اتضح من خلال ذلك موقفهم من الكفرة ، فهم لا يحبون الكفرة الظالمين المجرمين ، بل يعادونهم ويحاربونهم ، ويزلزلون قلوبهم كما حدث فى معركة بدر ، والاحزاب .

انزال العذاب بالكفار

عندما كان يكذب الرسول ويصر قومه على التكذيب كان الله ينزل فى كثير من الأحيان بهم عذابه ، وكان الذى يقوم بالتعذيب أحيانا الملائكة .

اهلاكهم قوم لوط

قال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[٢] روى ابن كثير فى تفسيره عن مجاهد قال : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن)[٣] .

لعن الكفرة

قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا وماتواوهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾[٤] ولا تلعن الملائكة الكفرة فحسب بل قد تلعن من فعلوا ذنوبا معينة ومن هؤلاء .

لعن الملائكة المرأة التى لا تستجيب لزوجها

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح)[٥] .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى جـ ١ ص ١١٣ كتاب الصلاة باستقبال القبلة .
(٢) سورة هود آية ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) الحديث فى تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٢ تفسير سورة هود ـ طبعة الشعب ـ .
(٤) سورة البقرة آية ١٦١ .
(٥) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها .

لعنهم الذى يشير إلى أخيه بحديدة

روى مسلم عن أبي هريرة قال قال أبو القاسم (من أشار الى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، وان كان أخاه لأبيه وأمه)[١] (لما فيه من ترويع لأخيه) .

لعنهم من سب أصحاب الرسول - ﷺ -

أخرج الطبرانى عن ابن عباس بإسناد حسن أن الرسول - ﷺ - قال : (من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[٢] .

لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله

فى سنن النسائى عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : (من قتل عمدا فقود يديه ، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[٣] فالذى يحول دون تنفيذ حكم الله فى قتل القاتل عمدا فعليه هذه اللعنة فكيف بالذى يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟ !

رؤية الملائكة

لا يستطيع بنو آدم أن يروا الملائكة ، لأن الله لم يعط أبصارهم القدرة على رؤيتهم .

ولم ير الملائكة فى صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول - ﷺ - فإنه رأى جبريل مرتين فى صورته التى خلقه الله عليها كما سبق ، ولا يستطيع البشر رؤيتهم إلا إذا تمثل الملك فى صورة بشر .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٢٠ كتاب البر والصلة والاداب . باب النهى عن الاشارة بالسلاح الى مسلم رقم ١٢٥ - ٢٦١٦ .

(٢) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى جـ ١٢ ص ١٤٢ رقم ١٢٧٠٩ .

(٣) الحديث فى سنن النسائى كتاب الحدود باب من قتل بحجر او سوط جـ ٨ ص ٣٥ .

(لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة)

والله لا يرسل رسله من الملائكة لأن طبيعة الملائكة مخالفة لطبيعة البشر ، فاتصالهم بالملائكة ليس سهلاً ميسوراً .

قال تعالى : ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً** ﴾[١] .

فلو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً .

وعلى فرض أن الله اختار رسله إلى عموم البشر من الملائكة فإنه لا ينزلهم بصورهم الملائكية ، بل يجعلهم يتمثلون في صفة رجال يلبسون ما يلبس الرجال كي يتمكن الناس من الأخذ عنهم .

﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾[٢] .

وقد أخبر تعالى أن طلب الكفرة رؤية الملائكة ومجيء رسول من الملائكة إنما هو تعنت وليس طلباً للهداية ، وعلى احتمال حدوثه فإنهم لن يؤمنوا قال تعالى : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾[٣].

الملائكة وبقية المخلوقات :

حملة العرش

العرش أعظم المخلوقات محيط بالسموات وفوقها ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[٤] ، ويحمله من الملائكة ثمانية ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾[٥] .

ملك الجبال :

وللجبال ملائكة . وقد أرسل الله ملك الجبال إلى عبده ورسوله محمد - ﷺ - يستأمره في إهلاك أهل مكة كما ورد في صحيح البخاري ومسلم . عن عائشة أنها قالت للنبي : (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟) .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٩٥
(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٨ - ٩
(٣) سورة الأنعام آية ١١١
(٤) سورة طه آية : ٥
(٥) سورة الحاقة من الآية : ١٧

قال : (لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (موضع قرب مكة) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل . فناداني فقال : إن الله - عز وجل - قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا متى) فقال النبي - ﷺ - (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)[١] .

الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق

يقول ابن كثير : (في البداية والنهاية) وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب - جل جلاله - .

والملائكة موكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ **والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا** ﴾[٢] .

﴿ **والنازعات غرقاً * والناشطات نشطا * والسابحات سبحا * فالسابقات سبقا * فالمدبرات أمرا** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا** ﴾[٤] .

فكل هذه الآيات حديث عن الملائكة حال قيامها بتدبير شؤون السموات والأرض .

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب بدء الخلق » باب : « إذا قال أحدكم آمين » ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه ، وانظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب : « مالقي النبي - ﷺ - من أذى المشركين والمنافقين » ج ٣ ص : ١٤٢٠ - ١٤٢١ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة حديث رقم ١٧٩٥/١١١ غير أنه ورد فيه بعد قول ملك الجبال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك .. الخ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١ - ٢ - ٣ .

(٣) سورة النازعات : ١ - ٤ .

(٤) سورة الذاريات : ١ - ٤ .

المفاضلة بين الملائكة والبشر

قال الإمام ابن تيمية (شيخ الإسلام) : أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا ، وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه ، وتجلى لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .

والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الملأ الأعلى ، منزهون عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .

قال ابن القيم : (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل) .

(من كتاب عالم الملائكة الأبرار - عمر سليمان الأشقر) .

الأمر كله لله

قال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

على كل مؤمن أن يعلم علم اليقين بل عين اليقين ، أنه لا تهب في هذا الكون نسمة هواء ، ولا تطرف طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذنه - جل جلاله - فما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، قال الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله - ﷺ - فدعاني المغيرة فكتبت إليه إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول إذا انصرف من الصلاة : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[1] .

وسمعته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات :

وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال :

إن رسول الله - ﷺ - كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : (سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[2] .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن المغيرة ، وانظر ص ٢٥٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، ج ١ ص ٣٤٧ حديث رقم ٤٧٧/٢٠٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي سعيد الخدري . وانظر أحاديث الباب .

وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾[١] .

وقال الإمام مالك رحمة الله عليه قال أبو هريرة – رضي الله عنه – (إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية :

﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾ .

هذا خطاب علوى من الله العلى الأعلى إلى البشرية جمعاء وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقول الله فيه لعباده : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ والله – تعالى – لا يريد بالاستفهام طلب الفهم فهو العليم بكل شيء لكن وراء الاستفهام من المعانى ما وراءه ، فالله – تعالى – ينكر على هؤلاء أن يعبدوا غيره وهو صاحب الخلق والرزق ، والاستفهام الانكارى يفيد النفى أى : لا خالق ولا رازق إلا الله فكيف تعبدون غيره ، وكيف تنصرفون عن عبادته ، وهو المالك المتصرف صاحب الخلق والأمر لا ينقصه نائل ، ولا يشغله سائل ، الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع إرادته .

ثم يخاطب الله – تعالى – نبيه ومصطفاه مخففاً عنه ما يلاقيه من تكذيب هؤلاء الجاحدين وهو الصادق الأمين فيقول :

﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾[٣] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك** ﴾[٤] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى واعلم أن مرجع الأمر كله لله يحكم بينهم ولله عاقبة الأمور وإليه المصير والمآب .

---

(١) سورة يونس من الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة فاطر من الآية : ٢ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ومن الآية : ٣٦

(٤) سورة فصلت من الآية : ٤٣ .

قال تعالى : ﴿ **الملك يومئذ لله يحكم بينهم** ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **فالحكم لله العلي الكبير . هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفي على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ .

وهذا خطاب آخر من خالق الناس ورب الناس وملك الناس وإله الناس إلى الناس يخبرهم سبحانه فيه :

أن كل ما وعد به عباده على لسان أنبيائه هو حق اليقين وعين اليقين ، فالله حق ولقاؤه ووعده حق وقوله الحق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق وقوله الحق : ﴿ **ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** ﴾[٣] وإذا كان ذلك فأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ولاتغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها ولعبها ولهوها ، فالدنيا إذا حلت أوحلت وإذا جلت أوجلت وإذا كست أوكست وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون** ﴾[٤] .

كما لا يغرنكم الشيطان بغروره لكى يوقعكم في شباكه وشراكه ومصايده ومكايده ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** ﴾ تلك حقيقة يقررها خالق الأكوان ومبدع الإنسان ﴿ **ألم أعهد اليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون** ﴾[٥] ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[٦] .

---

(١) سورة الحج من الآية : ٥٦ .

(٢) سورة غافر من الآية : ١٢ والآيات : ١٣ - ١٧ .

(٣) سورة الأنعام من الآيه : ٧٣ .

(٤) سورة المنافقون الآيات : ٩ - ١١ .

(٥) سورة يس الآيات : ٦٠ - ٦١ .

(٦) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

فلتكن عداوته لكم معلومة لديكم فله حزب وللرحمن حزب .

قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز** ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾[2] .

وقال عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾[3] .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون للكافرين عذاب شديد وأن يكون للمؤمنين مغفرة وأجر كبير قال تعالى : ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ .

مغفرة لذنوبهم وأجر كبير لما قدموا من الصالحات .

﴿ **إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾[4].

أما جزاء الكافرين فنار تلظى ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا . إلا حميماً وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾[5] .

---

(١) سورة المجادلة الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات : ٥٤ - ٥٦

(٤) سورة النبأ الآيات : ٣١ - ٣٦ .

(٥) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ .

أي : من كان هكذا كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ **فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ أى . لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ، ويهدى من يهدى ، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ .

روى ابن حاتم بسنده عن عبد الله بن الديلمي قال :

أتيت عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : (إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله – عز وجل –)[1] .

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٧٦ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعبد الله بن عمرو .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ *

معاني المفردات

﴿ **فتثير سحابا** ﴾ : فتزعجه وتحركه .

﴿ **العزة** ﴾ : المراد العز والجاه .

﴿ **يصعد** ﴾ : صعود الكلم الطيب فيه تجوز والمراد : قبول الله له أو علمه به .

﴿ **يبور** ﴾ : يهلك ويضيع .

﴿ **وما يعمر من معمر** ﴾ : أي يزاد في عمره .

﴿ **فرات** ﴾ : شديد العذوبة يقال : فرت الماء فروتة عذب .

﴿ **أجاج** ﴾ : شديد الملوحة يقال : أج الماء أجوجا إذا اشتدت ملوحته

﴿ **حيلة** ﴾ : ما يتحلى به من سوار أو خاتم .

﴿ **مواخر** ﴾ : تمخر الماء أي : تشقه شقاً في إقبالها وإدبارها .

﴿ **قطمير** ﴾ : هو لفافة النواة أي : القشرة الرقيقة التي تكون على النواة .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم ، في ذلك اليوم أردف ذلك بيان أن هذا اليوم لاريب فيه وضرب المثل الذي يدل على تحققه لا محالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا** ﴾[1] .

وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة ذكر دليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف أطوارها فقد كانت ترابا ، ثم نطفة ثم وضعت في الأرحام ، إلى أن صارت بشراً سوياً ، ومنها ما يمد في عمرها ، ومنها ما يختر قبل ذلك كما تدل عليه المشاهدة وكل ذلك يسير على الله .

---

(١) سورة مريم آية : ٨١ .

وبعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى في الأقاليم والأمصار والبراري والقفار يسقى منه الإنسان والحيوان ، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ، ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحماً طرياً فيه لذة للآكلين ، وهذان ليل ونهار ضياء وظلام يدخل أحدهما في الآخر ، فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا في قصر ذاك فيعتدلان ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، وسخر الشمس والقمر ، والنجوم الثوابت والسيارات ، كل يجري بمقدار معين ، وعلى نهج ثابت لا يتغير وكل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى نقير ولا يسمعون لكم دعاء ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾ .

هذا دليل على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، فكما أن الله – تعالى – أرسل الرياح فسيرت السحب فساق تلك السحب إلى الأرض الموات وأحياها بالمطر وصيرها جنة خضراء ، كذلك يحيى الله موات الأجسام بعدما رمت وبليت .

قال أبو رزين : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال – ﷺ – : « يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلا ثم مررت به يهتز خضرا » قلت بلى ، قال – ﷺ – (كذلك يحيى الله الموتى)[١]

ونحو الآية قوله – جل شأنه – : ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل**

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١١ فقد ورد الحديث بعدة روايات لأبي رزين .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .

زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[١] .

وقوله تبارك أسمه : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى أنه على كل شيء قدير** ﴾[٢] .

وقوله جل شأنه : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور . والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ .

يخبر الله تعالى : أن من كان يريد العزة في الدنيا والآخرة فليطع الله ورسوله فإن العز كل العز في طاعة الله ورسوله ، والذل كل الذل في مخالفة ما أمر به الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً** ﴾[٤] .

وقال – جل شأنه – : ﴿ **ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم** ﴾[٥] .

وقال تبارك اسمه حكاية عن المنافقين :

﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[٦] .

وللأئمة – رحمهم الله تعالى – في هذا النص أقوال :

قال مجاهد : (من كان يريد العزة) بعبادة الأوثان فإن العزة لله جميعاً . وقال قتادة : (من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً) أي : فليتعزز بطاعة الله – عز وجل – .

---

(١) سورة الحج الآيات : ٥ – ٧ .
(٢) سورة فصلت الآية : ٣٩ .
(٣) سورة ق الآيات : ٧ – ١١ .
(٤) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ – ١٣٩ .
(٥) سورة يونس الآية : ٦٥ .
(٦) سورة المنافقين آية : ٨ .

وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي (فإن العزة لله جميعاً) وحكاه ابن جرير .

وقوله – تبارك وتعالى – : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ يعني : الذكر والتلاوة والدعاء .

قال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله – هو ابن مسعود رضي الله عنه – : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله – تعالى – إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بهن وجه الرحمن – عز وجل – ثم قرأ عبد الله – رضى الله عنه – : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)[1] .

أما قوله تعالى : ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾ فقد روى في تفسير هذا النص أقوال للأئمة الأبرار :

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : الكلم الطيب ذكر الله – تعالى – يصعد به إلى الله – عز وجل – والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله – تعالى – في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله – تعالى – يصعد به إلى الله – عز وجل – ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به ، وكذا قال مجاهد :

العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال أو العالية :

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل قوله تعالى : ﴿ **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** ﴾ .

قد يكون المراد بهؤلاء الذين يمكرون بالناس مكر السيىء فيظهرون لهم خلاف ما يبطنون ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر كما أنه قد يكون المراد بهم المشركين ، والمعنى يعم هؤلاء وأولئك ، وقد حكم الله – تعالى – عليهم بالعذاب الشديد وأن مكرهم يبور فإنما يمكرون بأنفسهم ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، ومكرهم هذا يظهر أمام الناس زيفهم وفسادهم .

قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ قال ابن كثير أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ **ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ أى : ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها . ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أي : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبرى جـ ٢٢ ص ٨٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن المخارق عن أبيه .

﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾[1] .

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) لأئمة التفسير فيها أقوال : قال ابن كثير : أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل ، وهو عنده في الكتاب الأول (وما ينقص من عمره) الضمير عائد على الجنس لا على العين ، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله - تعالى - لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذي كتبت له - فذلك قوله تعالى :

﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وما ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال مجاهد : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغاً ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله - تعالى - سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله - تعالى - في كتابه .

قال النسائي بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه) رواه البخاري ومسلم[2] .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : ذكرنا عند رسول الله - ﷺ - فقال : (إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٥٩ .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب البر والصلة » باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ج ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة وأخرى لأنس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والأداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » ج ٤ ص ١٩٨٢ حديث رقم ٢٠/٢٥٥٧ ، ٢١/٢٥٥٧ عن أنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

وانظر سنن أبي داود « كتاب الزكاة » باب « صلة الرحم » ج ٢ ص ٣٢١ حديث رقم ١٦٩٣ عن رواية لأنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر)[١] وقوله عز وجل ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

وقال الشيخ في تفسير هذه الآية :

﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ أي : والله خلق الناس من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهي آخراً إلى الماء والتراب ، منهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم ، بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى :

﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أي : ولا تحمل من أنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هي صاحبة السلطان في هذا العالم لم يتم التوازن في العدد بين الزوجين ، فيفنى الإنسان والحيوان ونحو الآية قوله : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾[٢] .

. .

﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب** ﴾ أي : لا أحد يقضي له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له ، وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل ، وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت ، والوباء والحرب . ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أي : أن ذلك النظام البديع للعالم – هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

قوله تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

أى : ما يعتدل البحران فيستويان : أحدهما : عذب سائغ شرابه يجري في الأنهار السارية بين

---

(١) انظر كنز العمال « كتاب النكاح » ج ١١ ص ٤٩٢ حديث رقم ٤٥٦٠٨ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر (طب – عن أبي الدرداء) .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ – ٩ .

الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، وثانيهما : ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

﴿ **ومن كل تأكلون لحماً طرياً** ﴾ أي : ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطري ، فضلاً من الله ومنه .

﴿ **وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ وتستخرجون الدر والمرجان من الملح الأجاج ، ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن في كل منهما تشقه شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر ، فتدفع عنكم المخمصة وتسد العوز .

﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ لعلكم تشكرونه – سبحانه – على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك في البحر والشمس والقمر في مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح في تلك العوالم الشاسعة – أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر ، فقال تعالى :

﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى** ﴾ .

﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ أي : يدخل الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

﴿ **وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى** ﴾ أي : وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلاً منه في النهار ، ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم ، لا يقصران دونه ، ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

﴿ **ذلكم الله ربكم له الملك** ﴾ أي : ذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذي لا تصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم ، له الملك التام ، والسلطان المطلق ، والقهر والجبروت ، وكل من في السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

﴿ **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير** ﴾ أي : والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئاً ولو كان حقيراً ، بل هم ملك لخالق القوى والقدر .

ثم أكد ما سلف مبيناً حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله تعالى :

﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ .

هذه الآية دليل على إبطال عبادة غير الله ، فلا يملك الضر والنفع إلا الله .

ولا يجيب المضطر إذا دعاه ولا يكشف السوء عما ناداه إلا الله ، ولا يقبض ولا يبسط إلا

الله ، ولا يحيى ويميت إلا الله ، ولا يعز ويذل إلا الله ، أما ما دونه فلا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا .

ومن ثم فإن القرآن يتحدى المشركين فيقول لهم : ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم** ﴾ يعني : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها ، ﴿ **ولو سمعوا ما استجابوا لكم** ﴾ أي : لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿ **ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾ أي : يتبرءون منكم كما قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾[1]. وكقوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾[3] وكقوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فيما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا** ﴾[4].

وكقوله تعالى : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون . قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون . ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون** ﴾[5] .

وكقوله تعالى : ﴿ **يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ، فاليوم لا يملك بعضكم**

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ - ٦ .

(٢) سورة مريم الآيتان : ٨١ - ٨٢ .

(٣) سورة البقرة الآيات : ١٦٥ - ١٦٧ .

(٤) سورة الفرقان الآيات : ١٧ - ١٩ .

(٥) سورة القصص الآيات : ٦٢ - ٦٦ .

لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا ينبئك مثل خبير**﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها قال قتادة يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

الله هو الغني الحميد

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

---

(١) سورة سبأ الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

معـاني المفـردات

﴿ الفقراء ﴾ : المحتاجون إلى الله ، ﴿ لا تزر وازرة ﴾ : المراد لا تحمل نفس وزرة أي : آثمة ﴿ وزر أخرى ﴾ : حمل أخرى ، ﴿ تزكى ﴾ : تطهر ، ﴿ أمة ﴾ : الأمة الجماعة الكثيرة ، ﴿ وبالزبر ﴾ : الكتب المكتوبة ، ﴿ نكير ﴾ أي : عقابي على أعمالهم .

المناسبة وإجمـالي المعـنى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملك شيئاً ولا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا إتكال إلا عليه ، فهو الذي تجب عبادته وحده ، لأنه النفع والضر بيده لا شريك له ، ثم بين أنه يوم القيامة لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا تستطيع دفع ضرها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والانذار إنما تجدى نفعاً لدى من يخشى الله ويخاف عقابه وأن من يتزكى فنفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردها إليه . ثم ذكر أن الهداية بيده - سبحانه - يمنحها من يشاء ، وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى ، بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعي ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال في الدنيا والنار في العقبى .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ .

يخبر - سبحانه وتعالى - بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها يديه ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات وهو - تعالى - الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال - عز وجل - : ﴿ **والله هو الغني الحميد** ﴾ أي : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه .

﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما ذلك على الله العزيز** ﴾ ويشرح هذه الآيات هذا الحديث القدسي الذي رواه الحبيب المصطفى محمد - ﷺ - عن رب العزة .

عن أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – فيما يرويه عن ربه – عز وجل – أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1] (رواه مسلم) .

قال ابن رجب الحنبلي في تفسير هذا الحديث الجليل :

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما) يعني : أنه منع نفسه سبحانه – من الظلم لعباده كما قال – عز وجل – : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾[4] .

وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يعنى : أنه – تعالى – حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم ، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره وثبت في الصحيح قول النبي – ﷺ – : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)[5] .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي – ﷺ – أنه قال : (إن الظلم ظلمات يوم القيامة)[6] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ حديث رقم ٢٥٧٧/٥٥ فقد ورد الحديث برواية عن أبي ذر .

(٢) سورة ق من الآية : ٢٩ .

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦ .

(٤) سورة يونس من الآية : ٤٤ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الحج » الخطبة أيام منى ج ٢ ص ٢١٥ من رواية لابن عباس من خطبة الرسول – ﷺ – يوم النحر .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب) باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٦ حديث رقم ٢٥٧٨/٥٦ من رواية عن جابر .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)[1] .

وقوله : ﴿ **يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم** ﴾ .

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - تعالى - في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم ، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله . وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا ، ومن لم يتفضل عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ **ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[4] .

وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل فقال لقومه :

﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين** ﴾[5] .

فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا وبمغفرة ذنوبه في الآخرة مستحق أن يفرد بالالهية والعبادة والسؤال والتضرع والتذلل والاستكانة له .

وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالحهم دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة لأنه هو الغني وهم الفقراء المحتاجون إليه - سبحانه .

وقوله : ﴿ **يا عبادي أنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني** ﴾

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب المظالم والغصب » باب « من كانت له مظلمة » ج ٣ ص ١٧٠ من رواية لأبي هريرة مع اختلاف في الألفاظ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ١٧ .

(٣) سورة فاطر آية : ٢ .

(٤) سورة هود من الآية : ٦ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٨٣ .

يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً ، فإن الله – تعالى – في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه ، وإنما هم ينتفعون بها ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها قال الله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً** ﴾[١]. وقال تعالى : ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً** ﴾[٢]. وكان النبي – ﷺ – يقول في خطبته : (ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ، ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً) قال الله – عز وجل – ﴿ **وإن تكفروا فإن لله مافي السموات ومافي الأرض وكان الله غنياً حميداً** ﴾[٣] ، وقال حاكياً عن موسى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد** ﴾[٤] وقال : ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾[٦] . والمعنى أنه – تعالى – يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض وطلبها حتى أعي وأيس منها واستسلم للموت وأيس من الحياة ثم غلبته عينه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح ، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده .

قال الفضيل بن عياض – رضي الله عنه – مامن ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل – جل جلاله – : من أعظم مني جوداً والخلائق لى عاصون وأنا لهم مراقب أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي واتفضل على المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم استجب إليه ، أم من ذا الذي سألني فلم أعطه ، أم من ذا الذي أناخ ببابي فنحيته أنا الفضل ومني الفضل ، أنا الجواد ومني الجود ، وأنا الكريم ومني الكرم ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطى العبد ما يسألني وأعطيه مالم يسألني ، ومن كرمي أن أعطى التائب كأنه لم يعصني ، فأين إلى غيره يهرب الخلائق وأين عن بابه يلتجيء العاصون) ؟ (اخرجه أبو نعيم)[٧] .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٧٦ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .
(٣) سورة النساء من الآية : ١٣١ .
(٤) سورة إبراهيم الآية : ٨ .
(٥) سورة آل عمران من الآية : ٩٧ .
(٦) سورة الحج من الآية : ٣٧ .
(٧) انظر حلية الأولياء ج ٨ ص ٩٢ ، ٩٣ فقد ورد الحديث .. ثنا هناد بن السرى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : . . . الحديث .

وقوله بعد هذا (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) هو إشارة إلى أنه - سبحانه - ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على أتقى قلب رجل منهم ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان والجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم فإنه - سبحانه وتعالى - الغني بذاته عمن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان - وقوله : (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) .

فالمراد بهذا ذكر كمال قدرته - سُبحانه - وكمال ملكه وإن ملكه وخزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد وفي ذلك حث الخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : (يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يفض ما في يمينه)[1] .

وقوله : (لم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا ادخل البحر) لتحقيق أن ما عنده لا ينقص ألبتة كما قال تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئاً ، وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلاً فإنه لا ينقص البحر ألبتة .

وهكذا طعام الجنة وما فيها فإنه لا ينقص كما قال تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾

وقد جاء : كلما نزعت ثمرة عاد مكانها مثلها وروى مثلاها فهى لا تنقص أبداً ويشهد بذلك قول النبي - ﷺ - في خطبة الكسوف « ورأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)[2] . (خرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما) .

وقوله : ﴿ **يا عبادي . إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها** ﴾ يعنى أن سبحانه

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله » ج ٩ ص ١٥٠ فقد ورد الحديث في رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر صحيح البخاري باب الصلاة في كسوف الشمس ، باب صلاة الكسوف جماعة ج ٢ ص ٤٦ ، فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن عباس .
وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٥٨ ، ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله ابن مسعود .

يحصى أعمال عباده ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها ، وهذا كقوله سبحانه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾(١)

وقوله : ﴿ **فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** ﴾ إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير استحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه ، فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته أعانه ووفقه لطاعته ، وكان ذلك فضلاً منه ورحمة وإذا أراد خذلان عبد وكله إلى نفسه وخلى بينه وبينها فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتبع هواه وكان أمره فرطاً ، وكان ذلك عدلاً منه ، فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول فما بقى لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل .

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً قيماً في قوله الله – عز وجل – ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** ﴾ .

فصل في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه : قال رحمه الله : بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه ، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل ذاتي للفقير . فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجبت غناه . كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك ، إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغنى بذاته » .

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إلية سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هى ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هى ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً ، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً .

الفقر فقران :

إذا عرف هذا الفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً . .

والفقر الثاني : فقر اختياري وهو نتيجة علمين شريفين أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني معرفته بنفسه ، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان انتجتا فقراً هو عين غناه وعنوان سعادته وفلاحه .

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ – ٨ .

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين ، فمن عرف ربه بالغنى المطلق ، عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل ، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة ، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوراً محسوساً لكل أحد ، ومعلوم أنه هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها ، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى ، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئه وفاطره .

فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً ، وخلع عليه ملابس إنعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بني جنسه ، وسخر له الخيل والإبل وسلطه على دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء والتحيل على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظن المسكين أن له نصيباً من الملك وادعى لنفسه ملكاً مع الله سبحانه ، ورأى نفسه لغير تلك العين الأولى ، ونسي ما كان فيه من حالة الاعدام والفقر والحاجة ، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره ، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله - ﷺ - بصق في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ **ياابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد (صوت) فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأني أوان الصدقة** ﴾[1] ومن هاهنا خذل من خذل ووفق من وفق . فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه ، فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة . قال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى** ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى** ﴾[3] فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ولهذا كان من دعائه - ﷺ - : (أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين ولا إلى أحد من خلقك) .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ حديث يسر بن جحاش عن النبي - ﷺ - فقد ورد الحديث بلفظه وجاء فيه بلفظ (بني آدم » بدلاً من « يا بن آدم » .

(٢) سورة العلق الآيتان : ٦ - ٧ .

(٣) سورة الليل الآيات : ٨ - ٩ .

وكان يدعو : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) يعلم - ﷺ - أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئاً ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً** ﴾[1] فضرورته - ﷺ - إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ، ومنزلته عنده . وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الدعاء ، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه - ﷺ - (من كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين) ، وقال رحمه الله في كتابه مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد وإياك نستعين .

ومن منازل : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾[2] منزلة « الفقر » هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم وأعلاها وأرفعها ، بل هي روح كل منزلة وسرها ولبها وغايتها .

وحقيقة « الفقر » وكماله كما قال بعضهم - وقد سئل : متى يستحق الفقير اسم : الفقير ؟ - فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : إذا كان له فليس له . وإذا لمن يكن له فهو له .

وهذه من أحسن العبارات عن معنى « الفقر » الذي يشير إليه القوم . وهو أن يصير كله لله - عز وجل - لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه فمتى بقى عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول .

- ثم فسر ذلك بقوله : « إذا كان له فليس له ، أي : إذا كان لنفسه فليس لله ، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله .

فحقيقة الفقر لا تكون لنفسك ، ولا يكون لها منك شيء ، بحيث تكون كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر .

وهذا « الفقر » الذي يشيرون إليه ! لا تنافيه الجدة ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل - عليه السلام - كان أبا الضيفان . وكانت له الأموال والمواشي .

وكذلك سليمان وداود - عليهما السلام - وكذلك كان نبينا محمد - ﷺ - كما قال الله تعالى : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾[3] . فكانوا أغنياء في فقرهم . فقراء في غناهم .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(٣) سورة الضحى آية : ٨ .

فالفقر الحقيقي : دوام الافتقار إلى الله في كل حال وأن يشهد العبد – في كل ذرة من ذراته – الظاهرة والباطنة – فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه .

فالفقر ذاتي للعبد ، وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالاً ، وإلا فهو حقيقة .

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم : الفقير لا تسبق همته خطوته .

يريد أنه ابن حاله ووقته . فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه .

وقيل : أركان الفقر أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه .

وقال الشبلي : حقيقة الفقر ألا يستغنى بشيء دون الله .

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه .

وقيل بعضهم : أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله : دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال ، وملازمته السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

والفقر له بداية ونهاية ، وظاهر وباطن فبدايته : الذل ، ونهايته : العز . وظاهره : العدم ، وباطنه : الغنى كما قال رجل لآخر : فقر وذل ؟ فقال : لا ، بل فقر وعز . فقال : فقر وثراء ؟ قال : لا بل فقر وعرش ، وكلاهما مصيب .

واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله –مع التخليط – خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب مع أنه لا صفاء معهما .

وإذا عرفت معنى « الفقر » علمت أنه عين الغنى بالله ، فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه .

درجـــات الفقـــر

الدرجة الأولى : فقر الزهاد : وهو قبض اليد على الدنيا ضبطاً أو طلباً . وإسكات اللسان عنها مدحاً أو ذماً . والسلامة منها طلباً أو تركاً . وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه .

قوله :**(قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا)**يعني : يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له ، فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها ، وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها ، فلا يطلب معدومها . ولا يبخل بموجودها .

وأما « تعطيلها عن اللسان » فهو لا يمدحها ولا يذمها . فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل على محبتها ورغبته فيها ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته .

وأما (تعطيل القلب منها) فبالسلامة من آفات طلبها وتركها . فإن لتركها آفات ولطلبها آفات . والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة ، لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها .

ومن آفات الترك : تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه ، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك .

ومن آفات تركها ، وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو ، وهذا يقابل الزهد فنها وتركها ، كما أن كسرة الأخذ وذلته وتواضعه : يقابل الأخذ التارك . ففي الأخذ آفات ، وفي الترك آفات .

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك وهو لا يحصل إلا بفقه في الفقر .

وقوله رحمه الله .. (فهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه) يعنى تكلم فيه أرباب السلوك وفضلوه ومدحوه .

قال : « الدرجة الثانية » الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال . ويقطع شهور الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات .

يريد بالرجوع إلى السبق : الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنة وجوده ، وأن العبد - وكل مافيه من خير - فهو محض وجود الله وإحسانه ، وليس للعبد من ذاته سوى العدم ، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه ، فإذا شهد هذا وأحضره قلبه ، وتحقق به ؛ خلصه من رؤية الأعمال فإنه لا يراها إلا من ا لله وبالله . وليست منه هو ولا به .

واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله . ويخلصه منها : شهود السبق ، ومطالعة الفضل .

وقوله : (ويقطع شهود الأحوال) .

لأنه إذا طالع سبق فضل الله : علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره ، فهو محض جوده . فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً ، كما لم يشهد لهُ عملاً . فقد جعل عدته للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله .

وكذلك قوله : « يمحص من أدناس مطالعة المقامات » هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال ، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال ومطالعة المقامات : فمطالعة الفضل يتمحص من هذا الدنس .

والفرق بين الحال والمقام : أن « الحال » معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ، ولا اكتساب ، ولا تعمد . و « المقام » يتوصل إليه بنوع كسب وطلب . فالمقام يحصل ببذل المجهود ، وأما الحال : فمن عين الجود .

قال : « والدرجة الثالثة : الاضطرار . والوقوع في يد التقطع الوجداني أو الاحتباس في بيداء قيد التجريد . وهذا فقر الصوفية » .

« الاضطرار » شهود كمال الضرورة والفاقة علماً وحالاً .

ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني : حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار . فهي منقطعة عن الأغيار ، وحدانية في نفسها والوقوع في يدها : الاستسلام والاذعان لها . والدخول في رقها .

« وأما الاحتباس في بيداء قيد التجريد »

فهو تجريد الفردانية أن يشهد معها غيرها ، وهو الغناء عن شهود السوى . وسمى ذلك « احتباساً » لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار . وجعل للتجريد قيداً . وهو التقيد بشهود الحقيقة .

وجعل القيد بيداء لوجهين .

أحدهما : أن الأغيار تبيد فيه وتنعدم . ولا يكون معه سواه .

والثاني : لسعته وفضائه . فصاحب شهده : في بيداء واسعة ، وإن احتبس في قيد شهوده .

وقوله : وهذا فقر الصوفية .. قد يفهم منه : أن التصوف أعلى عنده من الفقر . فإن هذه الدرجة الثالثة – التي هى أعلى درجات الفقر عنده هى من بعض مقامات الصوفية .. انتهى .

في تقسيم الغنى إلى عال وسافل
والله هو الغني الحميد

ولما كان الفقر إلى الله – سبحانه – هو عين الغنى به ، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به ، وأذلهم له أعزهم ، وأضعفهم بين يديه أقواهم ، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله ، وامقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله ، كان ذكر الغني بالله مع الفقر إلا إليه متلازمين متناسبين .

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو مرسوم بسمة الخلق والصنع وغنى العبد أمر نسبي إضافي عارض له ، فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته ، فهو غني به فقير إليه ، ولا يوصف بالغنى على الاطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته ، فهو الغنى بذاته عما سواه وهو الأحد الصمد الغنى الحميد .

والغنى قسمان :

غنى سافل ، وغنى عال . فالغنى السافل الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . وهذا أضعف الغنى ، فإنه غنى بظل زائل ، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها ، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها ، وكأن الغنى بها كان حلماً

فانقضى ولا همة أضعف من همة من رضي بهذا الغني الذي هو ظل زائل وهذا غني أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون ، وإياه يطلبون وحوله يحومون ، ولا أحب إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده .

وهذا الغنى محفوف بفقرين : فقر قبله ، وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما . فحقيق بمن نصح نفسه ألا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه ، بل إذا حصل له جعله سبباً لغناه الأكبر ووسيلة إليه ، ويجعله خادماً من خدمه لا مخدوماً له ، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق ، أو يجعلها خادمة لغيره .

الغنى العالي :

أما الغنى العالى فقال شيخ الإسلام : (هو على ثلاث درجات) :

الدرجة الأولى : غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم ، وخلاصته من الخصومة .

الدرجة الثانية : غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب . وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة .

والدرجة الثالثة : الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب :

الأولى : شهود ذكره إياك .

والثانية : دوام مطالعة أوليته .

والثالثة : الفوز بوجوده .

وإنما قدم شيخ الإسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس ؛ لأن كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه ، وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب ، وصلاح النفس متقدم على إصلاحها . هكذا قيل ؛ وفيه ما فيه ، لأن صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر .

ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم . وقد قال النبي – ﷺ – : (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب)[1] والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الأمراء والرعية خلعاً تناسبها ، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والاخبات .

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار ، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء ، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد والحكمة النافعة ، وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغض عن

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب المسافاة » باب « أخذ الحلال وترك الشبهات » ج ٣ ص ١٢١٩ ، ١٢٢٠ حديث رقم ١٠٧/ ١٥٩٩ ، فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل عن النعمان بن بشير .

المحارم ، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده ، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوة وأيد . وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ ، فغدا العبد وراح يرفل في هذه الخلع ويجر لها في الناس أذيالاً وأرداناً . فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه . فإذا استغنى سرى الغنى منه إلى النفس .

فقوله في الدرجة الأولى وهي غنى القلب : (إنه سلامته من السبب) أي : من الفقر إلى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون إليه والثقة به ، فمن كان معتمداً على سبب غناه واثقابه لم يطلق عليه اسم الغنى ، لأنه فقير إلى الوسائط ، بل لا يسمى صاحبه غنياً إلا إذا سلم من علة السبب استغناء بالمسبب ، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره .. فبذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله – سبحانه – . فمن كملت له السلامة من علة الأسباب ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسألة – أي : بالانقياد لحكمه – حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته .

ولا يتم الغنى بتدبير الله – سبحانه – لعبده إلا بالمسألة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه

فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ، ومن كان فقيراً إلى حظ من الحظوظ – يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه – لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إلى وليه وقيومه ومتولى تدبيره ، فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب ، ومن علة منازعته لأحكام الله – سبحانه – ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه مفوضاً إليه لا يفتقر إلى غيره ، ولا يسخط شيئاً من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه ، فتكون مخاصمته لله وبالله ، ومحاكمته إلى الله كما كان – ﷺ – يقول في استفتاح صلاة الليل :

(اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت ، وإليك حاكمت) . فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه ، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه وقد قالت السيدة عائشة : (ما انتقم رسول الله – ﷺ – لنفسه قط) وهذا لتكميل عبوديته . ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت ، وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر .

وقال تعالى : ﴿ وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾[١] . ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ .

أي : وإن طلبت نفسي مثقلة بالأوزار والذنوب - إن طلبت - غيرها ليحمل بعض ما عليها فلن يكون ذلك فهي التي تحمل أوزارها وحدها .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وهذه الآية تشبيه بالأم التي حملت وأثقلت وأخذت تشعر بآلام الحمل فإن غيرها لا يستطيع أن يحمل عنها بعض آلامها ولو كان ذا قربى ولو كان أباها أو ابنها كل مشغول بنفسه وحاله .

قال عكرمه في قوله - تعالى - : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب ، سل هذا لم كان يغلق بابه دوني . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار .

وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بنى ، أي والد كنت لك فيثنى خيراً فيقول له : يا بنى ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها فما ترى. ، فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة - أو يا هذه ، أى زوج كنت لك فتثنى خيراً فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى لعلي أنجو بها مما ترين .

قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾[٢] .

ويقول تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٣] . رواه ابن ابي حاتم رحمه الله عن أبي عبد الله الزهراني عن حفص بن عمر عن

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ١٢ .
(٢) سورة لقمان من الآية : ٣٣ .
(٣) سورة عبس الآيات : ٣٤ - ٣٧ .

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء ، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه فهذه كلها آثار ذكره لك . ثم إنه – سبحانه – ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس ، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك وتعرف بها إليك وتحبب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء ، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده .

فإذا شهد العبد ذكر ربه – تعالى – له ووصل شاهده إلى قلبه شغله ذلك عما سواه ، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء . فهو يحصل له بشعوره بذكره إسناده له – غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له ، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد وقد قال – ﷺ – فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ﴿ **إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم** ﴾[1] فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره له حتى جعله ذاكراً ، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائد على إنعام ربه عليه وعطاياه له .

والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته ، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم ، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم ، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم .

والدرجة الثانية من درجات الغنى بالله – عز وجل – : شهود أوليته – سبحانه – ، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى مما قبله ، والغنى به أتم من الغنى المذكور لأنه من مبادىء الغنى بالحقيقة ، لأن العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره ، وهو الاله الحق الكامل في أسمائه وصفاته ، الغنى بذاته عما سواه ، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده ، فهو معبود محمود حي قيوم له الملك وله الحمد في الأزل والأبد . لم يزل موصوفاً بصفات الجلال . منعوتاً بنعوت الكمال ، وكل شيء سواه فإنما كان به ، وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره ، فهو القيوم الذي قيام كل شيء به ، ولا حاجة به في قيومته إلى غيره بوجه من الوجوه . فإذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى في وجوده من لم يكن ، وبقى من لم يزل ، وأضمحلت الممكنا في وجوده الأزلى الدائم بحيث صارت كالظلال التي يبسطها ويمدها ويقبضها فيستغنى العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى به عن فاقاته وحاجاته .

وإنما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لأن الشهود الذي قبله فيه شائبة مشيرة إلى وجود العبد ، وهذا الشهود الثاني سائر الموجودات كلها سوى الأول – تعالى – قد اضمحلت وفنيت فيه

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « الحث على ذكر الله – تعالى – ج ٤ ص ٢٠٦١ حديث رقم ٢٦٧٥/٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

– وصارت كأوليتها وهو العدم – فأفنتها أولية الحق – سبحانه – . فبقى العبد محواً صرفاً وعدماً محضاً ، وإذا كانت أنيته (الأنا) مشخصة مشاراً إليها ، لكنها لم نسبت إلى أولية الحق – عز وجل – اضمحلت وفنيت وبقى الواحد الحق الذي لم يزل باقياً ، فاضمحل ما دون الحق – تعالى – في شهود العبد كما هو مضمحل في نفسه ، وشهد العبد حينئذ أن كل شيء ما سواه باطل ، وأن الحق المبين هو الله وحده ، ولاريب أن الغنى بهذا الشهود أتم من الغنى بالذي قبله ، وليس هذا مختصاً بشهود أوليته – تعالى – فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب – سبحانه – يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها . فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق ، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمة وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه ، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ويشهد نزول الأمر والمراسيم الألهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف من الأمانة والاحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس – إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التى لا يتصرف فيها سواه ، فمراسمه نافذة كما يشاء ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾[1] .

فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به .

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال ، بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من فراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء . وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها ، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر .

ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هي عنده كلها كصوت واحد ، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخراء الصماء في الليلة الظلماء . ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخهال وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل ، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية يحرس حركاتها وسكناتها ويتقن أنها بمرأى منه – سبحانه – ومشاهدة لا يغيب عنه شيء .

---

(١) سورة السجدة آية: ٥

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس ، وأنه – تعالى – هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه ، وأنه بكمال قيومته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو شهادة أن لا إله لا هو ، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال .

فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلي له ويسجد ، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله فهو المطاع وحده على الحقيقة ، والمألوه وحده وله الحكم وحده . فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال . وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها ، وكل غنى لغيره فقر وفاقة ، وكل عز لغيره ذل وصغار ، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله – جل جلاله – فإن هذا الاسم هو الجامع ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه ، فيقال : الرحمن ، الرحيم ، العزيز ، الغفار ، من أسماء الله ، قال تعالى :

﴿ **ولله الأسماء الحسنى** ﴾[1]، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها ، وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته ، فمن اتسع قلبه لمشهد الألهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق ، وصار من أغنى العباد .

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب – سبحانه – : الفوز بوجوده ، هذا الغنى أعلى درجات الغنى ، لأن الغنى الأول والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجه إليه ، ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة ، واستغنى القلب بذلك ، وجعل له أيضاً أنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضاً . وأما هذا الغنى الثالث الذي هو الغني بالحق – فهو من آثار وجود الحقيقة ، وهو إنما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات ، وإنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجرالتوحيد ، فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسه فينقطع ضباب الوجود الفاني وتشرق شمس الوجود الباقي فينقطع لها كل ضباب ، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور على عظمة الذات كما كشف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٨٠ .

صــفات الذات :

فإذا كل أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يغنى القلب والنفس ، فما ظنك بما تكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام ، فهذا غنى لا يناله الوصف ولا يدخل تحت الشرح فيستغنى العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم ، فياله من فقر ينقضى ومن غنى يدوم ومن عيش ألذ من المنى ، فلا تستعجز نفسك عن البلوغ إلى هذا المقام فبينك وبينه صدق الطلب ، وإنما هي عزمة صادقة ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون .

وقد جاء في أثر إلهي يقول الله – عز وجل – :

﴿ **ابن آدم خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء وأنا أحب إليك من كل شىء** ﴾ فمن طلب الله بصدق وجده ومن وجده أغناه وجوده عن كل شىء ، فأصبح حراً في غنى ومهابة على وجهه أنواره وضياؤه .

وإن فاته مولاه – جل جلاله – تباعد ما يرجو وطال عناؤه ، ومن وصل إلى هذا الغنى قرت به كل عين لأنه قد قرت عينه بالله والفوز بوجوده ، ومن لم يصل إليه انقطعت نفسه عن الدنيا حسرات وقد قال – ﷺ – : (من أصبح والدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع)[1] ، فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقى ، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله – سبحانه – أكبر همه ، فهذا من باب التنبيه والأولى – انتهى .

المسئولية الفــردية

قوله تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾ .

هذا حكم قضى به الله – سبحانه وتعالى – وفيه يتجلى منطق العدالة الإلهية فليس هناك نفس تحمل وزر نفس أخرى ، بل من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

---

(١) انظر اتحاف المتقين جـ ٦ ص ٣٩٠ وانظر جـ ١٠ ص ٨ فقد وردت فيهما عدة روايات لهذا المعنى عن أنس وابن عباس وعبد الله بن عمرو وزيد بن ثابت وأقربها إلى الحديث الذي معنا ما رواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس ، وماجاء في الترمذي أيضاً

غـنى النفـس :

قوله في غنى النفس : (إنه استقامتها على المرغوب وسلامتها من الحظوظ ، وبراءتها من المراءاة) يريد استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه ، وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويبغضها وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيماً لله - سبحانه - وأمره وإيماناً به واحتساباً لثوابه ، وخشية من عقابه . لا طلباً لتعظيم المخلوقين له ومدحهم ، وهرباً من ذمهم ، وطلب للجاه والمنزلة عندهم فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد عنه وأنه أفقر شيء إلى المخلوق . فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها . لأنها إذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعاً واختباراً ومحبة وإيماناً واحتساباً ، بحيث تصير لذاتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي - ﷺ - يقول : (يا بلال أرحنا بالصلاة)[١] ، وقال : (حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة)[٢] ، فقُرة العين فوق المحبة : فجعل النساء والطيب مما يحبه . وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه ، فكيف لا تكون قرة العين ، وكيف تقر عين المحب بسواها . فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأي فقر يخشى معه ، وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه ؟ .

فيمـا يغـنى القـلب ويسـد الفـاقة

وهذه الاستقامة : ترقيها إلى الدرجة الثالثة من الغنى ، وهو الغنى بالحق - تبارك وتعالى - عن كل ما سواه ، وهي أعلى درجات الغنى . فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله - عز وجل - إياك قبل ذكرك له ، وأنه - تعالى - ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداء قبل وجودك وطاعتك وذكرك ، فقدر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً البتة وذكرك - تعالى - بالإسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله ، قال تعالى : ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾[٣] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط . وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره ، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاكه لم يكن إليه سبيل ، ومن الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوم ؟ ومن لذي ذكرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها ، وأوقعها في قلبك ، وبعث دواعيك وأحيى عزماتك الصادقة عليها ، حتى تبت إليه وأقبلت عليه ، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها ؟ .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٦٤ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٨ ، فقد ورد الحديث بروايتين عن أنس بلفظ : « حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة » .

(٣) سورة الحج من الآية : ٧٨ .

الحكم بن إبان عن عكرمة . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة** ﴾ أي : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه** ﴾ أي : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قوله تعالى :

﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير** ﴾ .

هذا مثل ضربه الله – تعالى – لذوي البصائر المؤمنين كما ضربه للذين في قلوبهم أكنة وعلى أبصارهم غشاوة من الكافرين . كما في قوله تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون** ﴾[١] وكما في قوله – جل شأنه – : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون** ﴾[٢] .

وكما في قوله جل شأنه :

﴿ **أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾[٣] .

فالمؤمن هو البصير الحي ، والكافر هو الأعمى الميت وبين هؤلاء وأولئك بون شاسع لا يستويان ولا يجتمعان .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يسمع من يشاء** ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها . ﴿ **وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾ أى : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتبت عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿ **إن أنت إلا نذير** ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ أي : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين . ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ أي : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله – تعالى –

---

(١) سورة هود الآية : ٢٤ .
(٢) سورة غافر الآية : ٥٨ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

إليهم النذر وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾[1] .

وكما قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾[2] الآية والآيات في هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ وهى المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات .

﴿ **وبالزبر** ﴾ وهى الكتب .

﴿ **وبالكتاب المنير** ﴾ أي : الواضح البين .

﴿ **ثم أخذت الذين كفروا** ﴾ أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أى : بالعقاب والنكال .

﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ أي : فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً .. والله أعلم .

من دلائـل التوحـيد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

معـاني المفـردات

﴿ **جدد** ﴾ : جمع جدة وهى الطرائق المختلفة الألوان .

﴿ **وغرابيب سود** ﴾ : أصل اللفظ وسود غرابيب ، والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب أسود غربيب .

﴿ **لن تبور** ﴾ : لن تغنى ولن تضيع .

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٧ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٣٦ .

المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التي أعرض عنها المشركون عناداً واستكباراً ، أردف ذلك ذكر ما يرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان ، لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور** ﴾ .

إن اختلاف المخلوق دليل على إجادة الخالق ، إذ أن ما الطبيعة لا يختلف ولا يتخلف فلو كانت الحياة التي نعيشها على ظهر هذا الكوكب صدرت عما يسمى بالطبيعة كما يدعى الذين في قلوبهم مرض الالحاد لكانت وجهاً واحداً لا يختلف عن غيره ولكن لما كان هذا الكون قد صدر عن إله عليم مريد قادر فقد اختلف في أشكاله وألوانه وأنواعه ، قال تعالى :

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾(١) .

وقال عز من قائل : ﴿ **وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون** ﴾(٢) .

وقال جل جلاله : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾(٣) .

فانظر إلى الرياض والحدائق والحقول كيف تنوعت أنواع الأزهار وروائحها واسأل نفسك من الذي وزع هذه الألوان عليها ، ثم انظر إلى الحدائق وما اشتملت عليه من أشجار الفواكه ، من الذي

---

(١) سورة الروم الآية : ٢٢ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٢ .

(٣) سورة الرعد الآية : ٤ .

سقاها ذلك السكر السائل ، وانظر إلى الحقول وما اشتملت عليه من الحبوب من الذي منحها خصائصها ومن الذي جعل النبات الحريف بجانب الفاكهة الحلوة بحيث لا يبغى هذا على ذاك ، ثم تأمل بعد ذلك عظمة الخالق في قوله :

﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها** ﴾[1] نعم اختلفت ألوانها وطعومها وروائحها مع أن الأرض واحدة والماء واحد والهواء واحد إنها الحجة الدامغة والبرهان الساطع على علم الخالق وإرادته وقدرته ، وكما وقع الاختلاف في الثمرات كذلك وقع في عالم الجبال ، قال تعالى : ﴿ **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾ أي : خلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهى الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً .

ومنها غرابيب سود . قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وكذلك وقع الاختلاف في الانسان والحيوان ، ﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك** ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هى مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد ، وصقالية وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ **واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾ .

وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين . ولهذا قال بعد هذا ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال الذين **يعلمون** أن الله على كل شيء قدير .

وروى أيضاً عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً ، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التي تحول بينك وبين معصية الله – عز وجل – .

وقال الحسن البصري : العالم من خشى الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾ .

---

(١) سورة فاطر من الآية : ٢٧ .

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية .

وقال الإمام مالك : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد إبن صالح المصري معناه :أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية وأما العلم الذي فرض الله – عز وجل – أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة – رضي الله عنهم – ومن بعدهم من أئمة المسلمين – فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : (نور) يريد به منهم العلم ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثوري عن أبي حيان عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ، عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله – تعالى – ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض ، والعالم بأمر الله وليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله – عز وجل – .

وكفى العلماء فخراً وشرفاً أنهم شهدوا لله بالوحدانية فسلكهم الله في مصاف الملائكة قال سبحانه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[1] .

كما وصفهم برقة القلوب وخشوع البصائر لله قال تعالى :

﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذ يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الله عزيز غفور** ﴾ عزيز لا يغلب بل ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾[3] .

﴿ **قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ..** ﴾[4] . ﴿ **وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم** ﴾[5] .

﴿ **غفور** ﴾ عظيم المغفرة فهو غافر الذنب لمن يتوب ، قابل التوب لمن يؤوب ، شديد العقاب إذا اسودت القلوب . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ١٠٧ والآيتان : ١٠٨ – ١٠٩ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٦١ .
(٤) سورة المؤمنون الآية : ٨٨ وجزء الآية : ٨٩ .
(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢ وجزء الآية : ١٣ .

كلمة عن العلم والعلماء

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

فضيلة العلم :

شواهدها من القرآن قوله – عز وجل – : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾(١) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاء ونبلاً . وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾(٢) قال ابن عباس – رضي الله عنهما – للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة مابين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام .

وقال عز وجل : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(٤).

وقال عز وجل : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً** ﴾(٥) ، بين سبحانه أن أعظم قدر الآخرة يعلم بالعلم .

وقال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾(٦) .

وقال تعالى : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾(٧) . رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله سبحانه .

وقال تعالى في معرض الامتنان : ﴿ **خلق الإنسان . علمه البيان** ﴾(٨) .

وأما الأخبار عن رسول الله – ﷺ – فقد قال :

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٨ .
(٢) سورة المجادلة من الآية : ١١ .
(٣) سورة الزمر من الآية : ٩ .
(٤) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .
(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .
(٦) سورة العنكبوت من الآية : ٤٣ .
(٧) سورة النساء من الآية : ٨٣ .
(٨) سورة الرحمن الآيتان : ٣ – ٤ .

(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[١] ، وقال - ﷺ - (العلماء ورثة الأنبياء)[٢] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال - ﷺ - : (يستغفر للعالم ما في السموات والأرض)[٣]، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل الملائكة بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .

وقال - ﷺ - : (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي)[٤] (الترمذي وقال حسن صحيح) . فانظر كيف جعل العالم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة .

وروى عنه - ﷺ - أنه قال : (يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)[٥].

وأما الآثار فقد قال على بن أبي طالب لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق .

وقال علي أيضاً : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف عنه .

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قيل : فمن

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « من يرد الله به خير يفقهه في الدين » فقد ورد الحديث بلفظه عن يونس عن ابن شهاب ج ١ ص ٢٧ وانظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر ج ٢ ص ٢٣٤ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

وانظر سنن الترمذي « أبواب العلم » باب « إذا أراد الله بعد خيراً فقهه في الدين ج ٤ ص ١٣٧ حديث رقم ٢٧٨٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر مجمع الزوائد كتاب العلم « باب العلم بالتعلم » ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب فضل الفقه على العبادة من ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

وانظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب في فضل العلماء ومجالستهم .. ج ١ ص ١٢٦ فقد ورد الحديث .

(٣) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لأبي الدرداء .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٠٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد الحديث عن أبي أمامة غير أنه جاء بلفظ « أدناكم » بدلاً من « أدنى رجل من أصحابي » .

(٥) انظر سنن ابن ماجة « كتاب الزهد » باب « ذكر الشفاعة » ج ٢ ص ١٤٤٣ حديث رقم ٤٣١٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عثمان بن عفان .

السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ولم يجعل ابن المبارك غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم .

فضيلة العلم

أما الآيات في ذلك :

قال تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[٢] .

وأما الأخبار فقوله – ﷺ – : (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة)[٣] . (البخاري) .

وقال – ﷺ – : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)[٤] . (أخرجه الترمذي) .

وقال – ﷺ – : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[٥] .

وأما الآثار : فقال ابن عباس – رضي الله عنهما – : ذللت طالباً فعززت مطلوباً . وقال الحسن البصري : (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها) (ابن عبد البر) .

وقال ابن المبارك : (عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة) وقال أبو الدرداء : (لأن أتعلم مسئلة أحب إلى من قيام ليلة ، وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير منهم ، وقال أيضاً كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك .

---

(١) سورة التوبة آية : ١٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « العلم قبل القول والعمل » .
وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » حديث ص ٢٨٢٣ ج ٤ ص ١٥٣ ، فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي الدرداء وفيه لفظة « يبتغي » بدلاً من « يطلب » وانظر : ج ١٣٧ باب « فضل طلب العلم » فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب « في طلب العلم » ج ١ ص ١٢٠ فقد ورد الحديث عن روايات لأبي سعيد الخدري ، وفيه يحيى بن هشام السمسار كذاب ، ولابن عباس وفيه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد ضعيف جداً ، وللحسين بن علي وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت ضعيف جداً .

وقال عمر : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي : (العلم أفضل من النافلة) .

فضـيلة التعـليم

أما الآيات فقوله تعالى : ﴿ **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[١] والمراد هو التعليم والإرشاد .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لبينته للناس ولا تكتمونه** ﴾[٢] وهو إيجاب للتعليم .

وقوله : ﴿ **وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾[٣] وهو تحريم لكتمان العلم .

كما قال تعالى في الشهادة : ﴿ **ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** ﴾[٤]

وأما الأخبار فقوله - ﷺ - : لعلي بن أبي طالب :

(لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)[٥] (الصحيحين) .

وقال - ﷺ - : (إن الله - عز وجل - لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالاً إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون . (متفق عليه)[٦] .

وقال - ﷺ - : (من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)[٧] (أبو داود)

---

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٤٦ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب « دعاء النبي إلى الإسلام » ج ٤ ص ٥٨ عن رواية لسهل بن سعد - رضي الله عنه - من حديث طويل .

(٦) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « كيف يقبض العلم » ج ١ ص ٣٦ فقد ورد الحديث برواية عبد الله بن عمرو ابن العاص مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في ذهاب العلم) فقد ورد الحديث برقم ٢٧٩٠ ج ٤ ص ١٣٩ برواية لعبد الله بن عمرو بن العاص مع اختلاف في بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب العلم » باب « رفع العلم وقبضه » ج ٤ ص ٢٠٢٨ ، فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله ابن عمرو بن العاص : ٢٦٧٣/١٣ .

(٧) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في كتمان العلم » ج ٤ ص ١٣٨ حديث رقم ٢٧٨٧ برواية عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه .

وقال – ﷺ – : (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً)[١] (الترمذي) .

وقال – ﷺ – : (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير)[٢] (الترمذي وقال حسن صحيح) .

وقال – ﷺ – : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به ..)[٣] (مسلم) .

وقال – ﷺ – : (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير)[٤] (متفق عليه) .

وقال – ﷺ – : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)[٥] (مسلم) .

وأما الآثار : قال ابن عباس : (معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر) ، وقال بعض العلماء :

العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل .

وقال الحسن البصري : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة إلى حد الإنسانية .

وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وماهو ؟ قال :
أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه .

وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد – ﷺ – من آبائهم وأمهاتهم قيل : وكيف ذلك قال : لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

---

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب الزهد » باب « ما جاء في هوان الدنيا على الله ، ج ٣ ص ٣٨٤ حديث رقم ٢٤٢٤ من رواية لأبي هريرة ، وقال هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد هذا الحديث عن أبي أمامة الباهلي . ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » ج ٣ ص ١٢٥٥ ، فقد ورد الحديث ١٦٣١/١٤ من رواية لأبي هريرة بلفظ « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٧٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة برواية مسلم .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « الاغتباط في العلم والحكمة » ج ١ ص ٢٨. ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود .

وانظر صحيح مسلم كتاب « صلاة المسافرين » ج ١ ص ٥٥٩ ، فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود حديث ٨١٦/٢٦٨ .

(٥) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « إن الدال على الخير كفاعله » ج ٤ ص ١٤٨ حديث ٢٨١٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه برواية عن أبي مسعود البدري (عقبة بن عمرو) .

وقيل : أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم نشره .

وقال معاذ : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها) .

لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الإبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله - عز وجل - وبه يعبد ، وبه يوعد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله حسن التوفيق .

في آداب المتعـلم والمعـلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى :

تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذاً العلم عبادة القلب ، وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله - تعالى - وكما قال لا تصح الصلاة التي هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن ، وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن جنائب الأخلاق وأنجاس الأوصاف .

والقلب بيت هو منزل الملائكة ، ومهبط أثرهم ، ومحل استقرارهم ، والصفات الرديئة مثل : الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور العلم لا يقذفه الله - تعالى - في القلب إلا بواسطة الملائكة . وقد وردت بذلك الأختار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار .

فإن قلت : كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم ؟ فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة ، الجالب للسعادة ، فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة ، وهل رأيت من يتناول سماً مع علمه بكونه سماً قاتلاً ، إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . فإنما العلم الخشية .

الوظيفة الثانية :

أن يقلل علائقه من الاشتعال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة .

الوظيفة الثالثة :

ألا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم ، بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية في كل تفضيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبى : (صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنها ياابن عم رسول الله - ﷺ - فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكُبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا - ﷺ - (الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم)[1] .

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبر على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب إلا مشهور أو خامل ، وضرواة سباع النار بالجهال بالله - تعالى - أشد من ضراوة كل سبع ، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان .

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[2] .

الوظيفة الرابعة :

أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء ما كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه .

الوظيفة الخامسة :

ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال بالانفكاك عن عداوة وذلك

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب معرفة الصحابة » ذكر مناقب زيد بن ثابت ج ٣ ص ٤٢٣ فقد ورد الحديث عن ابن عباس ، وقال : صحيح الاسناد على شرط مسلم .

(٢) سورة ق الآية : ٣٧ .

العلم بسبب جهله ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى : ﴿ **وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾[١] .

وقال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله – تعالى – أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله – تعالى – .

الوظيفة السادسة :

ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ، ويبتدىء بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة .

الوظيفة السابعة :

ألا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج .

الوظيفة الثامنة :

أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما : شرف الثمرة ، والثاني : وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخرة الحياة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف ، ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة الدليل وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظته الثمرة الأولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين .

وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله – عز وجل – وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة :

أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله – سبحانه وتعالى – والترقي إلى جوار الملأ الأعلى ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران .

---

(١) سورة الأحقاف من الآية : ١١ .

الوظيفة العاشرة :

أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة ، وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان ، فالأهم ما يبقى أبد الآباد ، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً ، والبدن مركباً ، والأعمال سعياً إلى المقصد ، ولا مقصد إلا لقاء الله – تعالى – ففيه النعيم كله .

بيـان وظـائف المرشـد المعـلم

الوظيفة الأولى :

الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله – ﷺ – : (إنما أن لكم مثل الوالد لولده)[١] (أبو داود والنسائي) بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من انقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب .

فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه . ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم ، والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[٢] وداخلون في قوله تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[٣] .

الوظيفة الثانية :

أن يقتدي بصاحب الشرع – صلوات الله عليه وسلامه – فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاءاً ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله – تعالى – وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم ، لأن التقرب إلى الله

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الطهارة » باب « كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة » ج ١ ص ١٨ حديث رقم ٨ عن أبي هريرة بلفظ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم .. الخ » .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٠ .

(٣) سورة الزخرف الآية : ٦٧ .

– تعالى – بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله ، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل : ﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله** ﴾[1].

الوظيفة الثالثة :

ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله – تعالى – دون الرياسة والمباهاة والمنافسة . وقد رؤي سفيان الثوري – رحمه الله – حزيناً فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً .

الوظيفة الرابعة :

وهي من دقائق صناعة التعليم : أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، وينبهك على هذا قصة آدم وحواء – عليهما السلام – وما نهيا عنه فما ذكرت القصة لتكون سمراً ، بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد مزج التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الوظيفة الخامسة :

أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ؛ كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وإن ذلك مجرد سماع ونقل وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه .. فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الوظيفة السادسة :

أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه مالاً يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء في ذلك بسيد العلماء وإمام الأتقياء بسيد البشر – ﷺ – حيث يقول : (نحن معاشر الأنبياء

---

(١) سورة هود من الآية : ٢٩ .

أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم)[١] (أبو داود) وروى أنه قال – ﷺ – : (ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم)[٢] .

الوظيفة السابعة :

إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن الله – سبحانه – في كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن الكريم ولا يحرك عليهم شبهة ، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليها حلها فيشقى ويهلك ، وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الوظيفة الثامنة :

أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سهم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش على الطين ، والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ، ولذلك قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

---

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الأدب » باب « في تنزيل الناس منازلهم » ج ٥ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظ « أنزلوا الناس منازلهم .. وهو من رواية يحيى بن اليمان ، قال أبو داود : حديث يحيى مختصر .
وانظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٢ فقد ورد الحديث بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلم الناس على قدر عقولهم » .
قال العراقي : حديث أبي داود ، وحديث الأتحاف هما حديثان مستقلان وليسا حديثاً واحداً .. الخ (انظر الاتحاف ج ١ ص ٣٤٢) .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾[١] ولذلك كل وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويتقدون به ، ومن سن سنة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علي – رضي الله عنه – قصم ظهري رجلان :

عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه ، والله أعلم .

علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة ، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وقصدي بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعيم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها .

قال – ﷺ – : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه)[٢] .

وعن جابر – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال : (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار)[٣] . (ابن ماجة بإسناد صحيح) .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر – بإسناد جيد – عن النبي – ﷺ – قال : (لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وما ذلك ؟ فقال من الأئمة المضلين)[٤] .

وفي الحديث المتفق عليه عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله – ﷺ – : (يؤتي بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهي عن الشر وآتيه)[٥] .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » الباب السادس في آفات العلم : ج ١ ص ٣٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن رواية لأبي هريرة .

(٣) انظر سنن ابن ماجة « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ حديث رقم ٢٥٤ فقد ورد الحديث عن جابر مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر الحديث ٢٥٩ (المرجع نفسه) فقد ورد الحديث من رواية لحذيفة وهو أقرب للحديث الذي معنا حيث الاختلاف يسير .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٤٥ فقد ورد الحديث من روايتين عن أبي تميم الحبشي لأبي ذر أتى مع اختلاف يسير في الألفاظ .

وانظر اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٣٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والدقائق » باب « عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٩٠ – ٢٢٩١ حديث رقم ٢٩٨٩/٥١ ، فقد ورد الحديث عن أسامة بن زيد مع اختلاف في بعض الألفاظ .

وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله – عز وجل – : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾[١] لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا الله – سبحانه – ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله : ﴿ **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾[٢] : ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[٣] .

وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾[٤] .

فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله – تعالى – فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أي : سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث بالشهوات .

قال عيسى بن مريم : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع .

والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أحسن حالاً ، وأشد عذاباً من الجاهل ، وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة الذين قال الله فيهم : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[٥] .

ولهم علامات ومن علاماتهم :

ألا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العلم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها ، وصفاء نعيمها ، وجلالة ملكها ، ويعلم أنهمامتضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفف الأخرى .

قال عمر – رضي الله عنه – إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب .

وقال مالك بن دينار : قرأت في الكتب السالفة أن الله – تعالى – يقول : إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٥ .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٩ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ – ١٧٦ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم .

وكان يحيى بن معاذ الرازي – رحمه الله – يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم ، قصوركم قيصرية ، وبيوتكم كسروية ، وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآتمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقد وصف الله – سبحانه وتعالى – علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال – عز وجل – في علماء الدنيا : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون** ﴾[1] .

وقال تعالى في علماء الآخرة : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم ..** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾[3] .

وقال تعالى في قصة قارون : ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾[4] فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا .

ومن علامات علماء الآخرة

ألا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء مالم يكن هو أول عامل به قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾[6] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٧ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩ .

(٣) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ – ١٠٩ .

(٤) سورة القصص الآيتان : ٧٩ – ٨٠ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٦) سورة الصف آية : ٣ .

وقال تعالى في قصة شعيب : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله .. ﴾ [(١)].

وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ [(٢)] . ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ [(٣)].

وقال رسول الله – ﷺ – : (مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم : فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه) [(٤)] (أخرجه ابن حبان عن أنس) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عباد الأوثان .

وقال حاتم الأصم – رحمه الله – : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تفصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فمن علامات علماء الآخرة أنهم يقولون ما يفعلون .

ومن علامتهم : أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال .

ومن علاقتهم : أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل ألبتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن

---

(١) سورة هود من الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٢ .

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٨ .

(٤) انظر صحيح ابن حبان « كتاب الإسراء » باب « ذكر وصف الخطباء .. الخ » ج ١ ص ١٣٥ حديث رقم ٣٥ من رواية لأنس بن مالك بلفظ « رأيت ليلة أسرى بي رجالاً تقرض شفاههم بمقارض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمتك ، يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) .
وانظر ص ٣٦٩ من المرجع نفسه فقد ورد الحديث بلفظه .

يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم ، أو بتكلف في كلامه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح ، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت ، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي – ﷺ – قال : (إن أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرأون القرآن ويقولون : نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا)[1] (رواه ابن ماجه ورجاله ثقات) .

وقال سعيد ابن المسيب – رحمه الله – : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة ، لا تغشى أبواب السلاطين ، فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين وكان يقال العلماء إذا علموا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا .

فعلماء الآخرة لا يدخلون على السلاطين ولا يخالطوهم

ومن علاماتهم : ألا يكون سارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقعاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم .

وقد قال الله تعالى : **﴿ ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾**[2].

ولما سئل رسول الله – ﷺ – عن خير البقاع في الأرض وشرها : قال : (لا أدري حتى نزل عليه جبريل – عليه السلام – فسأله فقال : (لا أدري إلى أن أعلمه الله – عز وجل – (إن خير

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ حديث رقم ٢٥٥ عن رواية لابن عباس فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الإسراء آية : ٣٦ .

البقاع المساجد وشرها الأسواق)[١] (أخرجه أحمد والبزار والحاكم وصححه من حديث ابن عمر) .

وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع ، وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان في الفقهاء من يقول : لا أدري أكثر ممن يقول أدري ، منهم : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل ، والفضل بن عياض . وقد كان ابن عيينه يقول : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف العلماء ، وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – إذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد ، وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يقول : سلوا سعيد بن المسيب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة ، وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة ، فإن المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، فإن اليقين هو رأس مال الدين ، عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله – ﷺ – : (اليقين الإيمان كله)[٢] (البيهقي بإسناد حسن) .

وقد قال – سبحانه وتعالى – عن أئمة الدين : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[٣] فوصف علماء الآخرة وأئمة الدين بالصبر واليقين .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله – تعالى – وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع وقد قيل : ماألبس الله عبداً لبسه أحسن من خشوع في سكينة ، فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء ، وأما التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله – تعالى – وشديد سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العنماء ثلاثة : كما قال سهل التستري – رحمه الله – : عالم بأمر الله – تعالى – لا بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام ، وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله – تعالى – لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب العلم » باب « خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق » ج ١ ص ٩٠ فقد ورد عن ابن عمر الحديث بلفظه .

(٢) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ج ٥ ص ٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٧٣ .

عموم المؤمنين ، وعالم بالله - تعالى - وبأمر الله تعالى وبأيام الله - تعالى - ، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم .

وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة ، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه ، وقال عمر - رضي الله عنه - تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم .

وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة .

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - :

لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها ، وأوامرها وزواجرها ، وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ مابين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره وما زاجره ، وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل .

وقيل خمس من الأخلاق هى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله - عز وجل - : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد .

فأما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ **خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾[2] .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾[3] ، وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم** ﴾[4] ، وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً** ﴾[5] .

ولما تلا رسول الله - ﷺ - قوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾

(١) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩٩ .
(٣) سورة الحجر من الآية : ٨٨ .
(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .
(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .

فقيل له : ما هذا الشرح ؟ فقال : (إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال - ﷺ - نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله)[1](أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن سعود) .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسرها . ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر ، فإن أصل الدين التوقي من الشر .

ولأن الأعمال الفعلية قريبة ، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله - تعالى - بالقلب واللسان ، وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه ، وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة .

وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية ، ويتبعون في وضع صور تنقض الدهور ولا تقع أبداً وإن وقعت لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع منهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثاراً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله - سبحانه - ، وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق وجزاؤه من الله ألا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين . وذلك هو الخسران المبين ، ولقد كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأقربهم هدياً من الصحابة - رضي الله عنهم - اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ، والصفات الخفية الغامضة في شهوات النفس ، وقد قيل : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان ، وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله - ﷺ - كانوا يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ، وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وكان حذيفة - رضي الله عنه - أيضاً قد خص بعلم المنافقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة - رضي الله عنهم - يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر - رضي الله عنه - إذا دعى إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر ، فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة ؛ لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله - تعالى - .

(١) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ص ٤٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد .

وعلى الجملة ، فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق ، فإن الحق مر ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر ، ولاسيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ، فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسي الشدائد ليكون فطرة عند الموت .

ومن علامات الآخرة : أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة – رضي الله عنهم – وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم ، أكان في التدريس والتصنيف ، والمناظرة ، والقضاء ، والولاية ، وتولى الأوقاف ، والوصايا ، وأكل مال الأيتام ، ومخالفة السلاطين ، ومجاملتهم في العشرة ، أم كان في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الأثم وجليله ، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن .

وأعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة ، وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . وفي الحديث المشهور (من أحدث في ديننا ماليس منه فهو رد)[1] (متفق عليه) . وقال ابن عباس : الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها قال تعالى : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً** ﴾[3] فكل ما أحدث بعد الصحابة – رضي الله عنهم – مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو .

فهذه علامات علماء الآخرة : ألا يطلب الدنيا بعلمه ، وألا يخالف فعله قوله ، وأن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع ، وأن يبتعد عن مخالطة السلاطين والأمراء ، وألا يكون مسارعاً إلى الفتيا ، وأن يكون اهتمامه بمراقبة القلب ، وأن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، وأن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ، وأن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور . فهذه علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة فيها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين : إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الاقرار به ، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الأقضية » باب « نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور » ج ٣ ص ١٣٤٣ حديث رقم ١٧١٨/١٧ من رواية عن عائشة غير أنه ورد بلفظ « في أمرنا » بدلاً من « في ديننا » .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٧٠ .

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨ .

بدلت آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين ، فنسأل الله – تعالى – أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ، ولا يغره بالله الغرور .

(مختصر من كتاب إحياء علوم الدين ، باب العلم ، للإمام الغزالي) .

تجارة لن تبور

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور** ﴾ .

هذه سوق من أسواق الآخرة إنها تجارة لن تبور ، لأنها مع الله ومثلها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾(١) .

ومثل هذه التجارة أيضاً قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾(٢) .

وهناك أسواق خاسرة نعوذ بالله منها قال الله – تعالى – في شأنها :

﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين** ﴾(٣) وقال : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون** ﴾(٤) .

وقال : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار** ﴾(٥) .

---

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ – ١٣ .

(٢) سورة التوبة الآيات : ١١١ – ١١٢ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٨٦ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٧٥ .

ما أعظم التجارة إذا كانت مع الله ، وما أعظم مصيرها وشأنها لأن ذلك المصير هو الخلود في الجنة ، والتجارة مع الله من وجوه كثيرة .

منها : تلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق سراً وعلناً ، إلى غير ذلك من وجوه لا تحصى ومقامات لا تستقصى ، فمن عاش فيها سلك مدارج الأنوار ، ووقف على حقائق الأسرار ، وعاش في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن هذه تجارة ضمن الله لها الربح وعدم البوار قال تعالى : ﴿ **ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** ﴾ أي : ثوابهم في الآخرة ويزيدهم فوق الثواب من فضله ، فهو صاحب النعم والآلاء ، فقد كانوا في الدنيا رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، حافظوا على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فجزاهم الله أحسن ما عملوا وزادهم من فضله ﴿ **إنه غفور شكور** ﴾ غفور واسع المغفرة يستر العيوب ويفرج الكروب ﴿ **شكور** ﴾ عظيم الشكر يعطى الجزيل ويهب الكثير ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات ، ويقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضي له الحاجات .

قال قتادة : كان مطرف – رحمه الله – إذا قرأ هذه الآية يقول :

هذه آية القراء .

في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

فضيلة القرآن :

قال تعالى : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[2].

وفي الصحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله – ﷺ – :
(أقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه)[3].

---

(١) سورة المزمل من الآية : ٤ .

(٢) سورة ص من الآية : ٢٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « فضل قراءة القرآن وسورة البقرة فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبي أمامة يقول : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « أقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، أقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران .. الخ .

وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله – ﷺ – : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[١] (البخاري) .

وعن أنس قال : قال رسول الله – ﷺ – : (أهل القرآن أهل الله وخاصته)[٢] (أخرجه الحاكم) .

وأما الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : أقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن .

وقال ابن مسعود : أقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول : الم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف .

وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم . وقال أيضاً : من قرأ القرآن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقال أبو هريرة : « إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه القرآن ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين .

وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له أحد حاجة إلا إلى الخلفاء ممن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه .

وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال الحسن : والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة .

(في ذم تلاوة الغافلين)

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه ، وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر . وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون ، وبنهاره إذا

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ج ٦ ص ٢٣٦ فقد ورد الحديث من رواية لعثمان – رضي الله عنه – فقد ورد بلفظه .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٦ ، فقد ورد الحديث عن أنس بلفظ : قال : قال رسول الله – ﷺ – : إن الله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يا رسول الله ، قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » وقال قد روى هذا الحديث عن أنس من ثلاثة أوجه هذا أمثلها.

الناس يفرطون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً .

وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول : ألا لعنة الله على الظالمين ، وهو ظالم لنفسه ، ألا لعنة الله على الكاذبين ، وهو منهم .

آداب التلاوة :

آداب ظاهرة وهى عشرة :

الأول : في حال القاريء : وهو أن يكون على الوضوء ، واقفاً على هيئة الأدب والسكون ، إما قائماً وإما جالساً ، مستقبل القبلة مطرقاً رأسه ، غير متربع ولا متكيء ولا جالس على هيئة التكبر ، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه .

وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال ، فإن قرأ على غير وضوء وكان مضجعاً في الفراش فله أيضاً ولكنه دون ذلك في الأجر . قال الله تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾[١] فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضجعاً .

الثاني : في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار : فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة ، وبعضهم مرتين ، ومنهم من يختم في الشهر مرة ، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول الرسول - ﷺ - : (من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه)[٢] (أصحاب السنن) .

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت ، وأمر النبي - ﷺ - عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (أن يختم القرآن في كل سبع)[٣] (متفق عليه) .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٩١ .

(٢) انظر سنن الترمذي « أبواب القراءات » ج ٤ ص ٢٢٦ حديث رقم ٤٠١٦ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ : « لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » بتقديم لفظه « لم يفقه » .
وانظر الحديث ٤٠٢٠ نفس المرجع ص ٢٦٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « في كم يقرأ القرآن » ج ٦ ص ٢٤٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وكذلك كان جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - يختمون القرآن في كل جمعة كعثمان ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - .

الثالث : في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة - رضي الله عنهم - القرآن أحزاباً . فروى أن عثمان بن عفان كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن الرحيم ويختم ليلة الخميس .

الرابع : في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه .

الخامس : الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن ، فالمقصود من القراءة التفكر ، والترتيل معين عليه ، ولذلك نعتت أم سلمة - رضي الله عنها - .

قراءة رسول الله - ﷺ - فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً[١] (الترمذي حسن صحيح) .

وقال ابن عباس : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة .

وأعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر ، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال .

السادس : البكاء : البكاء مستحب مع القراءة ، فعن سعد ابن أبي وقاص قال :

قال رسول الله - ﷺ -: (اتلو القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا)[٢] (إسناده جيد)

وقال - ﷺ - : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[٣] (البخاري) .

---

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » ج ٤ ص ٢٥٤ باب « ما جاء كيف كانت قراءة النبي - ﷺ - » فقد ورد الحديث رقم ٣٠٩١ من رواية يعلى بن مملك : « أنه سأل أم سلمة زوج النبي - ﷺ - عن قراءة النبي - ﷺ - وصلاته .. الخ » وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن أبي مكيلة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذري باب الترغيب في تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ج ٢ ص ٦١٠ ، ٦١١ فقد ورد الحديث عن سعد بن أبي وقاص بلفظ « إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغنن بالقرآن فليس منا » .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به » ج ٩ ص ١٨٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .. وزاد غيره ويجهر به .

ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء ، فإن ذلك أعظم المصائب .

السابع : أن يراعي حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد ، ويشترط في سجود التلاوة شروط الصلاة في ستر العورة ، واستقبال القبلة ، وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث .

الثامن : أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم .
قال تعالى : **﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾**[1].

وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإذا مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخوف استعاذ ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه ، فيقول : سبحان الله ، استغفر الله ، نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا ، اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله - ﷺ - : كان لايمر بآية عذاب إلا تعوذ ، ولا بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية تنزيه إلا سبح)[2] (مسلم) .

التاسع : في الجهر بالقراءة : ولاشك في أنه لابد أن يجهر له إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولابد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته ، فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ، ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الأسرار ما روى أنه - ﷺ - قال : (فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية)[3] (أبو داود وابن ماجة والترمذي وحسنه) .

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله - ﷺ - عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلى فمره أن يخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلى إن كنت تريد الله - عز وجل - بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا

---

(١) سورة النحل الآية : ٩٨ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » ج ٤ ص ٤٩١ فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « صليت مع رسول الله - ﷺ - فكان لا يمر بأية عذاب إلا استعاذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » .

انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » باب ٢٠ ج ٤ ص ٢٥٢ حديث ٣٠٨٦ ، فقد ورد الحديث عن عقبة بن عامر بلفظ قال ؛ سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الجاهر بالقرآن كالجهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » وقال : هذا حديث حسن غريب .

عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته ، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف ، وهو يومئذ أمير المدينة .

ويدل على استحباب الجهر ما روي في الصحيحين من حديث عائشة : أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله - ﷺ - (رحم الله فلاناً .. الحديث)[1].

فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه ، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته - أيضاً - تتعلق بغيره ، فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف إليه مسمعه ، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله . ولهذا نقول : قراءة القرآن في المصاحف أفضل ، إذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه .

العاشر : تحسين القراءة وترتيلها : بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة .

قال - ﷺ - : (زينوا القرآن بأصواتكم)[2] (أبو داود) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن)[3]. متفق عليه .

وقال : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[4].

وقال - ﷺ - : (من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)[5] أي عبد الله بن مسعود (أخرجه أحمد) .

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » باب « في ظاهر آداب التلاوة » ج ٤ ص ٤٩٣ ، فقد ورد الحديث من رواية عن عائشة .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب « فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٧١ ، فقد ورد الحديث بلفظه من البراء بن عازب بعدة روايات .

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب « التوحيد » باب قول النبي - ﷺ - الماهر بالقرآن مع الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم » ج ٨ ص ١٩٣ ، فقد ورد الحديث عن رواية لأبي هريرة مع اختلاف في بعض ألفاظه » .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى : ﴿ **وأسروا قولكم** .. الخ ﴾ فقد ورد الحديث في ج ٨ ص ١٨٨ من رواية لأبي هريرة . وزاد غيره « ويجهر به » .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٤٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بلفظ « أحب » بدلاً من « أراد » ولم يرد فيه لفظ « طريا » .

واستمع - ﷺ - إلى قراءة أبي موسى فقال : (لقد أوتي هذا من مزامير آل داود)[1] فبلغ ذلك أبا موسى فقال :

(يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً) (متفق عليه) .

وقد كان عمر يقول لأبي موسى - رضي الله عنهما - : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال : يا أمير المؤمنين ، الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة .

في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة : فهم أصل الكلام ، ثم التعظيم ، ثم حضور القلب ، ثم التدبر ، ثم التفهم ، ثم التخلي عن موانع الفهم ، ثم التخصيص ، ثم التأثر ، ثم الترقي ، ثم التبرى .

فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله - سبحانه وتعالى - ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .

الثاني : التعظيم للمتكلم : فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلام الله - عز وجل - غاية الخطر فإنه تعالى قال : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾[2]. وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ، ويقول : هو كلام ربي هو كلام ربي ، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم . ولن تحضره عظمة المتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليه والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته ، أن أنعم فبفضله ، وإن عاقب فبعدله ، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، وهذا غاية العظمة والتعالي فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « حسن الصوت بالقراءة » ج ٦ ص ٢٤١ ، فقد ورد الحديث عن أبي موسى بلفظ : عن أبي موسى أن النبي - ﷺ - قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود .

وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٦ حديث ٢٣٦ فقد ورد الحديث برواية لأبي موسى .

(٤) سورة الواقعة الآية : ٧٩ .

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس وقيل في تفسير قول الله : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾[١] أي : بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن معظم الكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره ، وهو متنزه ومتفرج ، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ، فقد قيل : إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير ورياضاً .

الرابع : التدبر . قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[٢] .

فالتدبر وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن عن نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القراءة التدبر ، ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن ، قال علي – رضي الله عنه – : لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها .

إذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام .

عن أبي ذر قال : (قام رسول الله – ﷺ – بنا ليلة فقام بآية يرددها وهى (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[٣] .

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[٤] .

الخامس : التفهم :

وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله – عز وجل – وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار . أما صفات الله – عز وجل – كقوله تعالى : ﴿ **الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ..** ﴾[٥] فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين .

---

(١) سورة مريم من الآية : ١٢ .
(٢) سورة ص الآية : ٢٩ .
(٣) مسند أحمد ١٤٩/٥ .
(٤) سورة الجاثية الآية : ٢١ .
(٥) سورة الحشر الآية : ٢٣ .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله – عز وجل – إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته فإذا قرأ : ﴿ **أفرأيتم ما تحرثون** ﴾ . ﴿ **أفرأيتم ما تمنون** ﴾ . ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون** ﴾ . ﴿ **أفرأيتم النار التي تورون** ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والكذب والمجادلة كما قال تعالى : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم ..** ﴾[٢].

وأما أحوال الأنبياء فإذا منها أنهم كيف كذبوا وضربوا فليفهم منه صفة الاستغناء لله – عز وجل – فلو أنه أهلك جمعهم لم يؤثر فى ملكه شيئا وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله – عز وجل – وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهم منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية .

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

السادس : التخلى عن موانع الفهم .

فإن أكثر الناس منعوا عن فهم لأسباب وحجب اسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب القرآن .

وحجب الفهم أربعة : أولها أن يكون الهم منصرف إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى القرآن فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف .

ثانيا : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) سورة يس الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .

الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصره ومشاهده فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه الشيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد شيوخك وآبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله .

ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الاكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تحلى المعنى فيه ، فالقلب مثل المرآة والشهوة مثل الصداء ومعانى القرآن مثل الصور تتراءى فى المرآة ، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة .

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا وأعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل وحسب وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضا من الحجب العظيمة .

السابع : التخصيص .

وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن يعتبر به . ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[١].

وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض .

وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى : ﴿ **هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾[٢].

الثامن : التأثر . وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا

---

(١) سورة يوسف الآية : ١١١

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط - ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[2]. ذكر أربعة شروط حيث أقتصر ذكر شرطا خاصا فقال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[3]. فالاحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حالة الخشية والحزن ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه ، وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته .

ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود اقرأ على قال : فافتتحت بسورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[4] رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لى : حسبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية .

التاسع : الترق

وأعنى به أن يترق إلى أن يسمع الكلام من الله – عز وجل – لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله – عز وجل – واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال . الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله – عز وجل – يراه ويخاطبه بالطافة ويناحيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم .

الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم وفى الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصورا الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مُستغرق بمشاهدة المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره .

وهذه درجة المقربيين وقبلها درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذه الدرجات فهو درجات الغافلين .

العاشر : التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله – عز وجل – بهم . وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا واشفاقا .

(مختصر من إحياء علوم الدين باب فصل قراءة القرآن وأدابه الظاهرة والباطنة)

---

(١) سورة طه الآية : ٨٢

(٢) سورة العصر الآيات : ١ – ٣

(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٦

(٤) صحيح البخارى – فضائل القرآن : ٦ / ٢٤١

وعد وعيد

قال تعالى :

وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

تفسير المفردات

﴿ **أورثنا الكتاب** ﴾ اعطيناه بلا تعب ولا مشقة كما يعطى الميراث ، ﴿ **اصطفينا** ﴾ : اخترنا واشتقاقه من الصفو وهو الخلوص من شوائب الكدر ، ﴿ **ظالم لنفسه** ﴾ الظلم تجاوز الحد ، ﴿ **مقتصد** ﴾ : متوسط ، ﴿ **سابق بالخيرات** ﴾ سبق غيره وبده يعمل الخير ، ﴿ **أساور** ﴾ : جمع اسورة وهى حلية تلبس في اليد ، ﴿ **كفور** ﴾ : كثير الكفر ، ﴿ **يصطرخون** ﴾ : يستغيثون في النار بصوت عال ، والصراخ الصوت العالي والصارخ والمستغيث والمصرخ المغيث ، ﴿ **نعمركم** ﴾ : نجعلكم تعمرون .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، مقتصد ، سابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين وأنهم يدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأنهم يحلون فيها من أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ويقولون حينئذ ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور** ﴾ ، ويقولون إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب ، وبعد أن بين مالعباده الذين أورثوا الكتاب من النعم في دار السرور التي قال في مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها هجر مسته سراء

أردف ذلك ذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وجور لا يدوم .

وبعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويرفع العذاب عنهم أردف ذلك بيان أنه محيط بالأشياء علما فلو كان لهم نصير في وقت ما لعلمه .

إلا أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والذى أوحينا إليك من الكتاب** ﴾ المقصود بالذى أوحينا إليك هو القرآن العظيم والخطاب هنا موجه إلى الرسول الكريم ﷺ هو الحق مصدقا لما بين يديه وذلك لقوله تعالى : ﴿ **الله لا اله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان** ﴾[1].

وكقوله جل شأنه : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ٢ - ٤ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨

والقرآن حق مطلق وصدق مطلق قال تعالى : ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ **وكذب به قومك وهو الحق** ﴾[٢].

وقال جل شأنه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ .

أى : عالم بدقائق الأشياء بصير مطلع على ماتكنه الصدور فقد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ .

فى هذه الآية إخبار منه – عز وجل – عن القائمين بهذا الكتاب الذين شرفهم الله – تعالى – بحمل الرسالة حيث قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ .

وكفى باصطفاء الله لهم شرفا وقدرا ومجدا ونبلا وبرا وفضلا .

ثم قسمهم تعالى إلى ثلاثة أقسام حيث قال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾[٤]. قال : هم أمة – محمد ﷺ – ورثهم الله – تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وروى أبو القاسم الطبرانى بسنده عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : ﴿ **شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى** ﴾[٥].

قال ابن عباس – رضى الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ .

---

(١) سورة الاسراء الآية : ١٠٥
(٢) سورة الأنعام الآية : ٦٦
(٣) سورة الزمر الآيتان : ١ ، ٢
(٤) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨
(٥) المعجم الكبير للطبرانى ١١ / ١٨٩ رقم ١١٤٥٤

﴿ مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿ **الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب** ﴾[(١)].

وروى الحافظ أبو القاسم بسنده عن أسامة بن زيد – رضى الله عنهما – (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) الآية

قال : قال رسول الله ﷺ (كلهم من هذه الأمة)[(٢)]

وروى ابن جرير بسنده عن أبى مسعود – رضى الله عنه – قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله – عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم – تبارك وتعالى – فتقول الملائكة هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئا فيقول الرب عز وجل أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله – رضى الله عنه – هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾[(٣)].

وروى أبو داود الطيالسى عن عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة – رضى الله عنها – اعن قول الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية** ﴾ فقالت لى : يابنى هؤلاء فى الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم قال فجعلت نفسها معنا وهذا منها – رضى الله عنها – من باب الهضم والتواضع وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها فى النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على يعنى الباقر – رضى الله عنهما – عن قول الله تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ فقال : هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام فى هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة فإنهم كما قال الإمام أحمد – رحمه الله – حدثنا محمد بن يزيد حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء – رضى الله عنه –

---

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٨

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ١ / ١٣١ رقم ٤١٠

(٣) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨

(٤) مسند أبو داود الطيالس ٦ / ٢٠٩ رقم ١٤٨٩

وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أى أخى قال حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال لا قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم قال رضى الله عنه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سلك طريقا يطلب فيها علما سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وأنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر[١]، وقد تقدم فى أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان ولا أبالى ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ أى : ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم لا يقدر قدره .

وبعد ذلك جاء بيان ذلك الفضل مفصلا فى قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ المقصود بعدن الإقامة يدخلونها يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين .. ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا** ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال (تبلغ الحلية من المؤمن من حيث يبلغ الوضوء) ، وذلك كما فى قول تعالى : ﴿ **إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ لأنهم امتثلوا لأمر الله فى الدنيا فلم يلبسوه لأنه كان محظورا عليهم فالبسهم الله تعالى إياه فى الجنة وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (من لبس

---

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٦

(٢) سنن أبى داود – كتاب العلم – باب الحث على طلب العلم ، وتحفه الأحوذى كتاب العلم أيضا – باب فى فضل الفقه على العبادة ٤٥٠/٧ رقم ٢٨٢٢ وسن أبى ماجة المقدمة – باب فى فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨١/١ رقم ٢٢٣

(٣) سورة الكهف الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة وقال هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة) . قال تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[١].

لا تركنـــن إلى الـــقصور الفاخـــرة   واذكـــر عظـــامك حين تمسى ناخـــرة
وإذا رأيت زخـــارف الدُنيـــا فقـــل   يارب إن العـــــيش عيش الآخرة

روى ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : إن أبا أمامة – رضى الله عنه – حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة وعليهم تاج كتاج الملوك شباب جرد مرد مكحولون »[٢].

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن** ﴾ أى ماكنا نحذره من الهموم والخوف وما من شك فى أن هذه نعمة ما تدانيها نعم بعد الإيمان بالله ورسوله قال تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل أمرىء بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾[٣]. وقد قالوا أيضا فى موضع آخر : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾[٤] وإنما جاء الحق هنا وفى هذا المقام بالذات لأن فيه القضاء يقتضى الحمد لذا جاءت سورة الأنعام بعد سورة المائدة لأن فى آخر المائدة فصل القضاء وفى أول الأنعام الحمد قال تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير** ﴾[٥] ثم قال تعالى فى أول سورة الأنعام : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض** ﴾[٦] وهنا حمدوا الله الذى أذهب عنهم الحزن وقضى لهم بالجنة ونعيمها .

---

(١) سورة الحج الايتان ٢٣ ، ٢٤
(٢) الدر المنثور للسيوطى ٢٦/٧ طبعة دار الفكر
(٣) سورة الطور الآيات : ١٧ – ٢٨
(٤) سورة الزمر الآية : ٧٤
(٥) سورة المائدة الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠
(٦) سورة الأنعام الآية : ١

وفى سورة الأعراف يقول تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾[1]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)[2].

قوله تعالى : ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ قال ابن عباس وغيره غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات .

قوله تعالى : ﴿ **الذى أحلنا دارا المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ .

وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد لله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات والأرض وملء ما فيهما وملء ما شاء من شىء بعد لقد أدخلهم دار المقامة الدائمة من فضله لا بأعمالهم فإن الأعمال مهما عظمت وكثرت فإن نعمة الجنة والإقامة فيها نعمة لا تدانيها الأعمال وكثرتها ولذلك فإنهم يدخلونها بفضل الله ويتقاسمون درجاتها بأعمالهم قال تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾[3] .

جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة) قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال (ولا أنا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة منه وفضل) ومن نعم الله تعالى عليهم فى دار الخلد أنهم لا يمسهم فيها نصب أى إعياء ولا لغوب أى تعب والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم أى لا يمسنا فيها أى نصب ولا أى لغوب قليلا كان أم كثيرا ، لقد ولت الدنيا بهمومها وكربها وهم الآن فى دار السلام ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم** ﴾[5].

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا – به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾[6] .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ ، ٤٣

(٢) الكامل لابن عدس ١٥٨٢/٤

(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٩

(٤) البخارى – كتاب الرقاق – باب القصد والمداومة على العمل ١٢٣/٨
ومسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ١٣٩/٨ رقم ١٤٠

(٥) سورة يس الآيات :

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٥

لا تركـنـن إلى الدنيـا ومـا فيهـا فالموت لاشـك يفنينـا ويفنيهـا
طوأعمـل لدار غـدا رضـوان خازنهـا والجـار أحمـد والرحمـن ناشيهـا
قصـورهـا ذهـب والمسـك طينتهـا والزعفـران حشيش نابـت فيهـا

قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ .

هذا وعيد يأتى بعد الوعد وفيه بيان الحال الأشتياق ﴿ **الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار** ﴾[(١)] .

وجاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ وقال : ﴿ **أما أهل النار الذى هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون** ﴾[(٢)].

وقال عز وجل : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقضى علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئتاكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾[(٣)] فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك قال الله تعالى : ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ كما قال : تعالى ﴿ **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾[(٤)] وقال سبحانه : ﴿ **كلما خبت زدناهم سعيرا** ﴾[(٥)] وقال : ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾[(٦)].

قوله تعالى : ﴿ **كذلك نجزى كل كفور** ﴾ هذا منطق العدالة الإلهية أى : نجزى هذا الجزاء كل كفور جحود فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئا**

---

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٢٨ – ٣٠
(٢) صحيح مسلم – كتاب الايمان – باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار ١٧٢/١ رقم ١٨٥ وابن ماجه فى الزهد – باب ذكر الشفاعة ١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٩
(٣) سورة الزخرف الآيتان : ٧٧ ، ٧٨
(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ – ٧٦
(٥) سورة الاسراء الآية : ٩٧
(٦) سورة هم الآيات : ٢١ – ٣٠

ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[١] ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٢] ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٣] ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾[٤] ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٥]. ثم يبين الله حالهم فى النار فقال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[٦] إنهم يستغيثون يقولون : ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ﴾ ولكن هيهات لقد كنتم فى الدنيا لاهين عابثين وكانت الدنيا دار عمل ولا حساب أما الآخرة فدار حساب ولا عمل قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾[٧].

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة

---

(١) سورة يونس الآية : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية : ١١١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٠

(٥) سورة الزخرف الآية : ٧٦

(٦) سورة الكهف الآية : ٢٩

(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾[١].

وقال جل شأنه : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ **وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾[٣].

وهنا يقول لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ أى لقد أعطيناكم العمر فى الدنيا بحيث من أراد أن يتذكر كان له ذلك ولكنكم اتخذتم الدنيا لهوا ولعبا وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ﴿ **فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ وقد جاءكم النذير وأرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم وأنزلنا إليكم كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم فذوقوا جزاء ما قدمت أيديكم فما للظالمين من نصير ولا معين ﴿ **هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع بعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير** ﴾[٤].

ثم يثبت الله تعالى علمه الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض فيقول سبحانه : ﴿ **إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور** ﴾ . فلا أحد يعلم الغيب إلا الله : ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾[٥] فقد علم ماكان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

قال تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين وهو الذى**

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٣١

(٢) سورة الحج الآيات : ١٩ - ٢٢

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٣ - ٢٠

(٥) سورة النمل الآية : ٦٥

يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون ﴾[١].

بل إن علمه قد بلغ ما هو أدق وأعمق أنه عليم بذات الصدور وما تنطوى عليه النفوس ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ وقد علم ما انطوت عليه صدور هؤلاء من الجحود والكفر لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا .

﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم وأستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرار ﴾[٢].

مواقف وعبر :

قال تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) سورة نوح الآيات ٥ – ٩ .

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

معانى المفردات :

﴿ **خلائف** ﴾ : جمع خليفة . ﴿ **مقتا** ﴾ : غضبا شديدا . ﴿ **شرك** ﴾ : شركة . ﴿ **غرورا** ﴾ : باطلا . ﴿ **نزولا** ﴾ : من الزوال أى يمنعهما منه . ﴿ **جهد أيمانهم** ﴾ : طاقتها وغايتها . ﴿ **نفورا** ﴾ : أعراضا وتباعدا عن الهدى . ﴿ **يحيق** ﴾ : يحيط . ﴿ **ينظرون** ﴾ : ينتظرون . ﴿ **ليعجزه** ﴾ : ليسبقه ويفوته .

المناسبة وإجمال المعنى :

بعد ما بين – سبحانه – أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ماهو فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم . أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض ﴿ **فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا** ﴾ ثم أكد هذا بأمره ﷺ أن يقول لهم ما يضطرهم إلى الإعتراف بوحدانيته وعدم اشراك غيره معه ، وبعد أن ذكر – سبحانه – تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام ، وبكتهم على هذا أشد التبكيت ، وضرب لهم الأمثال ، ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ، أردف ذلك ذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ، ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا فقالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، ثم هددهم بان عاقبتهم ستكون الهلاك الذى لا محيص عنه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم وسنته لا تبديل فيها ولا تحويل ثم نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من أثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمين ، فقد خلت منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراده .

ثم ذكر حلمه بعباده وإنه لو آخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

التفســـير :

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض** ﴾ أى يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبليهم كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾[١].

وقوله تعالى : ﴿ **فمن كفر فعليه كفره** ﴾ أى فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ولن يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا .

﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا** ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيامة ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾[٢].

وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارؤه رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله أن يقول للمشركين : ﴿ **أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله** ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ **أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أى ليس لهم شىء من ذلك ما يملكون من قطمير كما قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾[٣]. وكقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[٤]. وكقوله تعالى فى أول هذه السورة التى بين أيدينا ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير * وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس**

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

(٣) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه** ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟

كما قال تعالى ﴿ **أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾[٢]. ﴿ **بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا** ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم وهى غرور وباطل وزور .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا** ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة والماسكة لهما فقال : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عز وجل : ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾[٣]. وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ **ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ أى ما أمسكهما من أحد من بعده ، لايقدر على دوامهما وابقائهما الا هو . وهو مع ذلك حليم غفور أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال : ﴿ **إنه كان حليما غفوراً** ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾[٥].

وقد جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٦].

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة الصافات الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) سورة الحج الآية : ٦٥

(٤) سورة الروم الآية : ٢٥

(٥) سورة سبأ الآية : ٩

(٦) مسلم – كتاب الايمان – باب قوله عليه السلام :

« إن الله لاينام .. ١٦/١ رقم ١٧٩ وقد أخرجه ابن ماجه فى المقدمة – باب انكرت الجهمية ٧١/١ رقم ١٩٦ والامام أحمد فى مسنده ٤٠٠/٤ – ٤٠١

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون * هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[1].

ومثله قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ﴾[2] وفى الآية إخبار منه سبحانه وتعالى عن هؤلاء الجاحدين المعاندين الذين أقسموا بالله طاقة الأيمان وأغلظها إن جاءهم نذير وبعث فيهم نبى ليكونن أهدى من أى أمة بعث فيها نبى فلما جاءهم نذير وهو محمد ﷺ برسالته الخاتمة ما زادهم ذلك إلا نفورا وشرودا عن الحق ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾[3].

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٥٦ - ١٥٩

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٦٧ - ١٧٠

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣١ - ٣٨

كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[١] تلك مواقفهم وهذا عنادهم كما قال تعالى : ﴿ **استكبارا فى الأرض ومكر السوء** ﴾ استكبارا عن قبول الحق : إنهم يغمطون الناس ويبطرون الحق ويمكرون بالمؤمنين مكر السوء ﴿ **ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾[٢] ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله** ﴾ أى وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

قال محمد بن كعب القرطبى : ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به من مكر أو بغى . أو نكث وتصديقها فى كتاب الله تعالى ﴿ **ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله** ﴾ ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾[٤] ﴿ **ومن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾[٥].

وقوله عز وجل : ﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأولين** ﴾ يعنى عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره كما قال تعالى : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون * قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[٦]

قوله تعالى : ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل بل هى جارية فى كل مكذب ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ أى : تحولا ولا يكتشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد كما قال تعالى : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾[٧]. وكما قال تعالى : ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم**

---

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٢) سورة النمل الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٦

(٤) يونس الآية : ٢٣

(٥) الفتح الآية : ١٠ .

(٦) سورة الأنعام الآيتان : ١٠ - ١١ .

(٧) سورة الرعد الآية : ١١

عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أويلبسكم شيعا * ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها * فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور ﴾(٢) وقوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجآءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون ﴾(٣).

وقوله تعالى فى سورة غافر : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾(٤).

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾(٥).

وقوله تعالى فى سورة الأحقاف : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٦٣ – ٦٥

(٢) سورة الحج الآية : ٤٦

(٣) سورة الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٤) سورة غافر الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٥) سورة غافر الآيات : ٨٢ – ٨٥

يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾(١).

وقوله تعالى فى سورة محمد : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافروين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾(٢).

فقل لهؤلاء يا محمد أولا تأخذون عبرة من الأمم السابقة وإنكم تمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون اقعدوا ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

﴿ **أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾(٣).

لقد دمر الله عليهم وما كان الله ليعجزه من شىء أى شىء واللام هنا لام الجحود لأنها مسبوقة بكون منفى وهذا يفيد أن الله تعالى صاحب السلطان الأعلى هو القاهر فوق عباده ﴿ **إنه كان عليما قديرا** ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض إذ هو خالقهما لا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ، علم كل شىء وهو القادر على كل شىء .

قوله تعالى : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾ على هذا منطق العدل ﴿ **ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾ هذا منطق الفضل فإن يعاقب فبمحض العدل وإن يثب فبمحض الفضل إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . (**إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**)(٤) .

ومثل الآية قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾(٥).

فاللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك بإحسانك ولا تعاملنا بميزانك وعاملنا بما أنت أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ولا تعاملنا بما نحن أهله فكل ابن آدم خطاء .

---

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٦

(٢) سورة محمد الآيتان : ١٠ ، ١١

(٣) سورة القمر الآيات : ٤٣ - ٤٦

(٤) البخارى - كتاب التفسير - سورة هود - باب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ٩٤/٦ ومسلم - كتاب البر و الصلة - باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم ٢٥٨٣

(٥) سورة النحل الآية : ٦١

سورة يس

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاجماع عدد آياتها ثمانون وثلاث آيات عند الكوفيين

وكلماتها سبعمائة وتسع وعشرون ... وحروفها ثلاثة آلاف .

وللسورة اسمان : سورة يس لافتتاحها

وسورة حبيب النجار لاشتمالها على قصته .

مقصود السورة :

تأكيد أمر القرآن والرسالة وإلزام الحجة على أهل الضلالة وضرب المثل فى أهل أنطاكية وذكر حبيب النجار وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة وإبداء الليل والنهار وسير الكواكب ودور الأفلاك وجرى الجوارى المنشآت فى البحار وذلة الكفار عند الموت وحيرتهم ساعة البعث وسعد المؤمنين المطيعين وشغلهم فى الجنة وميز المؤمن من الكافر فى القيامة وشهادة الجوارح على أهل المعاصى بمعاصيهم والمنة على الرسول ﷺ بصيانته من الشعر ونظمه وإقامة البرهان على البعث ونفاذ أمر الحق فى كن فيكون وكمال ملك ذى الجلال على كل حال فى قوله : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى** ﴾ سبق فى سورة القصص .

قوله ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ مرتين ليس بتكرار لأن الأولى هى النفخة التى يموت بها الخلق ، والثانية التى يحيا بها الخلق .

قوله : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ وكذلك فى مريم ولم يقل : ﴿ **من دونه** ﴾ كما فى الفرقان بل صرح كيلا يؤدى إلى مخالفة الضمير قبله فإنه فى السورتين بلفظ الجمع تعظيما وقد سبق فى الفرقان .

قوله : ﴿ **فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون** ﴾ وفى يونس : ﴿ **ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا** ﴾ تشابها فى الوقف على (قولهم) فى السورتين لأن الوقوف عليه لازم (وإن) فيها مكسور الابتداء بالحكاية ومحكى القول محذوف ولا يجوز الوصل لأن النبى ﷺ منزه من أن يخاطب بذلك .

قوله : ﴿ **وصدق المرسلون** ﴾ وفى الصافات . ﴿ **وصدق المرسلين** ﴾ ذكر فى المتشابه وما يتعلق بالإعراب لايعد من المتشابه .

وجه اتصالها بما قبلها :

وذلك من وجوه .

١ – لما جاء فى السورة السالفة قوله : ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ وقوله : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير** ﴾ وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

٢ – أنه قال فيما قبلها : ﴿ **وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ وقال فى هذه : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها** ﴾ وقال : ﴿ **والقمر قدرناه منازل** ﴾ .

٣ – ورد فى كلتا السورتين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار ففى سورة فاطر ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها** ﴾ وفى سورة يس : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون** ﴾ . **وفى سورة فاطر يقول تعالى** : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا** ﴾ . وفى سورة يس : ﴿ **هذه جهنم التى كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

معانى المفردات :

﴿ **يس** ﴾ يرى كثير من المفسرين أنها من الحروف الهجائية التى افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم ، وروى عن أبى عباس – رضى الله عنهما – وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عنينة ان

يس بمعنى يا إنسان . ﴿ **والحكيم** ﴾ أى : ذى الحكمة ، ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أى : طريق قويم ، من عقائد صحيحه ، وشرائع حقه ، ﴿ **حق** ﴾ أى : ثبت ووجب ، ﴿ **الأغلال** ﴾ واحدها غل ، وهو ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ﴿ **والمقمح** ﴾ الذى يرفع رأسه ويغض بصره .

قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . ﴿ **من بين أيديهم** ﴾ أى : من أمامهم ، ﴿ **فاغشيناهم** ﴾ أى : فغطينا أبصارهم ، ﴿ **والذكر** ﴾ القرآن ، ﴿ **خشى الرحمن** ﴾ أى : خشى عقابه ، ﴿ **بالغيب** ﴾ أى : قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ماقدموا : أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ،وآثارهم : أى : ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علموه ، أو كتاب ألفوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات كغرس بذور الضلالات بين الناس ، ﴿ **فى إمام مبين** ﴾ أى : فى أصل يؤتم به .

التفسـير :

قوله تعالى : ﴿ **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين** ﴾ هذا قسم منه – سبحانه عز وجل – بالقرآن الحكيم ولله تعالى أن يقسم بما شاء لكن لا يجوز للعبد أن يحلف إلا بالله ، وله إذا أقسم بالله – تعالى – أن يكون صادقا فى قسمه وألا يقسم إلا إذا دعت الضرورة لذلك ، والله تعالى يقسم بالقرآن الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وعلى أى شىء يقسم مولانا ؟ يأتى جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ هكذا مؤكدا بـ ﴿ **إن** ﴾ و ﴿ اللام ﴾ وفى القسم وجوابه رد على كل كفار أثيم ، ورد على المنكرين لنبوة خير الأنام ﷺ والذى قال له ربه فى التوارة كما قال له فى القرآن : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر)

ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

قوله تعالى : ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ وكما جاء فى قوله – عز وجل : ﴿ **قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر**

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٥٣

وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ **حم – تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾[٢]. وكما قال سبحانه : ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾ يعنى بهم العرب فإنه ما آتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفى من عدائهم لقوله سبحانه : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[٤] ولقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٥].

قوله تعالى : ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم** ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون (فهم لا يؤمنون) بالله ولا يصدقون رسله .

قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾

قال العوفى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – فى قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون** ﴾ قال هو كقوله عز وجل : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾[٦] يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ قال رافعى رءوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير .

قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا** ﴾ قال مجاهد عن الحق ﴿ **ومن خلفهم سدا** ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون وقال قتادة : فى الضلالات .

---

(١) الأنعام الآيات : ١٦٣ – ١٦٥

(٢) سورة فصلت الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٦) سورة سراء الآية : ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ **فأغشيناهم** ﴾ أى أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ **فهم لا يبصرون** ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ! جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه وقرأ : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[1] ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن فأنزلت : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا – إلى قوله – فهم لا يبصرون** ﴾ قال وكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو ؟ لايبصره ، وروى أنه – ﷺ – خرج من داره مهاجرا وفى يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يدرها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم حتى انتهى إلى قوله تعالى وجعلنا من بين آيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشناهم فهم لا يبصرون) ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك من الدار فقال مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمدا قال : قد خرج عليكم فما بقى منكم من رجل الا وضع على رأسه ترابا ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب .

قوله تعالى : ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ أى : قد ختم الله عنيهم بالضلالة فما يفيد فيهم الانذار ولا يتأثرون به كما قال سبحانه : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر** ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم ﴿ **وخشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله – تبارك وتعالى – يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل كما قال تعالى : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾[3] قوله تعالى : ﴿ **فبشره بمغفرة** ﴾ أى لذنوبه ، ﴿ **وأجر كريم** ﴾ أى : كثير واسع .

كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾[4] وكما فى قوله سبحانه : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن**

---

(١) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة الملك الآية : ١٢

بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾[١].

ثم قال سبحانه : ﴿ **إنا نحن الموتى** ﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه اشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب فى سورة الحديد : ﴿ **اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **ونكتب ما قدموا** ﴾ أى : من الأعمال ، وفى قوله تعالى ﴿ **وآثارهم** ﴾ قولان (أحدهما) نكتب أعمالهم التى بأشروها بأنفسهم وآثارهم التى اثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضا إن خيرا فخير وإن شرا فشر كقوله ﷺ (من سن فى الاسلام سنة حسنة كان له اجرها واجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من اوزاهم شيئا . رواه مسلم[٣]

وروى مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده)[٤].

(والقول الثانى) ان المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية قال مجاهد : (ما قدموا) أعمالهم ﴿ **وآثارهم** ﴾ قال خطاهم بأرجلهم وكذلك قال الحسن وقتاة .

وقد وردت فى هذه المعنى أحاديث منها .

أخرج الأمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد) قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال – ﷺ – يابنى سلمة (دياركم تكتب اثاركم دياركم تكتب اثاركم)[٥] رواه مسلم أى : الزموا دياركم تكتب آثاركم .

وأخرج الأمام أحمد بسنده عن عبد الله عمرو – رضى الله عنهما – قال : توفى رجل بالمدينة فصلى عليه النبى ﷺ وقال « ياليته مات فى غير مولده فقاا، رجل من الناس ، ولم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة »[٦].

---

(١) سورة ق الآيات : ٣١ – ٣٥
(٢) الحديد الآية : ١٧
(٣) مسلم – كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق ثمرة أو كلمة طيبة وإنها حجاب من النار ٣ – ٧٠٥ رقم ١٠١٧
(٤) مسلم – كتاب الوصية – باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته ١٢٥٥/٣ رقم ١٦٣١
(٥) مسند الامام أحمد ٣ / ٣٣٢
(٦) مسند الامام أحمد ٧٧/٢ ورواه النسائى – كتاب الجنائز

وهذا القول لاتنافى بينه وبين الأول بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلان تكتب تلك التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾ أى وجميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ (والأمام المبين) قال مجاهد وقتادة وغيرهما : هو أم الكتاب قال تعالى : ﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[2] .

أصحاب القرية مع رسلهم

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ *

(١) سورة القمر الآيتان : ٥٢ – ٥٣
(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩
(٣) سورة التحريم الآية : ١٠
(٤) سورة الجاثية الآيات : ٢٧ – ٢٩

معانى المفردات :

﴿ **ضرب المثل** ﴾ : يستعمل تارة تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما فى قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا للذين كفروا إمرأة نوح** ﴾ الآية ويستعمل أخرى فى ذكر حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : ﴿**وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أى وبينا لكم أحوالا غاية فى الغرابة كالأمثال والقرية : قيل أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة . ﴿ **فعززنا** ﴾ أى : فقوينا وشددنا ، ﴿ **البلاغ المبين** ﴾ أى : التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ، ﴿ **تطيرنا** ﴾ أى : تشاء منا ، ﴿ **لنرجمنكم** ﴾ : أى : لنرميكم بالحجارة ، ﴿ **طائركم** ﴾ : أى : سبب شؤمكم ﴿ **مسرفون** ﴾ : أى يجاوزون الحد فى العصيان ، ﴿ **أقصى المدينة** ﴾ أى : أبعد مواضعها ، ﴿ **يسعى** ﴾ : أى : يعدو ويسرع ، ﴿ **لاتغن** ﴾ : أى : لاتنفع ، ﴿ **ولا ينقذون** ﴾ : أى : لا يخلصونى . ﴿ **من جند من السماء** ﴾ جند السماء ملائكة الوحى أو ملائكة تنزل بالعذاب ﴿ **خامدون** ﴾ : ميتون وهامدون كالرماد الخامد .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون – اردف ذلك ذكر مثل لقوم حالهم كحالهم فى الغلو فى الكفر والاصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن سماع الوعظ والارشاد ، وهو أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله كقصص قومك معك ، فى العناد والاستكبار والعتو والطغيان .

التفسـير :

قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون** ﴾ يقول تعالى : واضرب لهم يا محمد أى لقومك الذين كذبوك وجادلوك اضرب لهم مثلا وهو شأن أصحاب القرية وحالهم العجيبة مع رسلهم الذين أرسلوا إليهم والذين جاء تفصيلهم فى قوله تعالى : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث** ﴾ أى : قويناهما بثالث فلما ذهب الثلاثة إليهم قالوا : إنا إليكم مرسلون والمقصود بالقصة مغزاها ومعناها ومرواها لذا فإن القرآن لا يعول على الأسماء ، حتى يكون هناك تركيز على المغزى والمعنى . فماذا قال له أصحاب القرية ؟ ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ وتلك كلمة جاءت على السنة المكذبين من قبلهم فقد قيل فى شأن نوح : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[1] وجاء فى شأن هود وصالح مع عاد وثمود قوله تعالى : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[2] .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٢٣ – ٢٥

(٢) سورة فصلت الآيتان : ١٣ ، ١٤

وجاء فى شأن غيرهم من الأنبياء قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ .

﴿ **وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى وقالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[١].

وجاء فى سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾[٢].

وجاء فى شأن خاتم الأنبياء ﷺ ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا** ﴾[٣].

وقوله : ﴿ **وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا** ﴾[٤] فانظر كيف اتحدت كلمة الباطل على ألسنتهم مع بعد الزمان أو المكان . ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾ ولذا قال تعالى : ﴿ **أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[٥] وكأن البشرية أصبحت تهمة توجه إلى الأنبياء ، ألم يعلم هؤلاء المكذبون أن الله تعالى جعل الأنبياء بشرا حتى يكونوا على دراية بأحوال البشر ، وحتى يقفوا من مشاكل البشرية موقف الاصلاح فى نور الوحى يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعملون وينامون ويمرضون ولو كانوا ملائكة لكانوا بمعزل عن طباع البشر لذا قال تعالى : ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾[٧].

---

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٩ — ١١
(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٣١ — ٣٧
(٣) سورة الاسراء الآية : ٩٤
(٤) سورة الفرقان الآيات : ٧ — ٩
(٥) سورة فصلت الآية : ٤٣
(٦) سورة الذرايات : ٥٣ — ٥٥
(٧) سورة الاسراء الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

وقال ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلنا رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[1]

وهؤلاء القوم الذين هم أصحاب القرية تمادوا فى عنادهم حتى قالوا لرسل الله : ﴿ وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم ألا تكذبون ﴾ لقد انكروا الرسالة من أصلها ورموا صدق البشر بالكذب والكذب رذيلة من أحط الرذائل إذ هى أصل كل ذنب .

فماذا قال الرسل ، زادوا الأمر توكيدا : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ فأسندوا إرسالهم إلى علم الله ، وعلم الله لا يقبل الجدل ، فعلمه حقيقة وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية ، كذلك أكدوا الأسلوب بـ (إن) و (اللام) المؤكدة ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ ثم بينوا لهم مهمة الرسل فقالوا : ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾[2] وكما قال سبحانه ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ ﴾[3] فماذا قال القوم لرسلهم بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

قال قتادة المقصود بذلك : إنا اصابنا شر فإنما هو من أجلكم وقال مجاهد يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ، وكما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[4].

ثم أوعدوا الرسل وهددوهم قائلين : ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ أى : تكفوا عن قولكم هذا ﴿ لنرجمنكم ﴾ أى : بالحجارة ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وهذا شرح للرجم كما قال قوم شعيب له ﴿ يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾[5] وكما قال آزر لأبنه إبراهيم : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾[6].

فماذا قال الرسل ؟ لقد قالوا لهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ طائركم معكم ﴾ أى : مردود عليكم ولسنا سببا فى هذا التشاؤم لأننا مؤمنون بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٨ - ١١
(٢) سورة النور الآية : ٥٤
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣١
(٤) سورة هود الآية : ٩١
(٥) سورة مريم الآية : ٤٦

وقوله تعالى : ﴿ **أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أى : أئن ذكرتم بتوحيد الله والايمان به وبرسله أعرضتم ورميتمونا بما ليس فينا بل أنتم قوم مسرفون على أنفسكم بالذنوب والخطايا .

قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * إتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغنى عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ .

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة قال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك جاءهم يسعى أى : لينصرهم من قومه .

﴿ **قال ياقوم اتبعوا المرسلين** ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجراوهم مهتدون** ﴾ أى : إبلاغ الرسالة ، وتلك رسالات الأنبياء جميعا لا يسألون الناس على تبليغها أجرا ، إقرا معى ما جاء فى سورة الشعراء : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[1].

وهكذا جاء على لسان هود وصالح ولوط وشعيب وفى شأن المرسلين يقول تعالى فى سورة سبأ ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو كل شىء شهيد** ﴾[2] وهذا دليل من أدلة صدق النبوة لا يسألون الناس على التبليغ أجرا إنما يسألون الأجر والمثوبة من العلى العظيم .

ثم يقول ذلك الرجل الصالح : ﴿ **وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** ﴾ كما جاء على لسان الخليل إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبة لعلهم يرجعون** ﴾[3].

ثم يقول ذلك العبد الصالح : ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة** ﴾ هذا سؤال تسيل له النفس مرارة والكبد لوعة أهناك آلهة غير الله ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين**

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ - ١٠٩

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٧

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ - ٢٨

يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾(١) ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾**(٢).

لذا أكد ذلك العبد الصالح هذا المعنى قائلا ﴿ **إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ﴾** .

إذ هم لا يملكون الشفاعة قال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾**(٣) وقال : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾**(٤).

أنهم كما لا يملكون الشفاعة ، لايستطيعون أن ينقذوا أحدا من عذاب الله لأنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾** . ثم قال العبد الصالح : ﴿ **إنى إذا لفى ضلال مبين ﴾** أى إن اتخذت آلهة غير الله وعبدت غيره فإنى فى ضلال مبين واضح ، ثم بعد هذا التسلسل يصل إلى تقرير الحقيقة العليا التى لايجادل فيها إلا كل ختار كفور فيقول :

﴿ **إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾** كما جاءت هذه الحقيقة على لسان خليل الرحمن إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين *

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩٤ - ١٩٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٣٨

(٣) سورة سبأ الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٤) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦

(٥) سورة الأنعام الآيتان : ١٧ ، ١٨

والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * وأغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾(1).

قوله ﴿ **فاسمعون** ﴾ قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – يقول لقومه : ﴿ **إنى آمنت بربكم** ﴾ الذى كفرتم به ﴿ **فاسمعون** ﴾ أى : فاسمعوا قولى ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ **إنى آمنت بربكم** ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ **فاسمعون** ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده كما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

قوله تعالى : ﴿ **قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ .

قال محمد بن اسحاق بسند .. عن ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج مسعاؤه من دبره ، وقال الله له : ﴿ **ادخل الجنة** ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ﴿ **قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ . قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿ **ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ وعن أبى مجلز ﴿ **بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ بإيمانى بربى وتصديقى المرسلين والمقصود أنهم لو أطلعوا على ما حصل له من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضى عنه فقد كان حريصا على هداية قومه .

قال إن أبى حاتم بسنده عن عروة بن مسعود الثقفى – رضى الله عنه أنه قال : للنبى ﷺ ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ (إنى أخاف أن يقتلوك) فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى فقال له رسول الله ﷺ : (انطلق) فانطلق فمر على اللات والعزى فقال لاصبحنك غدا بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : : يا معشر إن الات لالات وان العزى لا عزى أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال . (هذا مثله كمثل صاحب يس) ﴿ **قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ – ٨٩